



مقبرة الجلادين

Executioner's Graveyard

(CELLAT MEZARLIĞI)

أسلي بيركير

Asli E. Perker

رواية

مقبرة الجلادين

Cellat Mezarlığı

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-9948-446-33-0

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
Cellat Mezarlığı
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع

Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu



Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
06030 Ulus/ANKARA/TURKEY
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

مقبرة الجلادين

Cellat Mezarlığı

رواية

أسلي بيركير

Asli Perker

ترجمة

أفنان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





مقبرة الجلّادين

تأليف: أسلي بيركير

ترجمة: أفنان سعد الدين

تم إصدار هذا الكتاب بدعم من برنامج «أضواء على حقوق النشر» في أبوظبي.



This edition has been produced with a subsidy by the Spotlight on Rights programme in Abu Dhabi

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: 6345404 (2-971+) فاكس: 6345407 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

استعد حامد لمواجهة أشد أيام حياته حزناً. بعد أن ارتدى سترته، راح يتأمل نفسه في المرآة. فأعجبه مظهره، وراقت له هويته الجديدة. فقد مشط شعره إلى الجانب بهيئة مختلفة وحلق لحيته وشاربه. وبدا وهو مرتد بذلته السوداء الضيقة أشد نحافة وحتى أطول قامة. ساعده البائع في المحل على اختيار تلك البذلة، ولولا مساعدته لما عرف ما يشتري لنفسه. والآن، صب حامد لنفسه نصف كأس من الشراب من القارورة التي طالما احتفظ بها في الخزانة في غرفة المعيشة ولم يغير مكانها منذ أن توفيت والدته. وجد أنه لا يزال أمامه متسع من الوقت. فجلس على إحدى الأرائك المخملية الرمادية في غرفة المعيشة المظلمة التي لم يجلس فيها أحد منذ وقت طويل. وبعد أن أخذ رشفة من شرابه وضع الكأس على يد الأريكة وأخذ يتأمل المكان حوله. تذكر أن والدته لم تسمح له في طفولته بالجلوس قط في هذه الغرفة. فقد كانت غرفة مخصصة للضيوف. نظر إلى الزهرية ومنفضة السجائر الكريستاليتين اللتين لم تفارقا مكانيهما على طاولة القهوة منذ تلك الأيام الخوالي. فوالدته لم تنقلهما إلى مكان مختلف ولو ليوم واحد. أضفت عليه هذه الغرفة، التي طالما أغرته بدخولها وهو طفل، شعوراً بالكآبة الآن. فقد انعكست وحشة المكان على كل قطعة من قطع الأثاث. لم يملأ أحد تلك الزهرية بالزهور من قبل، ليس قبل أن تموت أمه فقط بل بعد وفاتها أيضاً. ولم يرفع أحد قدميه على طاولة القهوة أو يحول أريكتين إلى سرير لأحد الأطفال عبر ضمهما لبعضهما البعض. ولم تلعب قطة بانعكاس صورتها على

المرآة التي ظلت قابعة على قمة الخزانة. غرفة المعيشة هذه التي انتظرت استقبال مئات الضيوف في الماضي لم تعد الآن تسمع سوى صوت صليل الجليد على زجاج النافذة. وقبل أن تتمكن من ترديد صدى ذلك الصوت، عاد الباب مقفلاً من جديد. فقد أخذ حامد رشفة أخيرة من كأسه، ونهض وعاود إغلاق الباب في وجه الصمت مرة أخرى.

* * *

منذ زمن غير بعيد، أي قبل نحو عشرين يوماً فقط، بدأ حامد يطارد بيرنا. فقد وقع في حبها من اللحظة التي لمحتها فيها عيناه. وعندئذ، سرى في جسده شعور خدَّر أطرافه. ورغم أنه تعرف من قبل على الكثير من النساء الجميلات ونجح في استمالة معظمهن، إلا أنه لم يشعر بنفسه منجذباً إلى حب كهذا الحب. فبيرنا، التي جلست على بعد طاولتين فقط منه في تلك الليلة في أحد أشهر النوادي الليلية في اسطنبول، لم تكن مجرد امرأة جميلة بل مخلوقة تتمتع بهالة تضيء جميع من حولها. بدا الناس المحيطون بطاولتها أكثر أناقة وجمالاً منها بقليل وربما حتى أكثر أهمية. أما هي، فقد بدت بغاية البساطة؛ لم تصفف شعرها بتسريحة عصرية ولم تطلِ شفتيها بأحمر الشفاه القرمزي ولم تكشف عن رقبتها ببلوزة ذات ياقة واسعة، ولكن تموجات شعرها المبهمة والابتسامة الغامضة المرسومة على أطراف شفتيها ورقة جسدها هي ما خلب عقول الرجال من حولها. بدا من الواضح أن أصدقاءها الذين يشاطرونها الطاولة نفسها شعروا بالفخر لوجودهم برفقتها. فقد تمكن الجميع من ملاحظة شعورهم من الابتسامات التي راحوا يلقونها بين الحين والآخر على الآخرين من حولهم ليختبروا رد فعلهم. وجَّه أحدهم ابتسامة باتجاه طاولة

حامد ولكنه لم يتجاوب معها إلا بلامبالاته المرغمة المعهودة. ظل النادل يحضر طلباً تلو آخر من المشروبات إلى طاولة الفتاة الجميلة. فراحت ابتسامة بيرنا تتسع بعد كل كأس شراب تتناوله. وعندما رفعت شعرها قليلاً لتشعر بلمسة الهواء العليل، أبدى الجميع إعجابهم بعنقها المثالي. سمحت للأيادي الغريبة أن تتحسس ظهرها بين الحين والآخر، ولكنها ظلت تغير موقعها لتسمح للرجال بفرصة تلو أخرى لمحاولة لمسها من جديد. أدرك حامد كيف شعر أولئك الرجال الجالسون حول تلك الطاولة وكم تاقت نفوسهم إليها. واستطاع من مكانه تخيل كيف سيشعر إن لامست أطراف أصابعه عنقها.

اعتلت إحدى المغنيات المشهورات خشبة المسرح، وراحت تغني محاولة أن تثير مشاعر الحضور بأغنيات حزينة وأخرى سعيدة. ومع ذلك، ركّز حامد كغيره من الرجال انتباهه على طريقة تجاوب تلك الحسناء مع الموسيقى. فقد التفتت بين الحين والآخر إلى الوراء بينما انعكس ضوء المسرح على عنقها البديع، وهذا ما حوَّل المنظر إلى عمل فني مبهر وجعل الأغنية، أياً كانت، تبدو أشبه بتحفة رائعة. عندما نهضت بيرنا بعد حوالى ساعتين لتذهب إلى حمام السيدات، حبس الجميع أنفاسهم ورمقوها بنظرات الإعجاب بحرية قدر المستطاع. في غيابها، بات كل شيء كئيباً كأن الأغنية تجردت من لحنها وفقدت الآلات الموسيقية إيقاعها. وعندما عادت بعد خمس دقائق، عاود الجميع الاستمتاع بوقتهم من جديد كما يفعل الناس عندما يتوقف الهوائي في غمرة مباراة كرة قدم مثيرة ثم يعود للعمل بعد بضع دقائق. لم يستطع حامد أن يقاوم هذا الاحتفال الصغير فطلب لنفسه كأساً أخرى لينضم إلى جنون العامة. لم يغب نظره

عنها طوال الليلة وهو مدرك أن بيرنا لاحظت مراقبة الجميع لكل تحركاتها. ومع ذلك، فلم تلتفت لتنظر إلى أحد ولم تظهر أي إيماءة توحي بأنها سعيدة أو منزعجة من الاهتمام الذي تلقته من الجميع، ولكن الشيء الوحيد الذي لم تدركه بيرنا هو أن عيون أحد الرجال الغرباء ظلت تلاحقها حتى بعد أن غادرت المكان وذهبت إلى بيتها.

من تلك الليلة وصاعداً، أصبح من عادة حامد أن ينتظر ساعات طويلة ليلاً ونهاراً كل يوم على الرصيف المقابل لبيت الفتاة ولم يدعها تغيب عن نظره. فأصبح أشبه بظلها دون أن تدري وحفظ الموعد الذي تستيقظ فيه وما تفعله ومن تقابل خلال يومها وفي أي وقت تخلد للفراش. كانت بيرنا ترتاد مركزاً رياضياً مترفاً في جادة بغداد ثلاثة أيام في الأسبوع، ثم تذهب بعد الانتهاء من كل تمرين رياضي إلى مقهى قريب من الصالة الرياضية. أما حامد، فقد بات بفضل مظهره الجديد الأنيق زبوناً مستديماً في ذلك المقهى أيضاً. فكان دائماً ما يجلس عند الطاولة القريبة من بيرنا ويرد على ابتساماتها المغناجة بتهذيب شديد كل مرة. ورغم كل ذلك، فتلك الفراشات التي رفرفت في قلبيهما عند كل لقاء جمع بينهما لم تتحول إلى قصة حب جميلة. إذ إن قصتهما شارفت على النهاية قبل أن تبدأ، ولكن نهايتها لم تكن نهاية سعيدة كنهايات قصص الحب الرومانسية.

* * *

عندما غادر حامد شقته في ذلك اليوم الكئيب، شعر بجفنيه مثقلين كقلبه. فقاد سيارته بتمهل متجهاً إلى جادة بغداد التي تقع فيها الصالة الرياضية. هب نسيم عليل محمل بصخب مدينة اسطنبول والموسيقى الصادحة من السيارات الأخرى ودخل من النافذة المفتوحة. كانت بيرنا على الأرجح في المقهى في تلك اللحظة. وبعد خمس عشرة

دقيقة، كانت ستغادر. حسب خطة حامد، كانا سيلتقيان مصادفة في المرآب حيث اعتادت بيرنا أن تركن سيارتها. عندما ركن سيارته بجوار سيارتها، شعر أنه غير راغب بمغادرة السيارة. وأصبحت حركاته أبطأ من المعتاد. لم يستغرق الأمر منه وقتاً طويلاً ليفرغ الهواء من عجلة سيارة بيرنا. في الواقع، لم يستغرق أكثر من دقيقتين. ولم يعد يجب عليه سوى أن يخرج ويعود إلى المرآب مرة أخرى بأفضل توقيت ممكن. لم يمض وقت طويل حتى اجتمع الاثنان وهما يمشيان على طول المكان نفسه على الجانبين المتعاكسين من الرصيف. وكانت بيرنا تحمل كعادتها حقيبتها الرياضية إلى جانب حقيبتها العادية. وعندما وصلا إلى الباب معاً، حيَّا بعضهما بإيماءة صغيرة وابتسامة. توخى كل منهما الحذر لئلا يقول أي شيء قبل أن يبادره الطرف الآخر بالحديث. وعندما وصلا إلى سيارتيهما، انتبهت بيرنا للعجلة المثقوبة وتنهدت بصوت مرتفع قليلاً، لذا بدت تلك اللحظة مثالية لأن يتقدم منها حامد ويعرض عليها مساعدته.

"أرجو المعذرة. هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟"

"لدي عجلة مثقوبة. ما الذي يتوجب عليّ فعله الآن؟ هذا مزعج للغاية. حسناً، أظن أنني سأستقل سيارة أجرة"

"إنني أسكن في شارع سنجليكوي. أين تسكنين أنت؟ أعني، إن كنت تسكنين بالقرب منه، يمكنني أن أوصلك بسيارتي"

"حسناً، نعم بالقرب منه إلى حدٍّ ما، في شارع غوزغنكوك، ولكنني أشكرك بالفعل. فلا داعي- لذلك. شكراً لك على كل حال"

"نكاد نكون جيراناً. فالمسافة قصيرة جداً بين المكانين. ولا مانع لدي من أن أوصلك"

من الواضح أن بيرنا رفضت عرضه بفتور على كل حال. فقد تملكها الفضول حيال هذا الرجل الذي ظلت تراه مراراً في المقهى منذ بعض الوقت. وفوق كل شيء، فقد بدا في ذلك اليوم أشد وسامة من أي وقت مضى. وفي تلك الحالة، فقد شكّل ذلك سبباً كافياً لحامد ليزيد في الإلحاح عليها.

"من فضلك. إنني جاد بالفعل. نحن ذاهبان بالاتجاه نفسه على كل حال"

"إذاً حسناً. شكراً جزيلاً لك"

"العفو"

تصرف حامد بأسلوب السيد المهذب المثالي للمرة الأولى في حياته. ففتح الباب لبيرنا التي جلست وهي مسرورة من هذه المعاملة الحسنة.

"إن لم تمانعي، سأضع حقيبتك الرياضية على المقعد الخلفي. فسيكون من الأسهل أن تثبتي حزام الأمان بهذه الطريقة"

"آه، شكراً جزيلاً لك. آمل ألا يسبب لك هذا إزعاجاً كبيراً"

"كلا، على الإطلاق"

بعد أن وضع الحقيبة على المقعد الخلفي، مدّ حامد يده إلى الأمام، وأمسك بذقن بيرنا بيده اليسرى ومؤخرة رأسها بيده اليمنى وكسر عنقها الجميل بثانية واحدة. وعندما جلس في مقعد السائق، شعر بيديه باردتين كالثلج. التفت إلى بيرنا. فوجدها تحدق إليه بعينيها المفتوحتين. لم يتعرفا على اسمي بعضهما، ولكنها بدت وكأنها على وشك أن تقول له "أحبك"

* * *

لم يحضر جنازة بيرنا سوى شخصين: حامد وعيسى. وكان

عيسى قد عثر للمرأة، بناء على طلب من حامد، على قبر بموقع جميل تحت إحدى أشجار المقبرة تنمو من التربة الخصبة على جانبيه زهور الأقحوان. أصدرت أوراق الأشجار صوت حفيف وكأنها تتمتم دعاء على روحها. تأمل عيسى حامداً ورآه يرفع يديه إلى السماء داعياً. لم يره يدعو بهذه الطريقة أو يشعر بالحزن بهذا الشكل من قبل قط. لم ينطق حامد بكلمة واحدة منذ حضر أكثر من كلمة مرحباً ثم اختفى صوته قبل أن يكمل تلك الكلمة القصيرة. وبعد أن وقف هناك لبعض الوقت، قرر عيسى أن يتركه وحده. لم ير جثة المرأة الملفوفة بالكفن، ولكن عندما أمسك بكاحليها الرقيقين ليساعد حامداً على وضعها في القبر، شعر بطبيعة تلك المرأة الناعمة. التفت ونظر إلى حامد مرة أخرى. فوجده الآن راكعاً على ركبتيه ووجهه مدفون بين يديه بينما أخذت الدموع التي لم تذرفها عيناه تتسرب إلى أعماق قلبه. أدرك عيسى في تلك اللحظة أن حامداً بدا أكثر وسامة من أي وقت مضى.

عندما أصبح حامد قادراً على النهوض مرة أخرى بعد بضع ساعات، تساقطت منه المشاعر المتبقية على الأرض كما تساقطت ذرات التراب التي علقت على ركبتي سرواله، ولكنه كان سيحتضن البقع التي عليهما مرة أخرى قبل أن يخلد للفراش ويتنشق رائحة قبر المرأة للمرة الأخيرة قبل أن يمزقها إلى قطع. تمنى لو يهبط الحزن عليه بارداً كليالي الشتاء، ولكنه لسوء الحظ هبط عليه كيوم ثقيل من أيام الصيف مليء بالرطوبة والضوء الساطع الذي يعمي البصر. لم تعد لديه الطاقة للتفوُّه بأية كلمة، ولهذا السبب غادر من دون أن يودع عيسى. ومن ذلك الوقت فصاعداً، بات يتردد إلى تلك المقبرة غالباً في الليل وأحياناً في النهار ويصلي على قبر المرأة التي

كتب اسماً مختلفاً على شاهدة قبرها. فكانت روح سمية إيريكول ستنال المزيد من المباركات بينما سترتفع التربة على قبرها وسيحتل الأقحوان النامي بقربها مكانه ليس في زهرية حامد بل في كأس من الماء في مكان آخر.

بينما هو في طريقه مغادراً المقبرة، بذل المزيد من الجهد ليجري مكالمة على هاتفه الخليوي لم يقل فيها سوى: "نفذت المهمة"

1

استيقظ دنيز في وقت مبكر من الصباح على رائحة كريهة حادة. لم يستطع أن يحدد مكان وجوده في الدقائق الأولى بعد أن فتح عينيه وشعر أنه عاجز عن تحديد هويته وهو لا يزال يحدق إلى السقف الأبيض. لم يكن قصر نظره هو السبب الوحيد في رؤيته الضبابية بل استعادته لوعيه ببطء بينما حاول دماغه أن يمنعه من الاسترسال في التفكير. بدأ يعود إلى الحياة شيئاً فشيئاً. فراح يتحسس جسده الدبق. وعندما استعاد وعيه بشكل كامل، وجلس على الأريكة حيث فقد وعيه الليلة الماضية، اكتشف مصدر تلك الرائحة النتنة. فقد كانت تلك المرة الأولى التي يبلل فيها ثيابه منذ طفولته. قفز على قدميه وهو منزعج للغاية، وشعر بالاشمئزاز من نفسه، ووجد حتى قميصه مبللاً وملتصقاً بجسده. لم يعد يحتمل الرائحة النتنة التي فاحت من جسده. وعندما نظر إلى الأريكة، رأى بقعة كبيرة قد لا يبدو من السهل على الأرجح التخلص منها. لم تكن لديه أية فكرة عما يجب أن يفعله بها. ترى هل يتركها لتجف وتتبخر أم يمسحها؟ قبل أن يتسنى له أي وقت ليتخذ قراراً حيالها، تسارعت في ذهنه أحداث الليلة الماضية، وقفزت إليه بسؤال: "هل ذلك حلم أم حقيقة؟" بدا كل شيء حدث الليلة الماضية أكثر من حقيقي، إلا أن دنيز تساءل فيما إذا كان يستطيع أن ينسى حقيقة ما جرى ووجد نفسه يرتجف من الخوف. ترى هل يمكنه أن يتعايش مع هذا الخوف طيلة حياته؟ هل سيتمكن أن يتفوّه بحرف أو أن يشاطر أحداً غرفة من دون أن

يخشى التكلم في أثناء نومه؟ قال لنفسه وهو ينزع عنه ملابسه المبللة: "لو أنني فكرت للحظة واحدة! ليتني لم أحتس تلك الكؤوس الأربع من ذلك الشراب القوي. ليتني شاهدت مباراة كرة السلة على التلفاز بدلاً من الخروج من البيت" وكرر وهو يغمض عينيه بيده: "ليتني ليتني ليتني خيل إليه ربما أنه لو ركّز بقوة كافية فسيتمكن من إعادة الزمن إلى الوراء وتغيير مجريات الأحداث. شعر باليأس نفسه الذي شعر به الكثير من الناس من قبل. وسمع وقرأ وحتى فكر في الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يغير حياته بلحظة واحدة. ومع ذلك، فعندما أتت تلك اللحظة وعثرت عليه، ضيعها بتهوره وطيشه.

ظل دنيز قادراً على أداء مهماته بالرغم من الأفكار التي ظلت تتنازع في رأسه. خلع ملابسه ودخل إلى الحمام. كان قد سبق وخطط لما سيفعله خلال يومه ذلك. فقد كان سيقابل لطفي بعد بضع ساعات في تقسيم بجانب الهواتف العمومية ثم يعود إلى البيت ولا يغادره لبعض الوقت. فقد طلب منه لطفي ألا يتجول بعيداً عن البيت لبضعة أيام، ونصحه أن يلزم مكانه وألا يذهب إلى مكان أبعد من متجر البقالة أو الصيدلية. وإن اتصل به أحد، فقد قرر أن يدعي أنه يعاني من حصى في الكلية لأن مرضاً مثل الزكام أو الأنفلونزا يحتاج إلى بعض المؤثرات الصوتية لإقناع الآخرين. لم يهتم دنيز لطلب لطفي عدم مغادرته المنزل. فقد حدث عدة مرات من قبل أنه لم يغادر البيت لأيام مفضلاً على ذلك ألعاب الفيديو أو مشاهدة التلفاز على النشاطات الاجتماعية. ومع ذلك، فقد أيقن أن ما سيحدث هو كالتالي: من ذلك الوقت فصاعداً، كان سيصيبه الفزع كلما رن جرس الباب. فإن رن أي عامل توصيل للبريد السريع جرس بابه بالخطأ، فسيسبب له نوبة من السخط، وإن سمع صوت سيارة شرطة تأمر

سيارة أخرى أن تتقدم بمكبر الصوت، فسيسبب له ذلك نوبة قلبية. الآن أدرك حقيقة الورطة التي أوقع نفسه فيها. لم تكن لديه أية فكرة عن الجهة التي يعمل لطفي لصالحها. ترى هل يمكنه الوثوق به؟ لم تكن لديه أية فكرة عن المخاطر التي يعرض نفسه لها بالتورط مع أولئك الناس. ومع تسارع إيقاع الأحداث، لم يستطع أن يفكر سوى بالاتصال بلطفي، ولكن لم يخطر بباله حقاً إمكان عدم قدرته على التخلص منه مرة أخرى. وبالرغم من أن لطفي كان مديناً له من قبل، فقد أيقن أن هذه المسألة أكبر بكثير من مجرد دين. إذ وجد أنه من الممكن للطفي حتى بعد ثلاث أو خمس سنوات أن يطلب منه خدمة ما بالرغم من المبلغ الذي قرر أن يعطيه إياه. أليس الأمر كذلك؟ بمجرد أن يتورط المرء، يظل متورطاً إلى الأبد. حاول دنيز أن يستعيد أحداث الليلة الفائتة مرة أخرى. فتذكر كل ما قاله له لطفي، وأخذ يحلله ليفهم ما سيحصل لاحقاً. قال له إنهما لن يقابلا بعضهما مرة أخرى بعد أن يقبض ماله، ولكن هذا لم يكف لتهدئة دنيز.

تلك هي الأفكار الوحيدة التي طرأت على بال دنيز عندما أجبر نفسه على التفكير بالليلة التي مضت. وشكلت الجريمة التي ارتكبها علامة ناقص (-) كبيرة على صفحة حياته. كان طالباً بالسنة الرابعة في كلية الرياضيات ويتمتع بعقل تحليلي، ولهذا السبب توجب عليه أن يحل مشاكله خطوة خطوة حسب أولوياتها. فكل ما كان يهمه الآن هو إنقاذ نفسه. أما التفكير بالجريمة التي أنهى بها حياة إنسان بيديه وتأنيب الضمير، فتلك أمور قرر أن يؤجلها لوقت لاحق. ومع ذلك، فحتى يأتي يوم الندم، أدرك دنيز أنه سيمضي ليالي أرق كثيرة ويعاني من نوبات اكتئاب ويستسلم لنوع من الخوف لم يعهده طوال حياته بأكملها.

لم تبارحه كل تلك الأسئلة وهو يمسح الأريكة المتسخة بالماء والصابون وسرعة يديه متماشية مع سرعة الأفكار المتلاحقة في عقله. ولم يحدث إلى حين انتهى من التنظيف أن أدرك أنه مر بأول نوبة من نوبات فزعه. وبدلاً من أن ينزل إلى متجر البقالة، طلب حاجياته بالهاتف. فقد أدرك أنه من الأفضل أن يقلل من لقائه بالناس قدر المستطاع. فطلب صندوقاً من البيض ورغيف خبز وعصير برتقال وأضاف: "أريد أيضاً صحيفتي الحرية والصباح. أحضروا الطلبات إلى الشقة رقم خمسة بناء مانويلا"

* * *

أخذ هاتف عيسى الجوال يهتز في الساعة الثالثة من صباح ذلك اليوم بينما هو يسبح في أحلامه في مكان بعيد. وبالرغم من أنه لم يقرب البحر من قبل، فقد راح يسبح ويغوص كالسمكة بينما سرت البرودة التي أحس بها خلف أذنيه في كافة أنحاء جسده. شعر لبرهة أنه لا يريد أن يفارقه هذا الحلم الجميل ورفض أن يتقبل وجود الهاتف الرجاج تحت وسادته. وعندما استيقظ من النوم أخيراً، لم يشعر بحاجة حتى إلى النظر إلى الاسم الظاهر على الشاشة. فقد عرف اسم المتصل سلفاً. ورغم أن أي اتصال في أي وقت لم يكن ليفاجئه على الإطلاق، فقد ظن مع ذلك أن ثمة حالة طارئة بلا شك. لم يكن الفتور في صوته ناجماً عن النوم الذي استيقظ منه لتوه ولكن من شعوره بالانزعاج. ومع ذلك، فقد أيقن أنه لا يتمتع برفاهية الامتناع عن الرد.

"هناك حالة طارئة، يا عيسى. إنني في طريقي. هيا، استعد وانتظرني

"حسناً، يا أخي

قال له ذلك من دون أي حماسة وبسبب الواجب المترتب عليه فقط. لطالما دعاه بلقب أخي، وهي كلمة تقال للأخ الأكبر، ولكنها تغيرت في لغة الشوارع إلى كلمة تعكس الاحترام والإخلاص بين أي رجلين.

لم يعش عيسى حياة مضطربة، بل على العكس من ذلك لطالما حظي بنظام جيد في حياته الفوضوية. فبعد أن ارتدى سرواله وقميصه، خرج من حجرته بحوزته دفتر صغير وقلم في جيب قميصه. وبعد أن مشى على بعد بضعة أقدام، ظهرت أول شواهد قبور في المقبرة. وبما أنه اعتاد أن يعمل على المناطق بشكل منهجي، فقد قرر أن يذهب إلى مكان لم تطأه قدمه من قبل قط. في ظل ظروف طبيعية، كان سيعثر على القبر في النهار ثم يذهب ويعمل على حفره ليلاً. ولطالما فعل ذلك، وفقاً لنظام معين. فإن تواجدت هناك مائة شاهدة في كل منطقة، بدأ بالشاهدة التي في المقدمة ثم تراجع إلى الخلف قبراً تلو الآخر. عمل على تصنيف كل شواهد القبور التي فتحها من قبل في قائمة على دفتره، لذا لم يصبه الارتباك. في تلك الليلة، كان القمر قد أنهى رحلته الشهرية وبدأ هلال جديد، لذا ساد ظلام حالك في المكان. فوجد عيسى صعوبة في العثور على القبر التالي في الظلام وساعده الضوء الكشاف الذي بحوزته على العثور على خطوته التالية فقط ثم التي تليها. وهكذا، فقد بدا من الأفضل له أن يخالف لائحته ويقاطع نظامه مرة ثم يعود ليواصل نمطه المعتاد عندما ينتهي الأمر برمته. وبينما هو يحاول أن يعثر على أفضل مكان ممكن، حاول أيضاً أن يسترق النظر إلى السماء ليؤدي للمنظر الجميل حقه. في أية لحظة، كان هذا الليل الربيعي الجميل سيسرق قلبه والقمر الذي يلقي بضوئه الباهت سيوحي إليه أن يكتب قصيدة رومانسية في وقت ما

بين مواعيده، ولكن شجرة السرو التي وقفت حائلاً بينه وبين القمر لم تسهل الأمور عليه. فقال لنفسه: "لا بد أن هذا أجمل مكان في هذه المدينة. لا بوسفور ولا غيره بل فقط سيفيلي سواء أكان القمر أم الربيع أم شجرة السرو هو ما ملأ عيسى بشعور غامر لم يدرك كنهه، ولكنه عثر في نهاية المطاف على ضالته المنشودة:

إبراهيم ساريكان

1942-1999

والد وزوج وصديق محب

الفاتحة على روحه الطاهرة

2

في تلك الليلة، رن هاتف حامد قبل أن يرن هاتف عيسى بساعة واحدة. لم يكن يتذوق طعم الحياة الغامضة في أحلامه في تلك اللحظة. فالطعم الوحيد الذي شعر به هو طعم اليانسون في شرابه يقاطعه بين الحين والآخر مكعب من الثلج. عندما رأى اسم لطفي على الهاتف، رد وشيء من القلق يساوره. لطالما اعتاد على مكالمات ابن أخته غير المتوقعة، لهذا السبب لم يكن المتصل هو ما أصابه بالقلق بل توقيت الاتصال. فعادة ما كان لطفي يتصل به ليطلب منه خدمات صغيرة أو مبالغ من المال. ولم يتوان حامد عن تقديم المساعدة له معظم الوقت. إذ إنه كان يحب لطفي كما يحبه الجميع لأنه شاب صالح يتمتع بميزة تجذب الجميع إليه وتجعلهم يعشقونه. فإن ذكر حامد للآخرين أنه ابن أخته، تعامل معه الناس معاملة مختلفة ليس باحترام أكبر بل بمزيد من الحب.

"نعم"

"مرحباً، يا خالي. إنني آسف لاتصالي بك في هذا الوقت، ولكن هناك حالة طارئة. هل يمكنك الحضور؟"

"ما العنوان؟"

لم يعتد حامد أن يسأل عن التفاصيل في الهاتف قط. فإن كان الشخص الذي يتحدث على الجهة الأخرى من الخط شخصاً يثق به، ذهب ليرى الوضع بنفسه. لم تكن هناك أية مشكلة بلا حل من وجهة نظره. قاد سيارته يتملكه بعض الفضول إلى شارع أورتاكوي ثم ركنها

على بعد شـارع واحد من العنوان الذي أعطاه إياه ابن أخته، وذهب ليكتشف ما حدث. وعندما تأكد من عدم وجود أحد في الأنحاء أو أية عيون تختلس النظر إليه من خلف الستائر، دخل إلى البناء ووجد الباب في الطابق الأرضي مواربًا بعض الشيء.

"هنا، يا خالي

"ماذا جرى؟ منزل من هذا؟"

"منزل صديق صديقي. حسنًا، إنه ليس صديقه بالفعل

عندمـا دخـل حامـد إلى البيت، لاحظ مباشـرة جثـة مرمية على أرض المطبخ. وبعد أن فرك ذقنه الخشـنة بيديه وهو منزعج ومتوتر بشكل واضح، تنهد بصوت عالٍ.

وقال: "هل أنت من فعل هذا؟"

في الواقع، فقد تمنى حامد أن يسـمع كلمة "نعم" عندما طرح السؤال. إذ إنه لم يجد صعوبة في إعادة تنظيم أي فوضى تسبب بها لطفي، ولكنه اعتبر أنه غير مسـؤول عن فوضى تسـبب بها شـخص آخر.

"كلا، يـا خالـي. لـدي صديق من الكلية قدم لي خدمة في أحد الأيـام، لـذا فأنـا مديـن له. قبل سـاعة أو نحو ذلـك، اتصل بي وقال لي بصوت مضطرب إنه بحاجة إلى مسـاعدتي. لم أسـأله عما جرى على الهاتف، بل أخذت العنوان واتجهت إلى هنا على الفور، ولكن صدقنـي إن قلـت لـك إننـي لم أتوقع هذا. ظننت أن شـجارًا قد وقع وأنهم بحاجة إلى مساعدتي. لست أدري. إنه شاب هادئ جدًا عادة ولا يتحـدث مـع أي أحـد، لـذا لم أتوقع حدوث هذا. عندما وصلت إلى هنا ورأيت الرجل وهو مستلق هناك يصارع الموت، قلت له تبًا يا رجل ماذا جرى؟ فلفظ الرجل آخر أنفاسه وفارق الحياة بينما ألقى

صديقي الغبي السكين على الأرض وراح ينظر إلى الرجل الميت كالأحمق. ما الذي ينبغي علي فعله؟ لقد أتيت إلى هنا بمحض إرادتي، صحيح؟ لم يعد بوسعي المغادرة، لذا أمرته بأن يغسل يديه وأشياءه وتحدثت معه عن المبلغ المطلوب. وقلت له إننا سنتولى هذه المسألة غداً. عندما أحصل على المال، سأحضره لك أولاً. ثم طلبت منه أن يرحل

كان السبب الوحيد الذي جعل لطفي يشير إلى موضوع المال في وقت مبكر من المحادثة هو أنه أدرك أن هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمها خاله، فهو لم يكن سيرفض تقديم المساعدة له من دون مقابل بل سيلطمه على وجهه إن لم يسمع ما يتوقع سماعه منه. لطالما جمعت بينهما علاقة مقربة وعائلية. ومع ذلك، لم ينس لطفي غضب خاله المشهور وسيئ السمعة. لم يشعر بالأمان حتى بعد أن ذكر موضوع المال، ولكنه قام بالمجازفة وهو يعرف أن الكلمات التي ستخرج من بين شفتي خاله في لحظة ستقرر مصيره بشكل واضح.

"هل يمكننا أن نثق بهذا الشاب؟"

"حسناً. هو من ارتكب الجريمة بيده، لذا لا يمكنه أن يفعل أي شيء آخر سوى السكوت، صحيح؟ وبالإضافة لذلك، فهو شاب هادئ"

"حسناً. الآن، اذهب إلى سيارتي. ستجدها مركونة في الشارع المجاور. افتح الصندوق وارفع الحصيرة من الجانب الأيمن. يوجد كيس مطوي هناك. خذه وخبئه بين ملابسك ثم أحضر السيارة إلى أمام البناء. توخَّ الحذر قبل أن تدخل إلى الشقة. انظر حولك لتتأكد من عدم وجود أحد. وإن وقعت أي متاعب بسبب هذه الحادثة اللعينة، فأنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك. هل فهمت كلامي، أيها النمر؟"

ركّز حامد على كلمة "نمر" في نهاية كلامه بلهجة جعلت لطفي يتأكد أنه ليس بحاجة إلى سماع أي كلام آخر ويعي أن خاله يعني كل كلمة قالها.

بعد أن أرسل حامد لطفي خارج الشقة، ألقى نظرة في الأنحاء. وعندما دخل إلى غرفة النوم وفتح الأدراج، جعلته رائحة العطر التي صدرت منها يدرك نوعية الرجل الذي يمتلك هذه الشقة. فأخذ كل ما استطاع العثور عليه؛ الشراشف والبطانيات والمناشف وأحضرها إلى غرفة المعيشة وكومها فوق بعضها ثم خلع سترته وطوى كمي قميصه وساقي بنطاله. وبعد أن خلع حذاءه، بدأ بالعمل وهو منزعج من أصابع جواربه الممزقة. فأخذ منشفتين ووضعهما على الدماء المنتشرة حول الجثة لتتشربها ثم اتجه إلى الحمام ليأخذ أيًا من وسائل التنظيف التي يمكنه العثور عليها. فملأ دلواً بالماء ووضع كل الصابون الذي استطاع العثور عليه في داخله. بينما هو يفعل كل هذا، ظل يتأمل المكان المحيط به وهو يتساءل إن كان ذلك الشاب يعيش وحده. وعندما عاد إلى غرفة المعيشة، وجد أن المناشف قد امتصت معظم الدماء. فتمتم لنفسه قائلاً: "على الأقل، سقط على ظهره" فقد سهل هذا الأمور عليه. إذ إن الدماء التي كان من المفترض بها أن تسيل تجمعت داخل بطنه ولم تتسرب منه. استطاع حامد أن يلاحظ وجود سبع أو ثماني طعنات في جسد الضحية. ففكر في نفسه أن هذا الوغد التعس لو لم يتعرض لهذا العدد الكبير من الطعنات لما نزف إلى هذا الحد ولما سببت دماؤه كل هذه الفوضى. قام بشق أحد الشراشف بسكين الجيب إلى قطع ونظف الأرض تحت الجثة بعد أن قلبها على جنبها ببطء ثم على الجانب الآخر. أصبحت المناشف ثقيلة بسبب الدم الذي تشربته. قرع لطفي بلطف على الباب. عندما

دخل، لاحظ أن معظم العمل قد تم إنجازه. وبعد أن وضعا كل شيء ملطخ بالدماء في أكياس القمامة التي استطاعا العثور عليها، طلب حامد من لطفي أن يرفع ساقي الرجل ويبقيهما مرفوعتين. وبينما هو ينفذ ما أمره به، بذل انتباهاً كبيراً لما يجري وشعر نوعاً ما بالفخر نحو خاله. ولم يسعه إلا أن يفكر كم سيكون ذلك عملاً مريعاً لو اضطر للقيام به بنفسه. وفي اللحظة التي بدأ فيها حامد يدخل ساقي الرجل في الكيس، أطلقت الجثة غازاً. فكاد لطفي أن يسقط الساقين من شدة الفزع ولكنه تمكن من الإمساك بها قبل أن تسقط. تفقد رد فعل خاله مباشرة. فقد شعر أنه يجري اختباراً من نوع ما وأنه يتوجب عليه أن يحرز فيه نتيجة مرضية. ومع ذلك، فالخوف من خاله لم يبد كافياً ليكبح الشعور بالغثيان الذي انتابه عندما اجتمعت رائحة أربعة رجال مروا بالكثير من المتاعب في تلك الليلة مع هذه الرائحة الجديدة وشكلت مزيجاً لا يحتمل. أما حامد من جهة أخرى، فلم يشتت شيء انتباهه على الإطلاق بل استمر بما يقوم به على أكمل وجه ولم يتوقف عن العمل ليشرح لابن أخته إلى ما سيؤدي إليه هذا. بعد أن أدخل الكيس حتى وصل إلى وركي الرجل وهو يحركه من جانب إلى آخر، أمر لطفي أن يمسكه من كتفيه الآن وواصل العمل. انتهى من العمل عندما أدخل الكيس في رأس الجثة وربطه بإحكام في النهاية. أمسك حامد الجثة من كتفيها بينما أمسكها لطفي من قدميها ثم حملاها معاً إلى الباب. وبعد أن فرد كميه وساقي بنطاله وعاود ارتداء سترته وجلس عنقه ووضع ياقته تحت السترة بعناية، انتعل حذاءه والتفت إلى لطفي وأمره أن ينظف المكان بالدلو الذي حضَّره وألا ينسى الأكياس فيحرقها في مكان مناسب. في ظل ظروف طبيعية، لم يكن حامد ليقوم بأي من هذه الأعمال. فقد كان عمله

شديد البساطة ولا يتطلب أي تنظيف. فبعد خبرة سنوات طويلة، بات يعرف بالضبط كيف يقتل ضحيته من دون أن يريق قطرة دماء واحدة، وأين يقتلها، وكيف يحمل الجثة في صندوق السيارة بكل سهولة. ومن بين الأسباب التي جعلته أسطورة في محيطه هو أنه لطالما عمل من دون أن يترك أي أثر، وهذا ما جعل الزبائن لا يحملون عبء أية مهمة قط حالما يكلفون حامداً بها.

سر حامد سروراً بالغاً للمستوى المحترف الذي تمكن من بلوغه. ومع ذلك، فقد وجد في هذه الليلة متعة من نوع آخر وشعر أنه لم يعمل بهذا النشاط منذ سنوات بالرغم من أنه لم ينفذ الجريمة بنفسه. خالجه شعور يشبه شعوره في السنوات الأولى التي استهل فيها مهنته، وأضفى بعض الحيوية لحياته، وأخرجه من نطاق الروتين الممل. ولم يأبه بأنه توجّب عليه القيام بكل العمل في منتصف الليل. إذ إنه شعر أنه ما ينقصه ليستعيد حيويته من جديد وهو يقترب من بلوغ الخمسين من عمره هو هذا النوع من المفاجآت. ألم يطعن الكثير من الرجال في شبابه بسبب انفعال وقتي؟ ألم يمت العديد من أصدقائه بسبب لحظات سخيفة كتلك؟ لقد بدأ مؤخراً في الواقع يعيش المزيد من لحظات الحنين هذه. فظل يكرر بينه وبين نفسه: "نعم، الأيام الخوالي! كيف يمكنك ألا تحنّ للأيام التي اعتدنا أن نعمل فيها من دون التواصل بالهاتف العادي ناهيك عن الهاتف المحمول؟ في الأيام الخوالي، كنا نتعامل مع الناس وجهاً لوجه ونقوم بكل شيء وفقاً للقواعد. كنا مجرد صبية صغار نحمل الرسائل من شخص لآخر، وهكذا تربينا، وهكذا بدأنا حياتنا واكتسبنا الثقة. كيف إذاً تعلمنا أن نلتزم الصمت؟. كيف سنربي الناشئة؟ الآن، اطلب الرقم، ألق الأوامر، وهذا كل شيء!" بدأت تنتاب حامد بعض

المخاوف. فقد كان تقليدياً ومتحفظاً بعض الشيء ويتمتع بأخلاقيات عمل متطورة بشكل استثنائي. واعتاد أن يبذل قصارى جهده في تأدية عمله من دون أن يتجاهل حجمه. وعلاوة على ذلك، فقد بات يتابع دوماً كل ما هو جديد في العمل ويتعرف على التطورات العلمية عن كثب، ويفكر بأنه من المهم أن يظل المرء سباقاً ولا سيما بعد أن أدخلت تحاليل الحمض النووي وأساليب تعقب المجرمين الجديدة بعض الخوف في نفسه، ولكنه كان على الأقل يعرف ما يفعل أو ما لا يفعله. وهذا هو السبب الذي جعله ينجز عمله بصورة أشد تنظيماً في السنوات المنصرمة، والسبب هو: ارتفاع مستوى تقنيات حل الجرائم. إذ لم يعد من السهل تنفيذ المهمات بعد الآن. لم يشاطر الآخرين بأفكاره، ولكنه أكثر من مرة وجد نفسه يتذمر من الكاميرات الخفية التي تضبط الناس متلبسين. فاعتاد حامد في أغلب الأحيان أن يقيّم المكان الذي سيعمل فيه في وقت مسبق ويستدرج الضحية إلى مكان يشعر فيه براحة أكبر. وهكذا، فعندما بلغ عمله هذه الدرجة من الرتابة، شعر أنه من اللطيف أن يحظى بمغامرة صغيرة من هذا النوع وبالإثارة الناجمة عن المخاطرة حتى لو كانت صغيرة.

غادر حامد الشقة بعد أن ألقى بالجثة على أحد كتفيه بحركة واحدة بينما نظر إليه لطفي وهو مصدوم وخيل إليه أنه يجب على المرء أن يكون في تلك الأكياس ليعرف مقدار قوة ذلكما الذراعين المخبأتين تحت تلك السترة. لم يشعل زر الإضاءة في الممر، ولكنه تمكن من التماس طريقه من دون أي صعوبة. وعندما تأكد من خلو المكان من أحد، غادر المبنى ووضع الجثة في صندوق السيارة ثم اتصل بعيسى وهو ينطلق بالسيارة إلى بشكتاش وأيقن أن عيسى سيرد على المكالمة مهما تأخر الوقت. ربما لا يعجبه أن يتصل به أحد في

ذلـك الوقـت مـن الليل، ولكن لم يكن لديه أية فرصة لرفض المهمة لأنه يعرف أنه لا يسـتطيع أن يرفض طلباً لحامد أو أن يرفض تلقي المزيد من المال.

3

شاهد دنيز الدماء وهي تنزف من جسد أوكان عندما نزع السكين من جسده للمرة الأخيرة. حتى تلك اللحظة، لم يدرك عدد الطعنات التي طعنه إياها ولا الأذى الذي سببه له. ولو أنه أدرك منذ البداية أن الضربة الأولى لم تخترق عضلة البطن، لتوقف عند ذلك الحد وربما لتجنب عقوبة أكبر وقضى مجرد بضع سنوات في السجن. ولو أنه أدرك عندما طعنه للمرة الثانية، أن السكين كادت أن تخترق العضلة المنحرفة ولكنها لم تفعل ذلك، لحظي بفرصة أفضل. ومع ذلك، ففي غمرة تسارع الأحداث لم يدرك أياً من هذه الأمور. وبمرور كل ثانية، تفاقم فزعه وخفف من فرصه في الهروب من هذا الكابوس. ومن جهة أخرى، فقد أصيب أوكان بالصدمة مع الطعنة الأولى ولم يعد قادراً على المقاومة. وعندما فكر دنيز بهذا الأمر في وقت لاحق، أدرك مدى سخف الأفلام السينمائية. فالرجال في تلك الأفلام يتعرضون للطعام ملايين المرات ومع ذلك يظلون يملكون القوة التي تساعدهم على النهوض ومهاجمة قاتليهم من الخلف.

لو أن أوكان، الذي انهار ميتاً على أرض المطبخ، استطاع التوقع بالمستقبل لما اشترى مجموعة السكاكين تلك التي أعلن عنها موظف المبيعات على بابه قائلاً: "إنها تقطع حتى اللحم المجمد" لأن إحدى تلك السكاكين المذهلة هي التي سهلت الجريمة على دنيز. لم يخفق أوكان في التوقع بالمستقبل وحسب ولكن من الواضح أنه أثبت فشله في تقييم الناس المحيطين به. فقد فكّر بينه وبين نفسه في بداية تلك

الليلـة أن دنيـز شـاب مختلـف الميـول، ولكنه لم يدرك أن ثمة شـاباً غاضبـاً ومكتئبـاً يختبئ خلف ذلك المظهر المهذب المؤدب الهادئ. لطالما حلل أناس مختلفون تصرفات دنيز بشتى الطرق. وبما أنه لم يكن يتكلم ما لم يبادره شخص آخر بالحديث أو يجيب عن الأسئلة بأكثر كلمـة واحـدة فقـط، فقـد ظنه تسـعون بالمئـة من الناس شـاباً خجـولاً. وبالمقابـل، فقـد أدرك عشـرة بالمئة منهـم أن ميوله مختلفة كمـا فـي حالـة أوكان. ففـي اللحظة الأولى التي لمـح فيها دنيز تلك الليلة، شـعر بالتعاطف معه وأدرك أن خلف هذه الشـخصية الصامتة هناك شاب يبحث عن الحنان. فلم يضيع أي وقت في المضي قدماً في التعرف إليه. ولسوء الحظ، لم يتردد في دعوته إلى بيته ثم وضع يـده علـى كتفـه وأظهر له بعض العطف بعد أن احتسـيا بضع كؤوس من الشراب.

أمـا دنيـز فـي المقابـل، فقـد خلا قلبـه من أية عاطفـة ولم تكن لديه أية فكرة عما شـعر به وعجز عن كبح جماح الغضب المتأجج في داخله. ما السبب الذي جعله يقتل شخصاً لا يعرفه هكذا فجأة؟ ترى هل فعل ذلك لأنه شعر بالإهانة أم لأنه عثر على الشاب القوي المخفي في داخله؟ وبالرغم من أن الأمر كان يتطلب منه عادة اثنتي عشرة ساعة من النوم وثلاثة لترات من الماء ليصحو من آثار ما شربه، فقد وجد دنيز نفسـه صاحياً عندما نظر إلى جثة أوكان المرمية على الأرض، وشـعر أن عقله صاف ورؤيته شـديدة الوضوح ولم يشـعر بالغثيان أو الدوار. فقد صحا من غفلته في اللحظة نفسها التي أدرك فيها ما حدث. وعندما رفع يده ليعدل نظارته التي انزلقت على أنفه من العرق، رأى السـكين في يده. فانتشـر الرعب من دماغه، ووصل إلى أنحاء جسـده كافة في الوقت نفسـه. وشـعر بقلبه ينبض حتى في

أطـراف أصابعـه. لـم يشـعر أنه حـي إلى هذه الدرجة مـن قبل. نعم، هذه هي الكلمة الصحيحة التي عبرت عن حالته: حي! وأدرك حجم الحيز الذي احتله جسده: الطول 190 سنتمتراً والعرض 80 سنتمتراً. لم يسـتغرق الأمر منه وقتاً طويلاً ليقرر ما سـيفعل. حسـناً، لم يجد خيـارات كثيـرة عندمـا فكر في الطرق غير القانونية الوحيدة ليحل بها المشـكلة. فقـد فضـل أن يتخلـص من الجثة بدلاً مـن أن يقضي بقية حياته في السـجن. ولو أن هذه الواقعة وقعت قبل ثلاثة أشـهر، لما عـرف هـذا الشـاب بمن يتصل ولطعن نفسـه علـى الأرجح في نهاية المطـاف. ومـع ذلـك، فالحياة مليئـة بالمصادفات الغريبة بل شـديدة الغرابة لدرجة أنها تجعل الناس في بعض الأحيان يتفوهون بعبارات سخيفة مثل: "كل شيء يحدث لسبب ما"

* * *

لـم تـأتِ الصداقـة التـي جمعـت بيـن دنيـز ولطفـي ابـن اخت حامـد إلا نتيجـة مصادفـة بحتـة. وبالرغـم من أنهما التقيـا في الكلية إلا أنه لا يمكن القول إنهما زميلان بالفعل. إذ لـم يكن لطفي، وفقاً للمثل القديم القائل إن الولد يشـبه خاله، ذلك الشـخص الذي يقدم أي إسـهام للعالـم الأكاديمـي ليـس لأنـه لا يملك القـدرة على ذلك بـل علـى العكـس. فقد كان لطفي أكثـر ذكاء من الطلاب في الصف الذي اعتاد أن يتردد عليه بين الحين والآخر كطالـب مستمع ليجذب زبائن. مع ذلك، لـم يكن لديه الصبر الكافي لانتظار المال الذي يجنيه المرء من العمل الشاق لسنوات ثم العيش في شقة من غرفة واحدة يشتريها في نهاية المطاف. ومع ذلك، يمكن القول إنه لـم يترك تلك الصفوف بعقل غير مثقف البتة. لـم يكـن الآخرون يندهشون إن رأوه جالسـاً في المرج وهو يقارن بين الأدب الشـرقي والأدب الغربي أو

يعتبرون رؤيته وهو يعمل على حل مسـألة رياضية مع الآخرين أمراً غير وارد الحدوث.

احتـل لطفـي مكانـة قائـد حـرم الجامعة كلهـا تقريبـاً. فقد كان يتمتع بحرية الوصول إلى كل أنواع المخدرات، وهذا ما جعل معظم الطلاب وحتى بعض الأساتذة زبائن عنده. وكان سائقو حافلات الكلية يقسمون إنه حضر إلى الكلية كل يوم في ذلك الفصل الدراسي. لم يعرف أحد بخلاف زبائنه طويلي الأمد إن كان طالباً في الكلية أم لا. ومن ناحية أخرى، فقد ظلت تلك أحجية لا يأبه أحد لفهمها. فبينما بدا لطفي اجتماعياً وبالغ اللطف والدماثة، فقد بدا دنيز شاباً انطوائياً ورعديـداً. وبالرغـم مـن أنـه اعتاد أن يقابل الكثيـر من الناس، إلا أنه لطالما عانى من وقت عصيب في إنشـاء صداقة معهم. وبالرغم من حبه لكرة السلة، فقد فضّل دائماً أن يسدد الكرة بمفرده. ورغم حبه للاسـتماع إلى الموسـيقى لدرجة إجادته العزف على الغيتار، إلا أنه لـم يخـرج إلـى المقاهي إلا وحده. وفي ظل ظروف طبيعية، لم يكن أي شيء ليجمع بين الشابين دنيز ولطفي، ولكن عقل دنيز التحليلي أنشأ ذات يوم صداقة غيرت مجرى حياته.

* * *

عندمـا دخـل لطفـي إلـى غرفة صـف دنيز، لم يجد فيها سـوى شخصين، هما زبون لطفي ودنيز. وبالرغم من أنهما لم يلتقيا من قبل قـط، فقـد أومـأ لطفي لدنيز برأسـه ليحفزه على الانضمام إلى لائحته أو لـمجـرد التصـرف بوديـة كعادتـه. رد دنيز على إيماءة لطفي برأسـه أيضاً ورأى الكيس الصغير الذي سلمه لطفي للشخص الآخر بطرف عينه، ولكنه غادر الصف قبل أن تتم الصفقة. ولـم يكد يخطو خطوتين حتى رأى اثنين من رجال الأمن يصعدان الدرج. لم يكن ليفعل أي

شيء حيال ذلك في الأحوال العادية، ومع ذلك فربما أصاب التقدير الذي ناله في الوقت المناسب نقطة ضعف لديه، لذا عاد إلى الصف بسرعة متظاهراً أنه نسي شيئاً ما. وقبل أن يتمكن لطفي والزبون من فهم ما يجري، توجه نحوهما بسرعة وأخذ الكيس الصغير المليء بالمسحوق الأبيض وتفوه بكلمة "أمن" ثم توجه إلى السبورة ورش المسحوق على غبار الطباشير. عندما دخل رجلا الأمن، همّ دنيز بمغادرة الصف ثانية بعد أن حول الكيس الصغير إلى لعبة تظاهر أنه يعبث بها منذ مدة. وبعد أن فتش رجلا الأمن الشبان الثلاثة، وأخذا وقتهما وتفقدا سلة المهملات، توجب عليهم تركهم وشأنهم. نتيجة لتلك الحادثة، توصل لطفي إلى استنتاجين مهمين، وهما أن أحدهم قد وشى به وأن الوقت قد حان لأن يغادر حرم الجامعة والثاني هو أنه بات مديناً لذلك الشاب بالعرفان لجميله الكبير.

لم يصبحا صديقين حميمين بعد أن غادرا الصف معاً ذلك اليوم، ولكنهما أصبحا فيما بعد مرتبطين بطريقة جعلتهما غير قادرين على نسيان بعضهما حتى لو نسي كل منهما ملامح وجه الآخر. عندما رن هاتف لطفي بعد مرور بضعة أشهر على تلك الحادثة، كان ذلك هو الوقت بالذات الذي بدأ يشعر فيه بالقلق حيال هذا الجميل الذي لم يرد، ولهذا السبب ذهب إلى العنوان الذي أعطاه إياه دنيز من دون أي تردد.

4

بعد أن قرر عيسى أي موقع سيستخدم، توجّه إلى باب المقبرة وانتظر وصول حامد الذي لطالما قاد سيارته كقطة صامتة تتسلل بهدوء وحذر قبل أن تباغت السمكة في سوق السمك. لم يكن أحد يأتي إلى المقبرة بعد غروب الشمس ولا سيما في ساعة متأخرة من الليل. مضت عدة سنوات على بدء عيسى لعمله في مقبرة سيفيلي، ولكنه لم يصادف إلا مرة واحدة فقط شاباً أتى قرابة منتصف الليل ورآه يقضي حاجته على الجدار، وهذا التصرف بالطبع يؤدي بصاحبه إلى الدخول الحتمي إلى جهنم حسب اعتقادات الناس المؤمنين بالخرافات. وخلافاً لذلك، فقد كانت تلك المقبرة ملكاً لعيسى وسكانها الأبديين. لم يكن عيسى أكثر شجاعة من الناس الآخرين بطبيعة الحال. فقد أمضى أول بضع ليال له في حجرة صغيرة أعطيت له في مدخل المقبرة ساهراً مؤرقاً. أما الساعات القليلة التي لم يعد يقوى على البقاء مستيقظاً فيها، فقد امتلأت بالكوابيس المرعبة. لم تراوده كوابيس شبيهة بأفلام الرعب الكلاسيكية ولم تطارده الوحوش أو تمشي نحوه أو تناديه. فقد راودته أحلام غريبة يرى نفسه فيها واقفاً في وسط الطريق الذي يقسم المقبرة إلى نصفين، ويرى الامتداد المظلم أمامه وخلفه. في تلك الكوابيس المتوالية، لم يرَ شيئاً سوى نفسه وشواهد القبور في الظلام. وعندما تخلص من كوابيسه بعد مضي بضعة أسابيع على عمله في المقبرة، ذهب إلى الطريق ووقف في الظلام بمفرده ذات ليلة، ولكن ما فاجأه هو أنه لم يشعر بالخوف

ولم يراوده الشعور نفسه الذي راوده في الحلم. فقد كانت مشاعره في أحلامه ربما أكثر عمقاً من مشاعره الواقعية، وربما تملكه ذلك الخوف من أن يبقى عالقاً في الحلم نفسه إلى الأبد ظناً منه أنه لن ينتهي. ومع ذلك، فقد تحرر من مخاوفه بمرور الوقت حتى اختفت نهائياً، وبات يعتبر هذا المكان مكاناً عادياً ومألوفاً وكأنه باحة منزله. فإن جافاه النوم ذات ليلة، راح يتمشى بين القبور ويصادف شواهد يعرفها عن ظهر قلب ويقرأ ما كتب عليها وكأنه لم يرها من قبل. كان لا يزال يعلو بعضها شيء من السخام بسبب الحريق الذي شب فيها قبل ست أو سبع سنوات. فحسبما تروي القصة، بدأ ذلك اليوم بحريق هائل ثم تحول إلى سلسلة من الكوارث. ظن الجميع أن زوجة حزينة أو والداً مفجوعاً أو طفلاً قد تسبب بالحريق عندما رمى عقب سيجارة بالخطأ. ولم يكن السبب الذي جعلهم يظنون ذلك تقريراً صحفياً أو أي شيء من هذا القبيل بل مجرد حدس وتخمين. فلطالما اعتاد الناس التدخين في المقابر. أوليس من المعروف أن سيجارة قد تحرق هكتارات من الغابات؟ لم يكتشف مناصرو هذه النظرية لسوء الحظ أن السبب الحقيقي لهذا الحريق هو غباء سيدة مهووسة بالنظافة حضرت لزيارة قبر والدتها. فقد اعتادت السيدة صفية أن تحضر لزيارة قبر والدتها مرة في الشهر وتحضر معها ثلاثة لترات من الماء وترتدي قفازيها الأصفرين المستعملين لغسيل الصحون وتخرج ممسحة ناعمة من حقيبتها وتنظف كل بقعة في القبر الرخامي إلى أن تشعر بالرضا ثم تتلو ما تيسر من الذكر. كان كلَ من يزور مقبرة سيفيلي في ذلك الوقت من الماضي يتمكن من تمييز قبر والدتها عن بعد أميال لشدة نظافته. خلال إحدى تلك الزيارات، وبعد أن نظفت السيدة صفية القبر وجلست لتتلو الذكر بهدوء وسكينة، لاحظت أن الأعشاب النامية على جوانب الرخام بدأت تميل إلى الاصفرار. ولو

أنها كانت امرأة أكثر ثقافة، لتذكرت أنها مصابة بالوسواس القهري ولما أخرجت ولاعة من حقيبتها بل لأخذت حبوب دوائها، ولكنها لم تفعل ذلك بل بذلت جهداً كبيراً لإحراق العشب بالولاعة. وحالما بدأ يحترق لم يعد بوسعها إيقاف النار. وقبل أن تتمكن من أن تدرك ما يجري، أخذت الرياح تعصف بالنار من الشرق وتذكيها أكثر وأكثر حتى حملتها إلى القبر المجاور ثم إلى الأشجار. وعندما أسرعت السيدة صفية تجري خارجة من المقبرة، لم يشغل بالها شيء سوى كيف تنظف السخام في المرة القادمة التي تأتي فيها إلى المقبرة. تم اتهام حارس المقبرة في ذلك الوقت بالكثير من الأشياء بسبب تلك الحادثة. أولاً، فقد كان في تلك اللحظة يستمع إلى مباراة كرة قدم على الراديو ولا يبدي انتباهاً لأي شيء آخر، لذا لم يتمكن من ملاحظة الرائحة ولا الصوت. ثانياً، بعد أن رأى الحريق، بدلاً من أن يتصل بالطوارئ، حاول أن يطفئها بخرطوم المقبرة. ثالثاً، هو لم يكن حتى يعرف رقم الطوارئ. لهذا السبب، فقد بات لدى عيسى الآن لائحة بأرقام الطوارئ على جدار الحجرة التي يقيم فيها. ولم يحدث إلا بعد أن أتت النيران على نصف المقبرة أن سمعت أصوات سيارات الإطفاء، وهذا لا يعني مع ذلك أنها وصلت إلى هناك في الوقت المناسب. فنتيجة لتراجع كوكب عطارد أو وجود خواء على سطح القمر، تعطلت سيارة الإطفاء التي تقود بقية السيارات وتصعد التلة الضيقة نحو المقبرة وتوقفت في مكانها فلم يتوفر للسيارات التي تتبعها أي مجال للمرور من جانبها. في البداية، قام سائقوها بفعل أسخف شيء على الإطلاق. فقد حاول الإطفائيون دفع السيارة المعطلة. وعندما فشلوا في دفعها، التي لا يعلم إلا الله وحده كم طناً يبلغ وزنها، اتصلوا بمحطة الإطفاء ليبلغوا المسؤولين بالمعضلة التي وقعوا فيها. فأرسلوا فريقاً ثانياً من طريق آخر، ولكن هذه لم

تكن نهاية المأساة. فقد اكتشف الفريق الآخر أن خراطيمهم معطلة. وعندما تمكنوا من إصلاحها أخيراً، وجدوا أن النار أتت على معظم المقبرة ثم تمكنوا من إخماد الحريق بعد أربع ساعات على اندلاعه، ولكن بعد أن أتت النيران على معظم الأشجار. في بعض الأحيان، كان عيسى يتذكّر مدى جمال ذلك المكان بوجود كل تلك الأشجار قبل وقوع الحريق الذي أتى أيضاً على شواهد القبور الخشبية مما أدى إلى حصول ارتباك بين أقارب الموتى. فأصبح أولئك الذين لا يحفظون المكان بل يقرؤون الأسماء بدلاً من ذلك كل مرة يتجولون على غير هدى في أنحاء المقبرة ثم يصابون بالإعياء ويغادرون. فغالباً ما رأى مجموعات منهم مستغرقين بالتفكير وأيديهم على ذقونهم وهم يفكرون أين يمكن أن تكون قبور أقاربهم كما عجز بعضهم عن العثور على القبور الرخامية لأن الشواهد الخشبية التي استخدموها كعلامة قد احترقت، ولهذا السبب توجب إعادة تنظيم خطة المكان وتغيير بعض الإرشادات مثل: "عندما تدخل المقبرة، اتجه يميناً تجد قبر هاشم سينار. امش بمحاذاته، وبعد ثلاثة قبور، اتجه يساراً. هناك يقع قبر حماتي خلال سنوات، تم تنظيف معظم التراب. وتلك القبور التي لم يكن هناك زوار كثر يزورونها، تركت على حالها. فعمل عيسى على تنظيفها كلها وهو يتوقف أمام شاهد أحد القبور المتسخة ويقرأ تاريخ الولادة والوفاة ويتساءل لماذا لم يكن أحد يزوره إن كان المتوفى قد فارق الحياة قبل وقت قصير.

بذل عيسى بكل تأكيد جهداً كبيراً في تنظيف وتنظيم المقبرة بعد الحريق المأساوي الذي أصابها. فأصبح إمام مسجد سيفيلي الذي أمن له تلك الوظيفة يتحدث عن عمله ويمدحه بكل فخر. وبعد صلاة الجمعة، التي اعتاد عيسى أن يحضرها مرة واحدة في الشهر قبل أن يطلب المال من أجل إصلاح نافورة المياه في المسجد، كان

الإمام يذكر اسم عيسى ويشيد بعمله في المقبرة ويطلب من الناس المساعدة في جعل المقبرة أكثر خضرة وجمالاً. فكان عيسى، خلافاً للكثير من الشبان ممن هم في سنه، يبقى لحضور الصلاة الطويلة المكونة من عشر ركعات بعد الخطبة، وهذا جعله ينال المزيد من حب الإمام وتعاطفه. وبالرغم من تمني الإمام أن يحضر عيسى الصلاة كل يوم جمعة، إلا أنه لم يلح عليه في ذلك قط بسبب إعاقته الجسدية. في الواقع، فقد شعر الإمام بالتقدير لجهد الشاب في قطع كل المسافة إلى المسجد بالرغم من إعاقته. إذ إن مقبرة سيفيلي كانت تقع على قمة تلة تبعد ثلاثة أميال على الأقل عن حي سيفيلي لا يتطلب الوصول إليها أكثر من ثلاث أو أربع دقائق بالسيارة. ومع ذلك، فلم تكن توجد أي حافلات تذهب إلى هناك، لذا توجّب على عيسى أن يغادر في وقت مبكر في الصباح ليتسنى له أن يحظى بقسط من الراحة قبل الصلاة عندما يصل إلى الحي. وبالرغم من اعتياده على العناية بواجباته اليومية بساقه اليمنى القصيرة، إلا أن المسافات الطويلة ظلت تتعبه وتبطئ حركته. وكان قد تخلى عن عكازيه قبل وقت طويل وأصبح محترفاً في التوازن في عمره الحالي الذي يبلغ أربعة وثلاثين عاماً. فإن سأله أحدهم إن كانت ساقه الأقصر تزعجه، أجاب بالنفي، ولكن هناك شيئان ظلا يزعجانه، أحدهما هو عدم قدرته على إطفاء عقب سيجارته بأي من قدميه، والثاني هو عدم قدرته على تثبيت زر بنطاله لأنه اعتاد أن يشتري البنطال وفقاً لطول الساق الأقصر. إذ إنه فضل السير ببنطال قصير على محاولة تعديل الفردة الطويلة. ومع ذلك، فعندما تكون ساقا البنطال قصيرتين، فهذا يجعله أضيق ومن هنا أتت مشكلة تزرير البنطال.

5

بينما وقف عيسى متكئاً على الجدار بساقه القصيرة بانتظار وصول حامد، رأى سيارة تلوح من بعيد. فقد اعتاد حامد عندما يغادر حدود الحي ويبدأ بصعود التلة متجهاً إلى المقبرة أن يطفئ أضواء السيارة الأمامية. وبالرغم من أنه من المستحيل رؤية سيارة أخرى في أنحاء المكان، إلا أنه اعتاد أن يقود ببطء لكي يقلل من احتمال وقوع الأضرار والحوادث وليستمتع بالقيادة في الظلام. هناك لحظة معينة لطالما شعر فيها، ككل عامل مجتهد، أن عمله بات قاب قوسين أو أدنى من إنجازه فيسترخي، تلك اللحظة مثلت بالنسبة إليه رؤية الضوء الأحمر من طرف سيجارة عيسى المشتعلة وهو واقف بانتظاره. فعندئذ، كان يدرك أنه لم يتبق سوى 15 بالمئة من عمله.

ركن حامد السيارة أمام المقبرة. وقبل أن يترجل منها، كبس زر الصندوق ليفتحه من الداخل. وعندما أحضر عيسى العربة ذات الثلاث عجلات التي طالما احتفظ بها في أحسن حال وقام بتزييت براغيها وضبط عجلاتها، كان حامد قد أنزل أوكان من على كتفيه ووقف بانتظار عيسى ليمسكه من قدميه. لم يكن أي منهما يتحدث قط قبل أن يتوغلا مسافة كافية داخل المقبرة ويشعرا أنهما في منطقة آمنة على اعتبار أن الصوت يصبح دائماً أعلى في المناطق الخاوية. وهكذا، وضعا الجثة في العربة التي تُجر باليد بالإشارة إلى بعضهما البعض وتوجَّها إلى المكان الذي اختاره عيسى سلفاً. في ظل ظروف طبيعية يكون فيها عيسى على علم بموعد وصول حامد فينتظره، كان

يحفر القبر سلفاً ويجهزه للدفن ثم يجمع رفات الجثة القديمة إن تبقى منها شيء ويضع الجثة الجديدة فيها ثم يعيد الرفات القديم فوقها مرة أخرى ويغلق القبر. ومع ذلك، فقد جرت الأحداث ذلك اليوم بطريقة مختلفة وتوقيت مختلف. لقد عمل عيسى مع حامد منذ وقت طويل، ولكن تلك كانت أول مرة يعتريه فيها الفضول. فحتى تلك اللحظة، لم يرغب أن يعرف أي شيء عن الجثث ولا الأحداث كما لم يؤْثر حامد أن يخبره أي شيء. وفي المرات القليلة التي التقيا فيها، أمضيا وقتهما معاً وهما يتحدثان عن أشياء لا تختلف عن أحاديث رجلين يعملان في المكتب نفسه معظمها عن الطقس. وبما أن البيئة التي كانا يلتقيان فيها تتمتع بصفة روحية بعض الشيء، فقد جعلت مواضيعهما تزداد عمقاً قليلاً فقط في الليل.

* * *

لطالما كان لدى عيسى موضوع للحديث لأنه اعتاد أن يمضي لياليه وحده وهو يستمع إلى البرامج والقصص التي تذاع على الراديو: كقصة قصيرة أو تعليقات حول مباراة كرة قدم من الأسبوع الفائت أو أسطورة ما أو أحداث العالم. وعندما أخبره قبل فترة من الزمن عن برنامج وثائقي يتحدث عن الفراشات سمعه على الراديو بكل تفاصيله، شعر حامد لأول مرة في حياته بأنه قد يهتم بموضوع الفراشات. في تلك الأيام، بدأ عيسى يبدي اهتماماً بموضوع ارتفاع درجة حرارة الأرض. فراح يخبر حامداً كل شيء تعلمه عن ذلك الموضوع. ولم يكن السبب الوحيد الذي جعله قادراً على حفظ كل ما اطلع عليه من هذه المواضيع، ذاكرته القوية فقط، فقد اعتاد غالباً عندما يسمع معلومة جديدة حول موضوع يهمه أن يشغل مصباح الطاولة الصغير ويفتح دفتر ملاحظاته الذي اشتراه من أجل شؤونه

الخاصة ويدوِّن التاريخ والموضوع والملاحظة التي تهمه. فإن نظر أحد إلى دفتر الملاحظات ذاك، وجد أن عيسى أبدى اهتماماً كبيراً بالأحداث الطبيعية، وأن هناك فصلاً يتحدث عن الأمطار في تركيا، وتحت ذلك الفصل توجد معلومات حول معدل الأمطار التي هطلت على كل منطقة في العالم، وأنه كتب مقالاً طويلاً عن وادي الفراشات بالمعلومات التي جمعها، وأن لديه معلومات واسعة حول معدل تساقط الثلوج في جبل آرارات. لم يتحدث عيسى قط عمّا سمعه على أنه معرفته الخاصة بل لطالما اعترف بمصدر معلوماته من البرامج التي استمع إليها على الراديو وبدأ الحديث بقوله: "لقد سمعت برنامجاً إذاعياً على الراديو ذلك اليوم عن... ولذلك السبب ربما لم يبدِ حامد رد فعل لامبال حيال الأشياء التي لا يعرفها كما يفعل بعض الجهلة بل اعتاد أن يبدي انتباهاً كبيراً لما يخبره إياه عيسى.

مع ذلك، ففي تلك الليلة، أدرك حامد أن عيسى راح ينظر إليه بين الحين والآخر وهو يحفر القبر، ولكنه آثر ألا يعطيه أي تفاصيل متشبثاً بمبادئه الصارمة بل قال فقط: "ربح يوم قصير وأيقن أن عيسى لن يفتح الموضوع مرة أخرى أو يصر على النظر إليه أو يتجرأ أن يسأله ما الذي يجري. فواصل عيسى حفر القبر، ونقّب في ذاكرته عن قصة يرويها.

حالما بدأ بالكلام، أشعل حامد سيجارة، وجلس على رخام القبر المجاور للقبر ليصغي إلى القصة. فأخذ عيسى يتحدث كيف وضع العلماء سبع فرضيات للطريقة التي ستأتي بها نهاية العالم. فأنهى حفر القبر وهو يتحدث عن الفرضية الأولى ووضع الجثة في الحفرة بمساعدة حامد ولم يتوقف عن الكلام بل واصل مع الفرضية

الثانية. وبالرغم من أن الفرضيات بدت ممكنة الحدوث في المستقبل القريب، إلا أن لهجة عيسى لم تُظهر ما يدل على القلق، ولم يبدُ عليه حتى الشعور بالإثارة والانفعال وكأنه أحد العلماء الذين اكتشفوا هذه الفرضيات. فربما كان سيشعر بالسعادة إن حدث أي منها خلال حياته لمجرد أن يتمكن من أن يشهد حدثاً ضخماً من هذا النوع. وعندما أنهى عمله، كان لا يزال في مستهل الحديث عن الفرضية الثالثة. توجَّها إلى بوابة المقبرة بصمت. وبدلاً من أن يتبادلا أي كلمات، هزا رأسيهما ليودعا بعضهما بينما وضع حامد النقود في يد عيسى المتعرقة. نظر عيسى إلى مقدار المبلغ فقط عندما عاد إلى حجرته ولاحظ أن المبلغ أكبر من المرات الماضية. فاستلقى على سريره وهو متعب واستأنف نومه الذي قطعته زيارة حامد.

6

بعد مضي ثلاثة أيام فقط على سداد دنيز لمبلغ المال الذي يدين به للطفي، شعر أنه بات بوسعه أن يخرج من البيت مجدداً. وعندما لاحظ عدم نشر أي مقال أو إعلان عن الموضوع في الصحف، بعث ذلك في نفسه الكثير من الريبة والقلق بدلاً من أن يهدئ من روعه. وربما للمرة المئة، حاول أن يتذكر إن رآه أحدهم بصحبة أوكان وهما خارجان من المقهى. ترى هل ألقى أوكان التحية على أحد؟ هل رآهما أحد يعرفانه في الطريق؟ على حد علمه، فالإجابة عن كل تلك الأسئلة هي النفي، ولكنه لم يستطع أن يتحلى بالثقة التامة من أنه لم يغفل أحد التفاصيل الصغيرة. هل يعرف الناس في ذلك المقهى أوكان؟ هل الساقي صديق له؟ في الواقع، لقد اشتريا كأسيهما منفصلين وبدآ يتجاذبان أطراف الحديث معاً فقط قرابة نهاية الأمسية بينما هو يشرب آخر كؤوسه. كلا، لم يتذكر أوكان يتحدث مع شخص آخر. تذكر أن البواب الواقف عند الباب قد أومأ لهما برأسه وهما يغادران، ولكنه اعتبر ذلك مجرد تصرف شائع واعتيادي جداً وأنه لا يجب أن يعرفهما الرجل ليفعل ذلك. ومع ذلك، فمهما أمعن في التفكير، لم يمنحه ذلك تأكيداً أنه أصبح بأمان. ترى هل من المناسب أن يعاود الاتصال بلطفي؟ هل سار كل شيء على ما يرام بعد أن افترقا؟ ماذا إن اكتشفت الشرطة ما جرى واستجوبت لطفي في ما بعد؟ ماذا إن تم الزج بلطفي في السجن في هذه اللحظة بعد أن اعترف بكل شيء، ولكن الشرطة ما زالت تنتظر الوقت المناسب

لتأتـي للقبـض عليـه؟ لم يكن لطفي يعـرف أين يقيم دنيز. فخيل إليه أن هـذا هـو السـبب الـذي أخَّر وصول الشـرطة إليه. ربمـا إذا خرج مـن البيـت، وجـد صـوره معلقة علـى محطات الحافـلات ومكتوب عليهـا مطلـوب للعدالـة. حسـناً، في تلك الحالة، ألـن يعلنوا عنه في التلفزيون؟ لم يدرك دنيز أنه ظل يطرح تلك الأسئلة نفسها على نفسه مراراً وتكراراً ويحاول أن يقدر الاحتمالات الممكنة وكأن تلك أول مـرة يفكـر فيهـا. طوال اثنتين وسـبعين سـاعة، ظل مصممـاً على أنه من الأفضل له ألا يغادر شـقته. مع ذلك، ففي اليوم الثالث، لـم يعد يهمـه عـدد النوافذ التي يفتحها لكي يستنشـق بعـض الهواء المنعش. فقد شـعر أنه لـم يعد قادراً على التنفس وأنه على وشـك الاختناق. وللمـرة الأولـى فـي حياتـه، أراد أن يعرف ما يجري في العالم خارج جـدران بيتـه. وكمـا يفكـر كل طفل صغير ليسـت لديه أي نية في أن يعلق نفسه من الشرفة بأن يفعل ذلك فقط عندما تأمره أمه بألا يفعل، أراد دنيـز أن يذهـب إلـى حافـة الحيـاة، وينظر إلى الأسـفل ليرى ما يجـري فيهـا. أراد أن يـدرك فرصة السـقوط ويتخلى عن فكرة تجربة الإثـارة وتولـدت لديـه رغبة ضخمة بأن يعيش في غمرة الحياة ويرى مـا فيهـا. فـي نهاية المطاف، ونتيجـة لرغبته الملحة للخروج، قرر أن يخرج ويجس النبض. وخطر بباله أن يذهب إلى المقهى نفسه الذي ذهب إليه تلك الليلة ويرى ما يجري فيه. فربما إن ذهب إلى هناك، تمكن من أن يسـمع خبراً ما، ولكنه خشـي أن يتعرف عليه السـاقي. لـم يكـن دنيـز يتمتع بأي علامة مميزة في وجهه بحيث تسـاعد أحداً علـى تذكـره فـي ما بعد، ولكن شـعره البني الفاتح وعينيه العسـليتين اللتين تبدوان أصغر من المعتاد خلف نظارته ورأسه المستدير بشكل ملحـوظ وطولـه الفـارع ميزته عن باقي الرجال. فقد كان يتمتع بصفة

تجعل الناس يلاحظونه ولا يلاحظونه في آن معاً عندما يدخل إلى مكان ما. لم يكن هذا يعتمد عليه في الواقع بل على العيون التي تنظر إليه. نجح دنيز أثناء دراسته الثانوية على سبيل المثال في تقسيم الفتيات إلى مجموعتين، بعضهن يعتبرنه حسن المظهر بالفعل بينما لا تتذكر الأخريات أي شيء عنه باستثناء أنه شاب طويل القامة. مع ذلك، فقد اتفق الجميع على نقطة واحدة مشتركة، وهي أن دنيز بدا أكثر تهذيباً من كل الشبان الآخرين، وهذا ما انعكس حتى في مشيته. فلطالما أبدى أخلاقاً ممتازة نحو الفتيات خلال الاستراحات وتعمد أن يدفع ثمن أي شيء يطلبنه عندما يقف في الصف الأول في المطعم، ولكن اعتاد أن يستأذن بالانصراف من دون أن يفسح مجالاً للمحادثة لأن تصبح أطول أو أعمق. وعندما التحق بالجامعة، لم يلحظ أحد أسلوبه وشخصيته في تلك البيئة الواسعة. ومع ذلك، فقد تصرف الجميع بسرعة في الأيام الأولى للكلية. فشكّل الشبان الوسيمون والفتيات مجموعات خاصة بهم بينما تميز دنيز بصفة الشاب المهذب في الصف.

كان دنيز يعي حقيقة نفسه، لذا فقد وجد صعوبة في اتخاذ قرار فيما إذا كان يجب عليه أن يذهب إلى المقهى أم لا شعر أنه عاجز عن تحديد موقف حاسم في موضوع يحتمل الخطأ بنسبة خمسين بالمئة كموقف خبير المتفجرات الذي يواجه وضعاً لا يعرف فيه إذا كان عليه أن يقطع الكبل الأزرق أم الأحمر. هل من الأفضل أن يقطع أحد الكبلين ويمنع الانفجار بنسبة خمسين بالمئة أم يترك كلا الكبلين ويضمن حدوث الانفجار؟ قرر دنيز أن يؤجل موضوع الذهاب إلى الحانة إلى حلول الليل ثم خرج من البيت. وبدأت عيناه تجولان في الأنحاء بحثاً عن أي شيء غير مألوف لذلك اليوم.

رن هاتفه وهو يمشي إلى ساحة تقسيم. وعندما رأى أن المتصلة هي أمه سرت في جسده أحاسيس متناقضة من الراحة والكآبة. إذ بالرغم من أنه سُرَّ لأن أمه هي المتصلة وليس شخصاً آخر، فقد جعله ذلك يشعر بعدم الارتياح لأنه سيتوجب عليه الإجابة عن أسئلة أمه التي لا تنتهي. كانت والدة دنيز، السيدة سوزان، قد قررت العودة إلى مدينتها الأم أنقرة بعد أن فقدت زوجها. فاعتادت أن تتصل بابنها مرتين في الأسبوع على الأقل لتطمئنَّ عن صحته، وتتحدث قليلاً عن نفسها وتعرف ما كان دنيز يأكل ويشرب بالتفصيل وتطلب منه أن يتوخى الحذر ثم تغلق الهاتف. رد دنيز على الهاتف وهو مستعد لهذا الروتين. فتوجب عليه أن يحرص على ألا تشعر والدته بمحنته. فالسيدة سوزان كانت كغيرها من الأمهات تشعر بأي خطب حدث مهما بلغ صغره وترفض أن تترك الموضوع وشأنه إلى أن تعرف الحقيقة.

"مرحباً، أمي. كيف حالك؟"

"بخير، يا حبي. كيف حالك أنت؟ أين أنت؟"

"في ساحة تقسيم ليس لدي حصة هذا الصباح. ففكرت بأن أتناول شيئاً هنا ثم أذهب إلى الكلية"

"جيد جداً. كيف حالك؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

"نعم، جيد جيد"

شد دنيز قبضة يده، وضغط على أسنانه بعد أن قال هذا وهو يلعن نفسه. إذ اعتاد أن يكرر الكلمة نفسها مرتين عندما يكذب وهو يجيب عن أي سؤال. فقد كان هذا أشبه برد فعل تلقائي لا يستطيع أن يمنع نفسه من القيام به. كيف حالك؟ بخير بخير. كيف

مضت صفوفك؟ جيدة جيدة. هل اتصلت بجدتك؟ نعم نعم. بالطبع، رفضت السيدة سوزان أن تدع هذا التفصيل الصغير يمضي بسلام.

"ما الخطب؟"

"عن أي خطب تتحدثين؟"

"ما الخطب؟"

"لا شيء. شتت شيء ما انتباهي، لهذا السبب تحدثت بهذه الطريقة"

"قل لي، يا حبيبي دنيز، ما الذي يزعجك. من فضلك لا تدعني قلقة طوال اليوم"

"من فضلك، يا أمي. أؤكد لك ما من خطب"

في نهاية المحادثة التي أكملاها في الحديث عن مواضيع اعتيادية، أدرك دنيز أنه فشل في إقناع أمه. فخطر بباله أن يختلق عذراً ليتصل بها في اليوم التالي ليصلح الموضوع، من دون أن يدري أن أمه قد اتصلت به في الواقع لتخبره أنها ستأتي إلى اسطنبول في اليوم التالي، ولكنها نسيت لأن انتباهها تشتت بمحاولة تحليل كلمات دنيز. فأقنعتها هذه المكالمة الهاتفية أكثر بأن عليها أن تزور ابنها في أقرب وقت ممكن. وعندما أنهيا المكالمة، اتصلت سوزان لتؤكد حجز مقعدها في الحافلة وركبت سيارة أجرة، وقررت أن تتصل بدنيز مرة أخرى لتعلمه بأنها قادمة، فهي لم تكن امرأة متهورة. فمن المحتمل أن يكون لدى دنيز ضيف وله الحق بأن يستعد لزيارتها.

* * *

بعد أن تناول إفطاره في مطعم بامبي، بدأ دنيز يمشي في جادة الاستقلال متجهاً نحو تونيل. ومهما بدا كل شيء طبيعياً، فقد ظل القلق يتملكه رغم هيئته اللامبالية والعرقُ يلمع على جبهته. وعندما

اقترب من مدرسة غلطة ساراي، رأى بعض سيارات الشرطة تغلق طريق السيارات الضيق عبر الرصيف. من جهة أخرى، ما كان الخوف ليمنعه من أن يلتفت إلى الوراء ويعود أدراجه، ولكنه هذه المرة لم يرد أن يجذب الانتباه لنفسه. فقرر أن يمر من أمامهم وكأنه لا يوجد أي شيء، ولكن إلى أين ينبغي أن ينظر؟ أمامه أم إلى اليسار أم إلى اليمين أم إلى الشرطة مباشرة؟ بينما هو يفكر بهذا، أصبح على مقربة منهم. وفي نهاية المطاف، أدار رأسه إلى اليمين بشكل تلقائي متظاهراً بأن شيئاً ما لفت نظره في المكتبة ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي ليتوقف وينظر إلى الواجهة لذا تابع سيره. لم تكن لديه فكرة إن كان رجال الشرطة ينظرون إليه بحذر أو يتبعونه من الخلف بنظراتهم. فلم يتجرأ أن يلتفت ليتأكد من ذلك بنفسه. وبعد أن قطع مسافة خمسين أو ستين متراً، توقف أمام واجهة أحد المحلات وتأمل البضائع المعروضة فيها بتمهل، ثم أدار رأسه بعض الشيء نحو المكان الذي وقف فيه رجال الشرطة ونظر إليهم بطرف عينه. وعندما تأكد أن أحداً لم يكن يبدي أي انتباه له، تنفس الصعداء. فهذا يعني أن الشرطة لم يكن لديها أي صورة أو وصف لرجل طويل يضع نظارة وإلا لتمكنوا من تمييزه على الفور. ولم يكن الشارع مزدحماً على كل حال. تابع سيره بعد أن هدأ قليلاً، ومضى في طريقه قدماً، وانعطف يساراً إلى أحد الشوارع الفرعية وهو يفكر بأنه قام ببحث كاف ليوم واحد. فقد قام بمخاطرة كبيرة في وقت غير متوقع على الإطلاق وربما يكون من الأفضل له أن يعود إلى البيت الآن، وينتظر حلول الليل ليذهب إلى المقهى ليرى إن حدث أي شيء هناك. لم يعد يأبه بأمر الدروس الآن. وأصبحت تحتل آخر سلم أولوياته. فقد توجَّب عليه أن يصمد في الوقت الحاضر وأن يمضي بقية الأسبوع في البيت.

في الوقت الذي ظن فيه أنه استطاع أن يحدد الأمور في ذهنه أخيراً، خطرت له فكرة أخرى من المجهول وشعر بالدماء تتدفق في عروقه وأدرك حتى أن أذنيه أصبحتا حمراوين كالدم، وتذكر وهو يضع يديه على وجهه تفصيلاً ظلّ غافلاً عنه حتى تلك اللحظة. في تلك الليلة، أخرج ورقة من جيبه في شقة أوكان مكتوب عليها رقم لطفي ليتصل به، ولكن هل أعادها إلى محفظته؟ لم يتذكر أنه فعل ذلك. فأخرج محفظته وبدأ يبحث فيها، ولكنه لم يعثر عليها بين عدد من قطع الورق الصغيرة. فباغته شعور بالغثيان وألم في معدته وكأن هناك من يعتصر أحشاءه. أسرع إلى أقرب حمام عمومي وهو يتصبب عرقاً. وبما أن الرائحة الكريهة للمكان جعلت معدته تنقلب أكثر، فقد تقيّأ كل لقمة دخلت معدته في المطعم. وبعد أن غسل وجهه بالماء الضعيف من الصنبور بقدر المستطاع، خرج وحث الخطى نحو البيت. أحس أن ذهنه بات مشوشاً وأن كل شيء عاشه حتى تلك اللحظة مختلط ومتضارب مع بعضه. فلم تعد حاله أحسن من حال رجل يعاني من كابوس. أخذت أحداث الأيام الثلاثة الماضية بل كل تفاصيل حياته تطارده بلا هوادة ولو للحظة واحدة. وباغته صداع مفاجئ يعتصر رأسه. فبذل جهداً كبيراً ليتمكن من السير بشكل مستقيم من دون أن يغمى عليه. وعندما وصل إلى مدخل المبنى، حاول أن يفتح قفل الباب الرئيس بيدين مرتعشتين لدرجة أن أحد الجيران الذي وقف ينتظر بنفاد صبر خلفه أقسم أمام الجيران الآخرين لاحقاً أن دنيز يتعاطى المخدرات بكل تأكيد. أسرع دنيز صاعداً الدرج بسرعة ودخل إلى شقته. واصطخبت الأفكار في ذهنه وتخبطت بعنف لدرجة أنه لم يتذكر ما فعله تلك الليلة. ولو سأله أحد عن اسمه في تلك اللحظة، لربما عجز عن الإجابة. وبالرغم من

أنه حاول أن يهدئ من روعه، إلا أن جسده وعقله واصلا التصرف من تلقاء نفسيهما بشكل خال من أي منطق. وعندما أجبر نفسه على التفكير مرة أخرى بما حدث تلك الليلة، غمرته موجة أخرى من الغثيان، واستولت عليه حتى تقيأ على السجادة اليدوية الصنع التي تركتها له أمه عندما انتقلت إلى أنقرة. استولى عليه الضعف ولم يعد يقوى على الحراك، وعجز حتى عن الوصول إلى الأريكة بل سقط على جنبه واستغرق في نوم عميق طويل. ولسوء الحظ، فعندما استيقظ بعد خمس ساعات، لم يكن أي شيء في واقع حياته قد تغير.

7

عندما استيقظ دنيز وأبصر النقش على السجادة، لم يستطع أن يحدد كم من الوقت ظل مستغرقاً بالنوم. واحتاج بضع دقائق ليدرك مكان وجوده. راودته مرات عدة من قبل أحلام غريبة كثيرة لدرجة أنه احتاج إلى فترة من الزمن ليتعافى منها. فجلس وهو يتمنى أن يكون كل ما حدث معه مجرد حلم. شعر أن معدته هدأت، وأن صداعه قد خف كثيراً، وأن أفكاره باتت أكثر صفاء. ومع ذلك، لم يمض وقت طويل حتى أدرك أن ما حدث ليس مجرد كابوس، وعادت أفكاره إلى الواقع. حاول أن يستجمع شتات ذهنه، ويفكر من جديد. فأدرك أنه سيجد ضالته المنشودة إن استعاد خطواته إلى الوراء، ففكر قائلاً في نفسه: "بعد أن تركت لطفي، عدت إلى البيت. أولاً، غسلت يدي، وخلعت ملابسي، ووضعتها في الغسالة. في اليوم التالي، شغلتها. هذا هو الجواب. إنه بسيط وسهل" وهكذا، فلا بد أنه وضع الورقة في جيب بنطال الجينز. لم يكترث إن غسلت الورقة مع البنطال طالما أنه عرف مكان وجودها. ذهب إلى الحمام وبحث في الجيوب، ولكنه لم يعثر عليها. فبدأ يتصبب عرقاً من جديد. حسناً، إن لم يجدها في البنطال، فلا بد أنه وضعها في جيب القميص. لم يكن من عادته فعل ذلك، ولكن كل شيء وارد الحدوث في ليلة استثنائية كتلك على كل حال. أقحم يده إلى داخل الحوض وأخرج القميص إلا أنه لم يعثر عليها فيه أيضاً. فأخرج كل شيء من الغسالة ليتأكد من أنها لم تنزلق من جيبه وتختلط مع الملابس الأخرى، ولكنه لم

يجدها. وبعد أن أفرغ الحوض ونظر في الداخل وفتله بحركة يدوية ككل مرة كان يفعل فيها ذلك لئلا يُضيع أحد جواربه، لم يجد قطعة الورق في أي مكان. فباغته الشعور نفسه بالغثيان والهلع مرة أخرى، ولكنه حاول أن يعود بذاكرته إلى الوراء. وشعر بحاجة ملحة إلى البحث في المحفظة مرة أخرى، ولكن هذه المرة بهدوء. فأخرج كل شيء منها بعناية فوجد عنوان متجر لبيع الأدوات الموسيقية، واسم ألبوم موسيقي يستمع إليه على الراديو، ورقم هاتف أحد أصدقاء والدته في حال احتاج إلى مساعدة. كلما وجد ورقة، ظن أنها هي، ثم خاب ظنه عندما اكتشف أنها ليست مفيدة له. قام بإفراغ المحفظة ربما خمس أو ست مرات ثم أعاد محتوياتها إليها، ولكنه لم يتمكن من العثور على ضالته. حدق إلى السقف وهو يحاول أن يستعيد شريط الأحداث: "سقط أوكان على الأرض. فوضعت السكين، ونظفت يدي بمنديل ورقي. وأخرجت هاتفي الجوال من جيبي، وأخرجت الورقة من محفظتي، واتصلت بلطفي. أين وضعت السترة؟ على الأريكة. أخرجت الهاتف من جيبي، ولكن هل جلست على الأريكة؟ كلا، بل ذهبت إلى الجانب الآخر من الغرفة واتصلت بلطفي. ماذا فعلت بالورقة؟ أمسكت بالهاتف بيدي اليمنى والورقة باليد اليسرى ثم وضعت الورقة في جيب بنطالي اليسرى. أم أنني لم أفعل ذلك؟ هل تركتها على الطاولة؟" لم يشعر دنيز أن الفزع على وشك أن يمزق عقله بل كذلك جسده. حاول مرة أخيرة أن يهدئ من روعه، وقرر أن يبحث في جيب بنطال الجينز مرة أخرى ثم قال في نفسه: "هل أنا واثق من أنه بنطال الجينز نفسه؟ هناك بنطال آخر في الغسالة يشبهه تماماً" ومع ذلك، فسرعان ما اختفى شعوره بالاسترخاء كما أتى. فالورقة لم تكن في جيب البنطال الآخر

أيضاً. فتفقد كل الملابس الأخرى مرة ثانية، ولكنه في النهاية بات في حالة لم يعد فيها يتذكر حتى عم يبحث. تذكر السترة مرة أخرى. فربما وضع الورقة التي كتب عليها رقم الهاتف في جيبها. فهرع إلى مدخل البيت وبحث في جيوب السترة وهي معلقة على الشماعة. فلم يجد الورقة فيها. استولت الكآبة عليه أكثر فأكثر، ولكن تلك لم تكن سوى البداية. فمنذ ذلك الوقت فصاعداً، لم يكن يهم عدد المرات التي يبحث فيها عن الورقة، فلم يكن سيعثر عليها. ولم يكن يهم مدى محاولاته في تهدئة نفسه، فقد أصبح الخوف يشكل جزءاً كبيراً من حياته. حتى ذلك اليوم، نجح دنيز في عدم الانهيار بشكل كامل تحت وطأة القلق، ولكنه الآن أيقن أنه إن ترك تلك الورقة في شقة أوكان، فقد يكلفه هذا بقية حياته. أولاً، إن فتشت الشرطة شقة أوكان، فلا بد أنهم عثروا على الأرجح على الرقم واتصلوا بلطفي. وفي تلك الحالة، فلا بد أن لطفي قد أعطى اسمه لرجال الشرطة. خطرت بباله فكرة أخرى صدمته وهي أنه يسهل على الشرطة الوصول إلى دنيز من خلال هاتف لطفي. إذ يمكن الحصول عليه من خلال الاطلاع على المكالمات المستلمة. وحتى لو مسح لطفي كل المكالمات، فمن الممكن الحصول على كل التفاصيل من سجل شركة الاتصالات الخليوية. وهكذا، فقد دنيز كل ما تبقى من هدوئه الذي ظل يتشبث به طوال الأيام الثلاثة الفائتة. لم يكن هناك أي مكان يستطيع الذهاب إليه أو أي شخص يستطيع أن يتصل به. وحتى لو اتصل بلطفي من هاتف عمومي، فلا يمكنه أن يكون واثقاً بأنه لا يتحدث تحت مراقبة الشرطة. وبينما هو يضرب أخماساً بأسداس، كادت رنة هاتفه المفاجئة أن تسبب له سكتة قلبية: إنها أمه. شك دنيز أنه إن تحدث إلى أمه الآن، فهناك احتمال كبير بأن ينهار

أمامهـا ويعتـرف بـكل التفاصيل. فلم يـرد. فتوقف الهاتف عن الرنين بعـد قليـل. وبدلاً من ذلك، سـمع صـوت البريد الصوتي يقول: "هل يمكنك أن تتصل بي، يا حبيبي؟"

عندمـا لـم تتلـق السـيدة سـوزان أي رد مـن ابنها طـوال الليل، تملكهـا قلـق شـديد. ومـع أن هذا حدث من قبـل، إلا أن ارتباكه في الحديث معها من قبل وعدم رده على الهاتف لم يشكل أمراً مطمئناً على الإطلاق. ولهذا السبب، استقلت حافلتها المسائية وهي مصممة على معرفة خطب ابنها.

8

أتى يوم الاثنين بعد يومين على زيارة حامد المفاجئة للمقبرة. فكان من أشد الأيام التي مرت على عيسى هدوءاً. إذ إن أكثر الأيام ازدحاماً في المقبرة هي أيام السبت والأحد. فإن لم يكن المتوفى قد فارق الحياة مؤخراً، اعتاد الزوار أن يؤدوا صلواتهم بهدوء وسلام ويطلبوا من عيسى بعض الماء في الإبريق الذي يوضع عند أسفل القبر وينظفوا العشب حوله ثم يركبوا سياراتهم عائدين لمزاولة حياتهم اليومية. أما أولئك الذين يبكون ويغمى عليهم في يوم الدفن، فعادة ما كانوا يعتادون على غياب ذلك الشخص بمرور الوقت ثم تبدأ زياراتهم تقل وتتباعد. وبالرغم من أن الأسى قد تملك عيسى في بعض الأحيان عندما خطر بباله أن أحداً لن يأتي لزيارته عندما يموت ولن يأبه لغيابه، فقد شعر بتحسن عندما وجد أن هناك أشخاصاً محبوبين ولهم عائلات كبيرة تحيط بهم قد نسيتهم عائلاتهم بعد مرور فترة على وفاتهم. أما الأشخاص الذين يعانون من أقسى ألم وأطول معاناة ويبكون حتى بعد مرور سنوات، فهن الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن. فكان عيسى يبقى بجانبهن لوقت أطول بكثير ويبدي استعداده لإبداء بعض التعاطف في حال طلبنه منه. في معظم الأحيان، لم يفعلن ذلك. فلا شيء يعزي قلب أم مفطور خسرت طفلها حتى أطفالها الآخرين. خطر بباله عدة مرات إن كانت أمه ستعلم بخبر منيته عندما تحين. ترى هل ستأتي وتعلن الحداد عليه وتحزن على قبره؟ هل سيتمكن الآخرون من مواساتها؟ لقد أدرك

عيسى الجواب جيداً مسبقاً. إذ إن أمه تخلت عنه في اللحظة التي ولدته فيها ووجدت العزاء في أشقائه الصغار وتركته وحده يواجه مصيره. تذكر عيسى أنه تلقى حناناً شبيهاً بحنان الأم من جدته لأبيه ولكن لفترة وجيزة. وبالرغم من أنها لم تغدق عليه الدلال والعناق والتقبيل، فقد تذكر على الأقل أنها لم تحتقره.

كان عيسى الطفل البكر لعائلته. في اللحظة التي ولد فيها تجمع أفراد العائلة حول القابلة ونظروا إليه وكأنهم يرون صبياً للمرة الأولى في حياتهم، وراحوا يصيحون "صبي! صبي!" فلم يكد والده يسمع هذا الخبر حتى ذهب إلى مقهى القرية وبدأ يحتفل. وعندما أرادت القابلة أن تمسكه من قدميه رأساً على عقب لتصفع ظهره وتساعد على إنعاشه، أدركت أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى لأنها عجزت عن إمساكهما معاً. فكانت ساقاه اللتان لا تجتمعان معاً قط ستزيدان من مشقة حياته حتى اليوم الذي بدأ فيه يتخذ قراراته ويتحكم بحياته بنفسه. ولم يعد عيسى، الذي ولد في قرية إيسيكلار، يتمتع بأي امتياز أكثر من كلب أعرج في الشارع. وعندما اكتشف والده الذي عاد منتشياً من الفرحة تلك الليلة أن إحدى ساقيه أقصر من الأخرى، لم يعد يحتفل بأي شيء يتعلق به منذ ذلك الحين وقال إنه لم ينجب ابناً لا يستطيع أن يرسله إلى الخدمة العسكرية. وهجرته أمه بدورها ونسيته في إحدى زوايا البيت أو في مكان ما من الشارع. تذكر عيسى نفسه جالساً في الشارع بين أقدام الناس معظم الوقت وأدرك أنه لم يتمكن من المشي حتى عندما بلغ الرابعة من عمره. وفي ذلك الوقت، أدرك أن له ساقاً أقصر من الأخرى ثم تضاعف حزنه عندما توفيت جدته بعد فترة قصيرة على اكتشافه هذا. وفي السنة نفسها، أعطاه والده عصا وطلب منه أن يستعين بها ليتعايش مع قصوره وعجزه.

فتعلم عيسى كيف يمشي في الطرق المغبرة الوعرة في القرية بتلك العصا. ولم يكن يقترب من نهر القرية خشية السقوط والغرق بل ظل يراقب الأطفال من بعيد وهم يلعبون فيه في أيام الصيف الحارة.

في الطرف المقابل للقرية، كان يوجد مجمع يحوي مصنعاً لتكرير السكر يقيم في شققه العمال الذين يعملون فيه كما يلتحق أطفالهم بمدرسته. اعتبر السكان ذلك المجمع المكان الوحيد الذي يدل على الحضارة في الجوار. واعتاد أطفال القرية ارتياد تلك المدرسة. وللمرة الأولى في حياتهم، قابلوا أطفالاً مولودين في المدن الكبرى ويتمتعون بشعر أشقر وألوان عيون مختلفة وعادات متمدنة، ورأوا نساء يرتدين التنانير بدلاً من الأزياء التقليدية وهن حاسرات الرؤوس ويضعن طلاء الأظافر. قبل أن يلتحق عيسى بالمدرسة، استمع إلى الكثير من القصص التي تم تداولها عن الطرف المقابل من الطريق مع الملاحظات في الدفاتر. وبدأ يتساءل عن تلك المعلمة المدعوة سيما ذات الشعر الأشقر والعينين الخضراوين أكثر من كل شيء آخر. فحاول أن يتخيل ما يبدو عليه شكل شعرها الأشقر، وجرّب تصوره على أمه، ولكنه عجز عن تحديد اللون المناسب كما تفعل مصففات الشعر الرخيصات. وعندما بلغ السابعة من عمره، بدأ يذهب إلى المدرسة مع الأطفال الآخرين. ولأنه كان يخشى الطريق الخارجي الذي يمر بين القرية ومعمل التكرير، فقد اعتاد أن ينتظر إلى أن يتأكد من عدم وجود أي سيارات بالقرب، ثم يعبر بأقصى سرعة ممكنة مستعيناً بالعصا، وهذا ما جعله يفوت قسم الولاء لمصطفى كمال أتاتورك كل صباح. وبالرغم من أن المديرة لم ترضَ عن هذا التأخير، إلا أن المعلمة سيما ظلت تسامحه وتسمح له بالدخول إلى الصف.

وأخيراً، قابل عيسى المدرِّسة سيما وأكمل صورة المرأة التي

رسمها في خياله بالشعر الأشقر والعينين الخضراوين. وبعد مرور شهر واحد فقط على بداية المدرسة، بدأت المعلمة سيما تصاب بتوتر شديد بسبب عصا عيسى. فقد مر شهرا أيلول وتشرين الأول على ما يرام، ولكن كيف كان ذلك الولد سيعبر الطريق السريع بتلك العصا عندما يأتي الشتاء البارد والضباب الكثيف الذي يحجب الرؤية؟ لم تستطع أن تعي أصلاً كيف يستطيع أولئك الأطفال العبور على أية حال ناهيك عن صبي له ساق قصيرة. وعندما حل الشتاء، غطى الضباب الكثيف المكان كله ولم يعد بوسع المرء أن يرى سيارة تقترب ما لم تصبح على بعد بضعة أمتار فقط. وهكذا، فقد أصبحت تنتظر بتوتر في الصباح عندما تنادي كل تلميذ من الصف بأسمائهم ولا تسترخي إلى أن تسمع كلمة حاضر من كل التلاميذ القادمين من القرية. وإن تغيب أحدهم عن الحضور، سألت الآخرين عنه لتتأكد من عدم وقوع أي حادث.

ازداد قلق المعلمة عن ذي قبل بوجود عيسى تلك السنة، ولكنها أدركت كم هو من غير المجدي أن تستدعي والديه إلى المدرسة. فإن لم يكن أولياء أمور الطلبة من القرية يعملون في معمل التكرير، فلم يكونوا يحضرون إلى المدرسة حتى لو تم استدعاؤهم. وفي تلك الحالة، قامت المعلمة سيما بالشيء الوحيد الذي تمكنت من فعله وتطرقت إلى الموضوع في اجتماع زوجات المسؤولين الترفيهي الأسبوعي. فأعطي المبلغ المالي الذي تم جمعه ذلك اليوم للسيدة إيفر التي اعتادت أن تذهب إلى أقرب مدينة كل يوم من أجل العمل. ومع ذلك، فلم تكن مدينة أفيون كبيرة بما فيه الكفاية بالنسبة لبقية المدن ولم تستطع السيدة إيفر رغم كل جهودها العثور على عكازين من أجل عيسى. وهذه المرة، أعطيت النقود للسيدة فريال التي

اعتادت الذهاب إلى أنقرة في بعض العطل الأسبوعية لتتفقد أحوال ابنها الذي يدرس في الجامعة. وفي ليلة الأحد التالي، عادت السيدة فريال من أنقرة وبالها مشغول بسبب صديقة ابنها الجديدة وظهرها يؤلمها من تنظيف منزلها الذي استغرق يومين كاملين ولكن بحوزتها عكازان جديدان لعيسى.

بدا تحول عيسى من العصا إلى العكازين جذرياً كالتحول من سيارة من طراز فورد توروس إلى سيارة من طراز بي أم دبليو. وجعلته الوسادة الناعمة التي توضع تحت الإبط والطول القابل للتعديل والخفة ينسى أن إحدى ساقيه أقصر من الساق الأخرى. وبينما هو يقطع الشارع العام، شعر أنه أكثر أماناً وأن خطواته باتت أسرع. ومع ذلك، فلم تشعر المعلمة سيما بأنها مطمئنة بنسبة مئة بالمئة لمسألة عبور الشارع تلك. فقد باتت أيام الضباب وشيكة ولم يعد من الممكن له أن يعبر الشارع وحده، لذا كلفت بعض الطلاب من القرية بالعبور معه، وأعطتهم مصباح زوجها الكشاف، وطلبت منهم أن يوجهوه في كلا اتجاهي الطريق قبل أن يعبروا، وأن يعبروا فقط إن لم يروا أي أضواء تشع باتجاههم. فكان هذا أفضل ما تمكنت من القيام به. أما عيسى من ناحية أخرى، فقد شعر في تلك اللحظة فقط كم عاش مهجوراً ومهملاً طوال حياته. فملأ الحزن الذي نما في داخله بصمت صدره بذلك الاهتمام الذي تلقاه أخيراً وكتم أنفاسه. ومع ذلك، فقد حل الأمل محل الحزن في السنوات التي تلت ذلك. وبحلول الوقت الذي بدأ فيه الصف الثالث، انفتحت آفاق جديدة في ذهنه.

أدرك أن خلاصه يكمن في البقاء في معمل التكرير بطريقة أو بأخرى. وعندما حان الوقت ليبدأ المرحلة الإعدادية، تخلى كل

الأطفال الآخرين عن الدراسة إلا أنه أصر على متابعة دراسته. لم يعد مكان إقامته بذي أهمية للآخرين على كل حال لأنهم لم يظنوا أنه سيشكل أية مساعدة في أي نوع من الأعمال. هكذا، فقد فضّل أن يبقى في المدرسة على أن يمضي وقته متكئاً على أحد الجدران بساقه القصيرة. وخطر بباله أنه إن تمكن من العثور على عمل في معمل التكرير، فقد يتمكن حتى من الحصول على شقة صغيرة من الشقق الموجودة في مؤخرة المجمع والتي تخصص لعمال الأجور المنخفضة. قد يكون عيسى مولوداً بإعاقة، إلا أن الحزم وحسن الطالع لم يتخليا عنه قط. وظل لبقية حياته يتلقى المساعدة من الآخرين ويحظى بالتوفيق والحظ السعيد. في نهاية المرحلة الإعدادية، اصطحبه أحد المدرسين إلى السيد آغا مدير قسم الآلات. وطالما أن عيسى أبدى قدرته على القيام بالأعمال التي لا تتطلب منه المشي بسرعة، فلم يكترث السيد آغا إن كان مولوداً بإعاقة أم لا. وبالإضافة لذلك، فقد كان رجلاً يتمتع بإيمان كبير ويحب أن يساعد المحتاجين إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهكذا، فقد بدأ عيسى العمل في معمل تكرير السكر عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره. لم يكن بوسعه أن يتخيل حصوله على وظيفة في المعمل عندما أمضى طفولته وهو يزحف على طرقات القرية المغبرة تماماً كما لم يتخيل نفسه ينتقل إلى اسطنبول في غضون عشر سنوات. فقد تعلم عن المدينة التي تدعى اسطنبول للمرة الأولى في الصف الأول الابتدائي. فأمضى أسبوعاً كاملاً وهو مسمر أمام الخريطة المعلقة على زاوية الصف. وعندما أخبرتهم المعلمة سيما أنها من اسطنبول، أصبحت المدينة الثانية التي يتعرف عليها عيسى بعد أفيون. فربما لم تسنح له الفرصة لأن يستقل الحافلة ويذهب إلى أفيون، إلا أنه شعر بلهفة

كبيرة للذهاب إلى اسطنبول. لم يدرك مدى اتساع تلك المدينة من الخريطة وبكل تأكيد لم يستطع أن يتصور شكل البحر أو مضيق البوسفور، ولكنه اكتشف ذلك كله في ما بعد.

كان أحد العمال، وهو من سكان قرية عيسى ولكنه أكبر منه سناً، يتحدث عن اسطنبول طوال الوقت. فعندما ذهب ابن عم ذلك الرجل إلى اسطنبول، قال له إن الكلمات تعجز عن وصف جمال تلك المدينة. ونصحه بأن يذهب إلى هناك لأن بوسعه أن يعثر على عمل. وكانت له خطيبة تعيش في القرية وتأتي لتنظف منزل المدير كل أسبوع. فقالت لها زوجة المدير إنها ستمنحهما حالما يتزوجان شقة صغيرة تحوي مياهاً ساخنة وتدفئة كاملة. فما الذي قد يحتاجان إليه أكثر من ذلك؟ وكان ابن عم زميل عيسى قد طلب منه في إحدى رسائله أن يخبره أن هناك أحذية ذات نعل سميك مناسب للمعاقين. وعندما سمع عيسى عن هذا الحذاء، رمى كل شيء من يده وراح يحدق بزميله لبضع دقائق من فرط الدهشة وازداد فضوله حيال هذه المدينة أكثر من ذي قبل. ترى كم يبلغ اتساعها؟ كيف يبدو شكل البحر؟ ماذا يعني مضيق البوسفور؟ وأين يمكنه أن يعثر على مثل ذلك الحذاء؟

بعد أن أمضى عيسى بضع سنوات وهو يعمل في معمل التكرير، تمكن من ادخار مبلغ من المال بالرغم من أنه أعطى جزءاً من دخله لأبيه. ومع أنه رفع عكازيه إلى أقصى طول في سنوات، إلا أنها أصبحت عديمة الفائدة بالنسبة إليه بعد أن تعلم أن يمشي مسافات قصيرة من دون مساعدتها. صحيح أن التأرجح على الجانبين أصابه بشيء من الدوار، إلا أنه شعر بالرضى حيال المرحلة التي وصل إليها خلال تسعة عشر عاماً من عمره. وفكر في أن الوقت حان بالنسبة

إليه لأن يذهب إلى اسطنبول. فقد توجب عليه أن يجد ذلك الحذاء وأن يرى البحر.

كان لأحد العمال من أكسيهير، وهي بلدة صغيرة تقع شرق أفيون، قريب يعيش في اسطنبول، وهو زوج عمته ويعمل إماماً لأحد المساجد انتقل إلى هناك برفقة عائلته قبل بضع سنوات. فنصح عيسى أن يذهب إليه ويخبره أنهما صديقان وأكد له أنه سيساعده بالعثور على ذلك الحذاء. ومن هنا، انطلقت رحلة عيسى على الطريق العام الذي طالما أرعب المُدرّسة سيما قبل سنوات لتأخذه إلى اسطنبول، ولكن رحلته من محطة حافلات هاريم إلى حي سيفيلي أثبتت أنها حتى أكثر صعوبة بالرغم من وجوده ضمن حدود مدينة اسطنبول. وعندما انتقل من حافلة إلى أخرى، لاحظ أن الناس الذين رآهم هناك لا يختلفون كثيراً عنه. فقد توقع عيسى أن يرى أشخاصاً ذوي شعر أشقر وعيون خضراء مثل المعلمة سيما، ولكن الجميع حتى تلك اللحظة بدوا شبيهين به. بعد أن أمضى أربع أو خمس ساعات في المواصلات، وصل أخيراً إلى سيفيلي ودخل إلى المسجد وهو على وشك أن يغمى عليه من التعب. وبعد أن قدم نفسه للإمام، أخذه الرجل العجوز إلى أحد المطاعم عندما وجده يتضور من الجوع. لم يكن لديهم فندق أو ما شابه في ذلك الحي، لذا توجب عليه أن يذهب إلى مكان آخر للعثور على فندق، ولكن بدا واضحاً للإمام أن عيسى لم يعد يملك من القوة ما يساعده أن يخطو خطوة واحدة. فعرض عليه أن يمضي ليلته في المسجد ولم يجد صعوبة في تدبير بطانية له من بطانيات التبرعات وقرر أن يؤجل العثور على حل لمشكلته إلى اليوم التالي. للمرة الثانية، حالف الحظ عيسى. وعلى عكس الكثيرين من سيئي الحظ الذين حضروا إلى اسطنبول،

فقد قابل شخصاً صالحاً كهذا الإمام وأصابت ساقه القصيرة نقطة ضعف الرجل وساعد السلام الذي جلبه حزنه إلى ذلك المكان في بدء مغامرته الجديدة في اسطنبول. بعد تلك الليلة، سمح الإمام لعيسى بالبقاء في المسجد لبضع ليال أخرى وأمضى معظم وقته معه ليساعده. وبعد أربعة أيام، تمكنا من حل مشكلة الحذاء أيضاً. فاكتشف عيسى أن الأمر أبسط بكثير مما تخيل. ومع ذلك، فقد ظل يشعر بعدم توازن بين قدميه، ولكنه على الأقل تمكن من التخلص من العكازين إلى الأبد. وبعد أسبوع كامل، شعر الإمام أنه تمكن من فهم طبيعة روح عيسى وشجعه هذا على تقديم العون لذلك الشاب. فبعد ظهور عيسى المفاجئ في سيفيلي، ترسخت ثقة الإمام بالقدر الذي يجمع القطع المتناثرة عندما تقتضي الحاجة لذلك بمشيئة الله. وتذكر أنهم لم يعثروا بعد على شخص لحراسة المقبرة التي تدمرت جزئياً بعد الحريق الكبير وأن المسؤولين أوكلوا إليه مهمة فتح عينيه وأذنيه على احتمال العثور على الشخص الملائم لتلك الوظيفة. ومن أفضل من عيسى للمهمة؟ لم يتطلب الأمر أكثر من عشرة أيام للعثور على مكان لعيسى ليمكث فيه ويعمل. لم يكن لديه أحد يكتب له رسالة ليخبره عن التغييرات التي طرأت في حياته. وهكذا، فقد غادر القرية ومعمل التكرير وترك كل ما كان في حياته وراء ظهره واستقر في حجرته الصغيرة المطلة على مشهد مضيق البوسفور، واستهل عمله في اليوم التالي. خلال الأسابيع الأولى، واصل الإمام زيارته مرة في الأسبوع ليتفقد العمل الذي يؤديه. وبعد مرور شهرين، تأكد له أن عيسى عامل مجد وأنه لم يخيِّب أمله على الإطلاق. فتوقف عن الحضور إلى المقبرة وطلب من عيسى أن يزوره في المسجد. فقد كان على كل حال رجلاً مسناً يصعب عليه قطع كل تلك المسافة

بين سيفيلي والمقبرة مشياً على الأقدام.

وهكذا، أصبحت حياة عيسى رائعة كالقصص الخيالية: الحجرة الصغيرة والطعام اليسير والقليل مما يشغل باله ومنظر البوسفور الخلاب.

* * *

استغل عيسى الهدوء الذي أتاحه له يوم الاثنين وذهب إلى شجرة الجوز التي تقف بكل شموخ في بداية الطريق المؤدي إلى التل فوق المقبرة. في البداية، حفر التربة على الجانب الأيسر من الشجرة بيديه ووصل إلى أداة حفره الصغيرة. ثم ذهب إلى الجانب الأيمن من الشجرة ونزع الحجر الذي وضعه هناك من قبل ليحدد المكان وحفر بشكل أعمق وأخرج من الحفرة كيساً مطوياً بعناية يضع فيه مبلغاً من المال ودفتر حسابه المصرفي. وبعد أن وضع الكيس تحت قميصه أعاد ملء الحفرة وأعاد الحجر ووضع المحفرة في حفرتها الخاصة إلى اليسار وطمر تلك الحفرة أيضاً، ثم ذهب إلى حجرته وارتدى قميصاً نظيفاً من القميصين اللذين يملكهما وسروالاً وسترته الوحيدة وحث الخطى نحو سيفيلي. ناسبه وقوف حافلة المدينة في الجانب البعيد من سيفيلي التي تواجه المقبرة لأن هذا مكنه من الذهاب إلى المدينة من دون أن يتوجب عليه أن يرى أحداً من أهالي الحي معظم الوقت. وبالرغم من أن الناس لم يكترثوا لما يفعله أو يتوقعوا منه أن يلزم المقبرة طوال الوقت، فقد ظل يحاول أن يعيش حياته من دون أن يحتك بالآخرين. فقد أدرك عيسى تمام الإدراك من السنوات التي أمضاها بين أقدام الناس في القرية أن عجلة الثرثرة لا تتوقف ليلاً أو نهاراً وأن الجميع لديه ما يقوله عن شخص آخر.

كان أول شيء اعتاد القيام به حين ذهابه إلى بيلرباي، وهي بلدة مجاورة لمضيق البوسفور، هو الذهاب إلى المصرف وإيداع أمواله.

وبالرغم من أن الوجوه في المصرف باتت مألوفة بالنسبة إليه بعد فترة من الزمن، فقد ظل مصراً على اختصار الحديث قدر الإمكان والاقتصار على التفوه بعبارة "صباح الخير أو "نهاراً سعيداً" وحالما كان يأخذ دفتر حسابه التي كتبت عليه الأرقام الجديدة، كان يضعه في الجيب الداخلي لسترته ويذهب إلى المقهى المجاور للنهر. وكان حامد أول من نصحه بأن يفتح حساباً مصرفياً. وبعد أن أخبره عن المصرف وعن أي فرع يمكنه الذهاب إليه، أعطاه درساً حول أمان إيداع الأموال في المصارف. وفي المرة الأولى التي ذهب فيها عيسى ليفتح حسابه المصرفي في بيلرباي، راحت دقات قلبه تضرب بقوة لم يعهدها من قبل، وهو يدخل إلى المصرف، وانتظر بتوتر في الصف ثم أمسك الدفتر بيده وهو يشعر بفخر شديد بنفسه. احتسى فنجاناً من الشاي في المقهى ودخن سيجارة وهو يشعر بالراحة التي تتملك المرء عندما ينجز عملاً مهماً. وبعد فترة من الزمن، أصبحت هذه عادة من عاداته يستمتع بها متعة بالغة. لم يكن عيسى يظن أن حياته غريبة. فقد اعتاد أن يعيش كل ما يصادف طريقه ببساطة ويستوعب الأشياء التي يراها ويسمعها كالإسفنجة ويستعد لأشياء جديدة. ولم يكن طماعاً أيضاً، فهو لم يطلب أو يحلم بأكثر من ذلك. ولهذا السبب، لم يشعر قط بخيبة الأمل بل تقبل الحياة بكل ما فيها في السراء والضراء. وهكذا، وبعد كل مرة كان يرى فيها مدى عظمة بلدة بيلرباي، اعتاد أن يستقل الحافلة من دون أي تذمر عائداً أدراجه إلى المكان الذي ينتمي إليه.

في يوم الاثنين ذلك، وبعد الشاي والسيجارة، استقل عيسى حافلته عائداً إلى سيفيلي. وبعد أن ارتدى قميصه وبنطاله القذرين، عاد إلى شجرة الجوز ودفن ممتلكاته مرة أخرى.

أحمد

9

ثمة شيءٌ بدأ يقض مضجع حامد لم يعرف لماذا وكيف يحدده وتملكه نوع من القلق لم يشعر به بعد أي مهمة أنجزها من قبل قط. فقد كانت تلك أنظف مهمة أنجزها منذ سنوات، وأسهل مبلغ حصل عليه على الإطلاق، ولكن ربما يكون هذا هو ما أزعجه. فبعد الارتفاع المفاجئ لهرمون الأدرينالين الذي أصابه، حلت الخشية محل الإثارة والانفعال عندما عادت الأشياء إلى سابق عهدها وسرعتها الطبيعية. وبالإضافة لذلك، فقد اعتاد دائماً على التواجد في كل التفاصيل وأن يقرر بنفسه كيف تتم معالجة المهمة وأن يفضل العمل وحده، وهذا ما جعله يفترق عن الرجال الآخرين وشركاء محتملين منذ وقت طويل.

نقب في نفسه عن آثار للشعور بالذنب ربما تنتابه بشكل غير محدد وتبعث في نفسه هذا القلق. لطالما أدرك جميع من يعمل بهذه المهنة أن قتل الأشخاص يزداد صعوبة بعد بلوغ سن معين. فالناس يصبحون أشد رقة لسبب ما. ومع ذلك، فقد تميز حامد عن سواه بأنه لم يتزوج أو ينجب أطفالاً قط، وبالتالي فقد ضمن أنه سيبقى بلا أحفاد. فهناك حقيقة تقول إن الرجال الذين لهم أحفاد يفقدون قوتهم في مرحلة ما. فلم تدر الأفكار التالية ببال حامد أبداً: "ماذا سيحدث لزوجتي وأطفالي" واستطاع أن يعذب ويقتل الناس بطرق لا يمكن التفكير بها من دون الحاجة لمعرفة هويتهم بتلك القسوة الناجمة عن الافتقار لتلك العاطفة. لذلك السبب، لم يعرف ما يفعل بشعور مفاجئ كهذا الذي تملكه، أو كيف يواجهه. هل ذلك هو الضعف

الذي يرافق التقدم في السن أم أنه مجرد غريزة فظيعة؟ إلى أي حدّ أمكنه الوثوق بذلك الفتى المدعو دنيز؟ لقد هب لطفي لمساعدته من دون أي تردد، ولكنه تورط في الجريمة بشكل خارج عن إرادته. في الحقيقة، لم يكن لدى حامد ما يخشاه، فهو لم يقابل ذلك الشاب. ولم يكن هناك شخص آخر سوى لطفي يمكنه أن يثبت تورطه في الجريمة. ولم يكن لطفي يجرؤ على الشهادة ضده حتى لو كلفه ذلك حياته.

كان ابن أخته قد جلب له مبلغ المال في اليوم التالي كما وعده، وهذا ما لم يأبه له حامد في الواقع. فقد أدرك أن لطفي أخذ من دنيز مبلغاً أكبر مما أعطاه. فعندما التقيا، لم يتجرأ على النظر في عينيه وهو يسلمه المغلف. وكاد أن يختنق وهو يفتعل السعال، وهذا ما ساعده على عدم الاسترسال في الكذب أكثر. فشعر أن ذلك الوغد الصغير قد دبر مكيدة ما. ومع ذلك، فقد أيقن حامد أن كل الظروف تعمل لمصلحته. ففكر بأن يعاود الاتصال بلطفي ويطلب منه تفقد أمر صديقه. ومع ذلك، فبعد مضي دقيقة واحدة، عدل عن الفكرة ولم يعد يجدها فكرة سديدة. فقد تم إنجاز المهمة ومن الحكمة عدم فتح الأبواب التي أغلقت. وحتى لو اتصل أقارب أوكان بالشرطة، فمن المستحيل بالنسبة إليهم العثور على أي دليل ضده. وقال وهو يضحك بينه وبين نفسه: "ابحثوا بقدر ما تريدون. من أين لأحد أن يخطر بباله الذهاب إلى مقبرة سيفيلي والبحث عن جثة أوكان هناك؟" فإن عثروا على دليل من نوع ما في الشقة كشعر أو أي شيء من ذلك النوع، فهذا لا يمنحهم فرصة للتوصل إلى استنتاج. فمن الواضح أن الكثير من الرجال اعتادوا التردد على أوكان في شقته. وخلال تلك الفترة القصيرة من الزمن التي أمضاها هناك، ألقى حامد

نظرة فاحصة على الشقة وعلى المشروبات ومجموعة أشرطة الفيديو، وهذا ما ساعده أن يشكل فكرة جيدة عن طبيعة الحياة التي عاشها ذلك الشاب. ترى ما الذي أخذ دنيز إلى هناك في المقام الأول؟ من وجهة نظر حامد، فعائلة أوكان كانت ستمتنع حتى عن فتح تحقيق في اختفائه. وهكذا، أكد له كل تفصيل صغير فكّر فيه أن كل شيء يسير على ما يرام. ومع ذلك، فقد رفض ذلك الشعور بالقلق الذي جثم على صدره أن يبارحه.

* * *

في غضون ذلك، استولى على لطفي بدوره شعور غريب بعدم الراحة. فقد بدا له دنيز هادئاً عندما التقيا عند الهواتف العمومية. ومع ذلك، فهناك شيء ما أزعجه حيال ذلك الشاب. فقد راقبه لبعض الوقت بعد أن أعطاه المال ورحل، ورآه يتلفت حوله بتوتر ليس إلى حدٍّ كبير ولكن بما يكفي لأن يثير شعوراً بعدم الراحة في نفس لطفي. فتوجب عليه أن يتصل به ويعلمه بأن كل شيء على ما يرام وأنه يجب عليه أن يهدأ في حال أنه أصيب بالفزع.

عندما اتصل برقمه، كان دنيز قد تلقى لتوه رسالة أمه. وبما أنها لم تقل أي شيء مهم، فقد آثر ألا يعاود الاتصال بها. ومع ذلك، فلم تكن لديه أية فكرة عن نيتها الحضور إلى اسطنبول. وعندما رأى رقم لطفي على الهاتف في المرة التالية التي رن فيها، باغتته حالة رعب شديد. فلم يعرف ما الأفضل: أن يرد أم لا؟ ماذا إن حاولت الشرطة الإيقاع به؟ ماذا إن أرادت اكتشاف مكانه عن طريق إجبار لطفي على الاتصال به؟ ومع ذلك، فقد خطر بباله أنه ربما من الأفضل الرد على الهاتف. فعندئذ، قد ينتهي هذا الكابوس المزعج عند هذا الحد. فربما لم تعثر الشرطة على الورقة ولم تعتقل لطفي وربما اتصل به لمجرد

أن يطمئنه أن كل شيء على ما يرام. ربما إن رد على هذه المكالمة، عادت حياته إلى مسارها الطبيعي وأصبح بوسعه أن يتنفس الصعداء من جديد. ومع ذلك، فعندما وجد نفسه مرة أخرى أمام خيارين متساويين، لم يستطع دنيز المعتاد طوال حياته على التردد إبداء أي رد فعل. فقد أيقن أنه من الغباء أن يرد لمجرد الظن أنها قد تكون مكالمة هاتفية ودية. وعندما توقف الهاتف عن الرنين أخيراً، انتظر دنيز سماع رسالة صوتية. ولكن لم تصله أية رسالة. حاول أن يحلل هذا التصرف أيضاً، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى أي رأي محدد. ترى هل من الأفضل لو ترك لطفي رسالة صوتية أم لا؟ ماذا سيفعل إن عاود الاتصال به؟ قرر ألا يرد على الهاتف أو حتى أن يطفئه كلياً وأن يمتنع عن الذهاب إلى الكلية لبعض الوقت تحسباً لأن يحضر لطفي الشرطة إلى هناك وأن ينتظر حلول امتحانات آخر السنة ليعود إلى الكلية عندما تكون القضية قد حلت.

بالرغم من أنه أصيب بالإعياء بسبب الغثيان بعد ما مر به من أحداث اليوم، إلا أنه قرر أن يلتزم بخطته السابقة بالذهاب إلى المقهى تلك الليلة. فقرر أن يستحم ليتخلص من الرائحة. وبمجرد أن لامست المياه وجهه عادت به الذكرى إلى الليلة التي قتل بها أوكان وكأنه عاد لتوه من الشقة ودخل إلى الحمام بعد أن وضع ملابسه في الغسالة. انتابته تلك الأحاسيس نفسها؛ شعور رهيب بالندم واليقظة والخوف. أدرك الآن فقط أن حالات الخوف التي انتابته من قبل تبدو بغاية البساطة عندما تقارن بهذا الخوف الرهيب. تمنى لو أن بوسعه أن يظل يخشى الظلام لبقية حياته ومن فقدان أمه ومن الأمراض المنتشرة في العالم ومن التعرض لحادث سيارة. فهذا الخوف مختلف عن كل أنواع الخوف الأخرى التي تعرض لها لأنه ينهش المرء من الداخل ولا يمكن نسيانه حتى عندما يذهب للنوم.

وحتى لو لم يتعرض للاعتقال قط، فإلى متى يمكن له أن يعيش مع الخوف من القبض عليه؟ لم يعد قادراً على احتمال تلك اللحظة التي غزت فيها كل المشاعر المتناقضة جسده. فخرج من حوض الاستحمام ولف جسده بمنشفة. وسيطر عليه ذلك الضعف والهشاشة التي يعاني منها كل البشر عندما يتجردون من ملابسهم. لم تعد لديه القدرة على المقاومة ضد نفسه بالضبط كما لا يتمكن الأزواج من المجادلة مع بعضهم في مثل هذا الموقف. لم يعد بوسعه الدفاع عن نفسه ضد نفسه. وبعد أن ارتدى ملابسه على عجل، خرج مجدداً واتبع الطريق نفسه المؤدي إلى المقهى كما فعل في تلك الليلة وفي نيته أن يلقي نظرة خاطفة على البواب ويدخل مسرعاً. ومع ذلك، فقد أوقفه البواب عند الباب وطلب أن يرى بطاقة هويته. فشعر دنيز كأن دلواً كبيراً من الماء المغلي ينصب على جسده وراح يتصبب عرقاً وجبينه وأنفه يُظهران ذلك بوضوح. لم يطلب أحد في تلك الليلة أن يرى بطاقة هويته. لم يجد هذا تصرفاً طبيعياً وقال لنفسه: "ألا أبدو أكبر من 18 عاماً؟ هناك شيء ما يحدث" أمن المعقول أن تكون مجموعة من رجال الشرطة بانتظاره بالداخل؟ لم لا؟ لم يرد أن يتصرف بشكل متهور. وبدلاً من ذلك، مرر يديه على سترته ثم جعد وجهه وتمتم بصوت منخفض جداً: "آه، لقد نسيت محفظتي في البيت على ما أظن. حسناً، سآتي مرة أخرى" وغادر بأقصى سرعته. ترى هل راقبه الرجل من خلفه؟ أم هل أرسل خلفه من يتبعه؟ لم يجد الشجاعة لأن يلتفت إلى الوراء ويتأكد بنفسه، لذا بدأ يمشي بسرعة ثم انعطف إلى أول شارع جانبي صادفه. وبعد أن مشى لبعض الوقت أبطأ من سرعته وأصغى إلى صوت الشارع. فلم يكن أحد يتبعه. صادف متجراً لبيع الأطعمة المعلبة على بعد مسافة قصيرة. فمشى نحوه وبينما هو يمشي تفقد الشارع من خلفه وبدا كل

شيء طبيعياً. فاشترى علبة سجائر وخرج ليس لأنه يحب التدخين ولكن أدرك بشكل لاشعوري أنه سيبدو سخيفاً إن تم القبض عليه وهو يمضغ علكة. ففتح العلبة وأخرج سيجارة وانتظر ظهور شخص ما. وعندما تأكد أن أحداً لا يتبعه، استرخى وحث الخطى من جديد. لم يرد أن يذهب إلى البيت. فقد شعر أنه محاصر هناك وخشي ألا يتمكن من المغادرة مجدداً، وظل ذلك الطفل الواقف على حافة الشرفة يحثه طوال الوقت حتى كاد يدفعه من الخلف. وبعد فترة من الوقت، دارت بخلده خطة أخرى. ماذا إن ذهب إلى الحي الذي يقطن فيه أوكان ودخل إلى المتجر في ناصية الشارع وفتح حديثاً مع البائع ليعرف ما جرى في الجوار؟ ولكن إن نشرت الشرطة صوراً لدنيز للناس القاطنين هناك، لما تطلب تعرضه للاعتقال أكثر من خمس دقائق. واصل المشي من دون أن يقرر إن كان سيتبع تلك الخطة أم لا. وفكّر بالذهاب إلى بشكطاش وأن يذهب من هناك إلى أورتاكوي. وبينما هو يمر بجانب شركات الحافلات الداخلية على طريقه، خطرت له فكرة شراء تذكرة والهرب على متن الحافلة ربما إلى أنقرة أو أنطاليا حيث يعيش ابن عمه، ولكن إن وزعوا صوره على وكالات السفر، لربما اعتقلوه بمجرد ترجله من الحافلة. فقرر أنه يعيش بأمان أكبر في اسطنبول إن نجح في الاختباء والابتعاد عن الأنظار. فكر في أن ينزع نظارته ويحني ظهره بعض الشيء أو يربي لحيته. نزع نظارته ووضعها في جيب سترته، ولكن بعد بضع دقائق فقط لم يعد يستطيع تمييز الألوان عن الظلال فوضعها مرة أخرى. ففكر في نفسه قائلاً: "سأنزعها خلال النهار وإن اضطر لارتداء عدسات لاصقة طبية بدلاً منها، توجب عليه الذهاب إلى الطبيب، وهذا بحد ذاته يشكل خطراً كبيراً عليه. فربما تكون الشرطة قد وزعت صورته على جميع أطباء العيون اعتقاداً منهم أنه قد يفكر في تغيير

مظهـره. وبينمـا هـو يحبس نفسـه في هذه الزنزانـة الضيقة وهو يفكر بكل تفصيل بهذا الشـكل، شـعر بالفخر لتمتعه بالقدرة على حسـاب حتـى أدق الاحتمـالات. فمـن ناحية ما، شـعر أنه يـزداد انغلاقاً على نفسـه أكثر فأكثر، ولكنه من ناحية أخرى شـعر أن تفكيره ازداد حدة ونقاء. فتذكر تفاصيل دقيقة من المسلسـلات البوليسـية التي شـاهدها في التلفزيون. يقال إن القاتل إن لم يقتل شخصاً آخر بعد أن يهرب، فلديـه فرصـة كبيـرة في الإفلات من الاعتقـال. وعندما فكّر في هذا، أدرك للمرة الأولى أنه قاتل. وحتى تلك اللحظة، لم يفكر سوى في جانب واحد من الموضوع، ألا وهو الاعتقال والذهاب إلى السجن. وتملكه شعور بأن شخصاً آخر هو من ارتكب الجريمة ووضع اللوم عليـه هو. لم يشـعر بالمسـؤولية حيال جريمته علـى الإطلاق، ولكنه في الواقع هو من قتل أوكان واستمتع بما فعله. وبالرغم من الغضب الـذي اسـتولى عليـه بعـد ارتـكاب الجريمة، إلا أنه ظل يشـعر بمتعة بالغـة. وانتابـه شـعور بالرضـا لا يوصـف حيال قتل شـخص ما. فقد شـعر أنه أقوى وأكثر قدرة من أي وقت مضى. ومنحته فكرة اعتماد حياة شـخص ما على قراره نشـوة لا يمكن تخيلها. وبينما هو يواجه مشاعره في قرارة نفسه، راح يهز رأسه لينكر وجودها وليرفض رغبته بالتحكم، وهذا ما لم يشـعر بوجوده في جسـده وروحه من قبل ولم يسـتطع ذلـك قـط. وفجـأة، طغى صوت التشـجيع الصادر من ملعب بشكطاش على صوت تفكيره الداخلي. وبهرت الأضواء التي سطعت من كل زوايا الملعب بصره. وعندما اندمجت حدة تلك الأضواء مع تضارب أفكاره، اسـتولى عليه دوار مفاجئ فسـقط على الأرض وهو يسمع المشجعين يهتفون: "دفاع! دفاع!"

10

جلس عيسى في ظلام الليل أمام حجرته متكئاً على الجدار وواضعاً كل ثقله على القائمتين الخلفيتين للكرسي بينما ترتفع القائمتان الأماميتان في الهواء. وراحت عيناه تحدقان إلى النجوم وأذناه ترهفان السمع للأصوات القادمة من الثقوب الصغيرة في جهاز الراديو. وجعلت القصة التي أخذت ترويها إحدى النساء بصوت أجش، الدم يتجمد في عروقه تماماً كما فعل نسيم تلك الليلة الربيعية البارد.

"ارتدت العروس فستان زفافها والدموع تملأ عينيها بينما ثبتت أيادي نساء الجيران أطراف التنورة وتحسست أيادي الشابات الخمار بشوق وأمل. بدت وجنتاها اللتان انعكست صورتهما على المرآة المعلقة على الجدار حمراوين بسبب حمرة الخدود وعيناها محمرتين كالدم من البكاء وجلدها شاحباً كلون الكلس. أخذت تدعو الله وتقول: "يا رب! هب لي معجزة تنقذني وبينما هي تتمتم دعاءها هذا، رأت أمها تقترب من انعكاس صورتها في المرآة. أمسكت الأم العروس من كتفيها وفتلتها إليها. فبحثت العروس في عيني أمها بيأس عن أي دلالة على الشفقة. وبدلاً من ذلك، نظرت الأم إليها وشفتاها مزمومتان ومدت يدها إلى الخمار خلف رأسها وشدته إلى الأمام وغطت به وجه ابنتها، فحال الخمار بينهما حتى أصبحت نظرات كلتيهما ضبابية. تنحَّت الأم جانباً لتفسح الطريق لابنتها. فمشت العروس بخطوات قصيرة وهي تصغي إلى الأدعية

الخافتة التي تلتها النسوة من حولها. بدت منفصلة عن ألوان غرفتها وهـي محتجبـة خلـف خمارها وتقدمت إلـى الأمام نحو ذلك الظلام المخيف اللانهائي. وهكذا، غادرت المنزل متقدمة النساء من خلفها. كان أهل القرية جميعهم ينتظرون تلك اللحظة وهم يأكلون ويشربون على أنغام الموسيقى. وعندما اقترب والد العروس من ابنته، توقفت الموسيقى فجأة. وكان العريس ذو اللحية الرمادية والقبعة جالساً على بعد بضعة أمتار بينما كادت الرغبة تشع من عينيه وتشكل هالة تحيط بـه. أخـرج والد العروس شـريطاً أحمر ثخينـاً من جيبه. وفي اللحظة نفسـها، أطلـق صـوت المزمـار الكئيـب صيحة ورافقه صـوت كمان على وتر نشـاز. وانتظرت العروس رافعة ذراعيها إلى جنبيها محاولة ألا تنتحـب بينمـا وضـع الوالد الشـريط حول خصـر ابنته ولفه مرتين وربطـه مـن المقدمـة كما يقتضي التقليد ثم مشـى وهـو يتأبط ذراعها باتجاه الرجل العجوز الذي ينتظرهما. جلست العروس على الكرسي المحجوز لها بجانب عريسـها. والآن، انضمت الطبول والأبواق إلى بقيـة الآلات الموسـيقية الأخـرى وصدحت عاليـاً. فوقف جميع أهل القرية وكأنهم اتفقوا من قبل على ذلك وشرعوا بالرقص. ولا بد أن المتعة التي أبداها الجميع أضافت المزيد لتعاسة الشابة المسكينة.

بعـد مضـي سـاعات من الرقص والصـراخ، توقفت كل الآلات الموسيقية باستثناء الكمان والمزمار من جديد. ففهم الجميع أن أوان الرحيـل قـد حان. مشـى أهل القرية بعيـون دامعة إلى جانب العريس في المقدمة نحو بيت العرسـان الجديد. أدارت العروس رأسـها إلى الوراء وكأنها تلقي على العالم نظرة أخيرة. بحثت من خلف خمارها بعينين تكسوهما غشاوة، عن خلاص في عيني والديها، ولكنها لم تر أي شـيء فيهما، ثم خرجت من الباب ورأسـها منكس واختفت كل

آمال العالم وحل محلها كل خزي البشرية في قلبها. أغلقا الباب وراءهما ووقفا على بعد بضع خطوات منه. وبينما راح الأهالي يجرون أقدامهم بتثاقل إلى بيوتهم، رفع العريس خمارها ولمس عنقها بيديه المجعدتين وفك عقدة الشريط بحركات بطيئة ووضعه في جيبه. وفي تلك اللحظة، سمع صوت دق على الباب الخشبي ثلاث مرات. فالتفت العريس إليه بغضب وقال: "من هناك؟" فسمع صوتاً يقول: "لقد أتينا لنأخذ العروس   فصاح العريس ثانية: "اذهبوا لشأنكم!" ثم قُرع الباب ثلاث مرات أخرى وتكررت الجملة نفسها: "لقد أتينا لنأخذ العروس   فصاح العريس: "ارحلوا قبل أن أرتكب شيئاً لا يرضيكم!" وهذه المرة، ظهر ثلاثة رجال أمام الباب في البيت متسربلين بالسواد ولهم لحى طويلة ووجوه وضيئة. فتراجع العريس للوراء بحيرة. وبدأ جسد العروس يرتعش. مد الرجل الذي يقف في المنتصف يده إليها وقال:

"تعالي، يا ابنتي

"لماذا؟"

"لقد أتينا لنأخذك معنا"

"إلى أين؟"

"إلى الجانب الآخر

"لماذا؟"

"ثمة من ينتظرك هناك"

أمام نظرات العريس المرعوبة، مشت العروس متقدمة إلى الأمام من دون أن تطرح أي سؤال. وأمسكت ببطء اليد التي امتدت لها وانهارت بين ذراعي الرجل. فركع الرجل بحركة بطيئة ولطيفة ومدد

أحمد

العروس على الأرض ثم اختفى الرجال الثلاثة فجأة كما ظهروا. وعندما استدعى العريس أهل القرية، كانت العروس قد فارقت الحياة. لم يعرف أحد السبب ولم يشككوا بما قاله لهم العريس. ومن ذلك اليوم فصاعداً، لم يجبر أحد أي شابة في قرية تيكيرداج على الزواج من رجل لا تحبه"

قرابة نهاية القصة، سمع عيسى صوت قرع طبول من مكان بعيد. فخمَّن أن ثمة حفل زفاف في سيفيلي تزف فيه فتاة لرجل لا تريده. من يدري؟ وضع قائمتي الكرسي الأماميتين على الأرض ورفع أذنه في الهواء ليرهف السمع. فتبين له أن الصوت ليس قادماً من سيفيلي بل من الجانب الآخر من المقبرة. لم يبتعد عيسى من قبل مسافة أبعد من الشجرة التي اعتاد أن يدفن تحتها نقوده، ولم يجبره شيء على فعل ذلك، فلم يعتد أن يقطع مسافة أبعد من تلك التي تسمح له ساقه بتجاوزها مشياً على الأقدام. كانت الشجرة تقع على قمة التلة تقريباً وبعدها يبدأ منحدر. تساءل إن كان يوجد حي آخر هناك، ولكن الفضول تملكه الآن ليعرف ما يجري. ترى هل أقام أحدهم احتفالاً هناك؟ نهض على قدميه وبدأ يمشي ببطء. وبما أنه أيقن أن الصوت في الهواء الطلق يكون مضللاً، فقد توجه إلى بوابة المقبرة أولاً ليتأكد أن الصوت ليس قادماً من جهة سيفيلي. فوجد الحياة في الحي القديم خاملة كعادتها. والآن، بدأ يمشي وأذنه مرفوعة إلى الأعلى في الهواء وأخذ الضوء الكشاف من حجرته وتبع مصدر الصوت. وعندما وصل إلى آخر المقبرة، أيقن أن ما يجري، أياً يكن، فهو في هذا الجانب. توغل مسافة أبعد قليلاً حتى تجاوز الشجرة. وعندما وصل إلى قمة التلة، نظر إلى الأسفل بالاستعانة بالضوء الكشاف، ولكنه لم يستطع أن يرى الشيء الكثير. وكما يفعل

أيّ طفل يسافر بالقطار مروراً بالحقول الواسع فيحسبها بحراً، تردد عيسى للحظة خشية أن تكون ثمة بحيرة. بدأ يمشي بتمهل وحذر محاولاً أن يرى خطواته مستعيناً بالضوء الكشاف ثم يتوقف بين الحين والآخر ليرهف السمع إلى الصوت في الجو ثم غير اتجاهه بعض الشيء. شعر بشيء من الخوف والندم لأنه لم يصل إلى هذه المسافة من قبل، ولكن صوت قرع الطبول هدّأ من الرعشة التي تملكته في الداخل. فإن كان ثمة احتفال يقام في مكان ما في الأنحاء، فلا بد من وجود أشخاص يحتفلون. عندما أصبح قاب قوسين أو أدنى من مصدر الصوت، رفع ضوء الكشاف في الجو ورأى جداراً قائماً في وجهه تماماً. فقد كان هناك بناء مستطيل كبير الحجم. بدأ يبحث عن مدخل المبنى مسلطاً الضوء على الجدار. تبين له بشكل واضح أن الصوت قادم من الداخل، ولكن النوافذ الصغيرة في قمة البناء لم تعكس أي ضوء. وعندما وصل أخيراً إلى مقدمة البناء، وجد باباً ضخماً عليه سلاسل مغلقة. لا بد أنه ظل فارغاً لوقت طويل لأن اللافتة بجانب الباب بدت صدئة ومن الصعب قراءة ما كتب عليها. قرّب عيسى الضوء من اللوحة، وحاول أن يقرأ المكتوب. وبدا الحرف الأول منها كأنه حرف "ميم" بينما بدا الثاني كأنه حرف "سين"، ولكنه لم يكن واثقاً من ذلك. أما الحرف الثالث، فقد بدا أشبه بحرف "الراء" ومن المؤكد أن الحرف الرابع كان حرف "حاء" الآن اتضح له ذلك. فعاد إلى الحرف الثاني وقارنه به. وفي تلك الحالة، تأكد أن الحرف الثاني هو حرف "شين" ذهب إلى الحرف الأخير وميزه على أنه حرف "تاء مربوطة" حاول قراءة الكلمة من أولها لآخرها عدة مرات ثم صاح في النهاية معلناً عن اكتشافه بانفعال كأنه متزاحم على لعبة الحظ: "مشرحة" لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً

أحمد

حتى حلّت الرعشة في قلبه محل البهجة. لا بد أن تلك كانت مشرحة مهجورة تتبع للمستشفى القديم المهدم الذي يقع على بعد مسافة قصيرة. سمع الصوت الذي يشبه صوت الطبول وسط رنين أذنيه. ورفع رأسه والضوء في الوقت نفسه ليرى العمود القائم إلى يمينه بالضبط ووجده عبارة عن سارية علم وهناك قطعة من الحديد تضربه بفعل الرياح. حاول عيسى أن يبتعد عن البناء بأقصى سرعة ممكنة، ولكن ليس من الطريق الذي أتى منه بل من الاتجاه المعاكس. فذهب إلى الجانب الآخر من البناء متبعاً الضوء الخافت وشفتاه تتمتمان دعاء قصيراً. ومع ذلك، فليس من السهل على المرء الهروب من قدره المحتوم حالما يقع أسيراً له. فالقصة الخيالية التي سمعها على الراديو تلك الليلة والطريقة التي ترجم بها الأصوات التي سمعها وهو لا يزال تحت تأثير القصة وتجاوزه للشجرة في منتصف الليل ونزوله إلى سفح التلة وعثوره على المشرحة ثم سلوكه اتجاهاً ليس الاتجاه الذي وصل به إلى هناك حيث صادف زاوية مهجورة في اسطنبول نسيها الناس منذ وقت طويل، كل ذلك شكّل جزءاً من قدره.

توقف عيسى عندما سطع الضوء على حجر مستطيل الشكل يرتفع عن الأرض عشرين بوصة. وعندما تراجع خطوة إلى الوراء، وحرك الضوء في الأنحاء، اكتشف أن هناك عشرين حجراً من ذلك النوع. بدت تلك الحجارة كشواهد القبور، ولكن لا شيء في الأنحاء بدا دالاً على أنها مقبرة. اقترب عيسى من الشاهد الأول وسلّط الضوء عليه. فلم يجد أي شيء مكتوب عليه، لا اسم ولا تاريخ. ولم يكن ثمة ما يدل على أن الاسم والتاريخ نُقشا عليها ثم مُحيا. من الواضح، أن الحجر ظل فارغاً من الكتابة منذ البداية. تقدم لينظر إلى الحجارة الأخرى فوجدها كلها متشابهة. فجمَّد المنظر الدم في عروقه. فقد

كانت رؤية شـواهد القبور كل يوم أمراً عادياً بالنسـبة إليه، ولكن أن يصـادف شـواهد قبـور فارغة في وسـط المجهول فـي منتصف الليل أمر غير عادي. حاول أن يمشـي بسـرعة قبل أن يحاول أن يفهم إن كانت أحداث النصف ساعة الأخيرة مجرد حلم فظيع. وأراد أن يعود إلى نطاق حدود حياته بأقصى سرعة ممكنة، ويتخلص من كل هذا، ويسـتغرق في نوم عميق. تنفس الصعداء عندما وصل إلى الشـجرة. ترى هل يستحسن أن يسأل الإمام عن ذلك المكان أم أن ينسى الأمر برمته؟ خطر بباله أنه ربما من الأفضل أن يرى المكان مرة أخرى في وضـح النهـار. فالحياة ليسـت مخيفة وعديمـة الأمل قط تحت ضوء الشمس. استغرق الأمر منه ساعة ونصف ساعة فقط لينزل إلى سفح التـل، ويعثـر على المشـرحة ثم المقبرة الفارغة ثـم يعود أدراجه مرة أخـرى، ولكـن المـدة بدت بالنسـبة إليه وكأنها الأبديـة وخارت قواه من التعب. وعندما دخل إلى حجرته مرة أخرى، لـم تعد لديه الطاقة الكافية لأن يغير ملابسـه فاسـتلقى على سـريره بهيئته الحالية. وبعد بضع دقائق، غطَّ في نوم عميق.

استيقظ من سبات متواصل خال من الأحلام في الصباح بعد أن ملأت خيوط أشعة الشمس حجرته. وفي اللحظة التي فتح فيها عينيه، قبل أن تتسـنى له الفرصة لأن يجلس في سـريره، عاودته صورٌ مما رآه فـي الليلـة الفائتـة. ومـع ذلك، فقد أيقن أن حقائق الحياة تختلف في وضح النهار. وبالرغم من لهفته لرؤية المكان مرة أخرى، إلا أنه تذكـر أن لديـه الكثيـر ليقوم به ذلك اليوم. فهناك جنازة قادمة توجب عليـه أن يجهـز مسـاحة لها. وبعد أن تنـاول بضع لقيمات، خرج من حجرته. وبينما هو خارج ليحفر حفرة بالمعدات في يديه، لم يصعب عليه تمييز الرجل الذي وقف وظهره نحوه أمام أحد القبور. فقد اعتاد

حامد أن يأتي إلى المقبرة بين الحين والآخر عادة في وقت مبكر جداً من الصباح ليقرأ الفاتحة على قبر سمية إيريكول. لطالما عجز عيسى عن فهم هذا التصرف. لم يكن واثقاً إن كان حامد قد قتل تلك المرأة أم لا، ولكن إن لم يفعل ذلك، فلماذا أتى بها إلى هنا؟ من الواضح أنه ظل متألماً لموتها. ترى هل قتلها في لحظة غيرة أم أنها مجرد مهمة كلف بها؟ ربما وقع في حبها قبل أن يقتلها. في هذا اليوم بالذات، لم يكن حامد يتحدث إلى عيسى بل يغادر من دون أن يتفوه بكلمة وكأنه لا يعرفه. وفي تلك الأيام، لطالما تعجب عيسى من مدى سهولة التظاهر بأنه لا يعرف شخصاً ما في حين أنه يعرفه في الواقع حق المعرفة، وأنه يمكنه ألا يعرف شخصاً غداً بمحض إرادته رغم معرفته به اليوم وأن يمحوه من ذاكرته إلى الأبد. فالمعلمة سيما، التي لعبت دوراً مهماً جداً في حياته في الماضي، محيت تماماً من مخيلته. وبالرغم من أن بعض بقايا الذكرى ما زالت موجودة في مكان ما في ذاكرته عن تلك الأيام، فلم يكن واثقاً من أنها ستدوم إلى الأبد. فربما سيأتي يوم ينساها فيه كليةً ولا يعود حتى يعرف بوجودها. فإن استطاع الآن أن يتصرف اليوم وكأنه لا يعرف حامداً، فكم من الوقت قد يظل قادراً على ألا يتخلى عن ذكراه بعد أن يخرج من حياته؟ جعلته هذه الأفكار يدرك سبب زيارات حامد للمقبرة. فلا بد أنه أراد أن يحاول التشبث بذكرى شيء ما أفلت من بين يديه، ولكن هذه الزيارات ستقل شيئاً فشيئاً إلى أن تتوقف. فتعلم عيسى شيئاً مهماً، من بين أشياء أخرى تعلمها من هذه المقبرة، وهو كم أن النسيان شيء سهل.

11

استعاد دنيز وعيه على صوت صفع في وجهه. فوجد رجلاً كبيراً في السن يكاد يجلس فوقه وهو يحاول أن يوقظه عن طريق التصفيق بيديه طوال الدقائق الخمس الأخيرة. وكان قد شاهد دنيز ينهار في الشارع وهو يمر بجانبه بسيارة أجرة فتوقف بالرغم من اعتراضات السائق الذي راح يقول له: "إنه على الأرجح مجرد مدمن مخدرات. دعه وشأنه" نجح الرجل في إيقاظه معتمداً على خبرته القديمة. وفي تلك الأثناء، طلب سائق سيارة الأجرة الإسعاف. فبدا من صوت الصفارات أنها شارفت على الوصول. نظر دنيز بعينين خاليتين من التعبير في وجه الرجل المسن. وبينا هو يحاول أن يدرك مكانه، سمع صوت هتاف من الملعب وتذكر ما جرى. ترى كم من الوقت مضى عليه وهو هنا وما الذي حدث، ومن هو ذلك الرجل؟ والأهم من كل شيء هل اتصلوا بأحد؟ عندما قال الرجل بصوت ناعم: "لا يوجد ما تخشاه أيها الشاب. لقد أغمي عليك على الأرجح لا شيء خطير على ما يبدو. سيارة الإسعاف في طريقها إلى هنا" توسعت حدقتا عيني دنيز وتمتم متلعثماً: "لست بحاجة لسيارة إسعاف"

"لا أظن أن هناك أي شيء خطير، أيها الشاب، ولكنني أظن أنه ينبغي عليك أن تذهب إلى المستشفى ليكشف عليك الطبيب"

"كلا، كلا، ما من داعٍ للذهاب إلى المستشفى. فأنا بخير، ولكنني متعب فقط بعض الشيء"

"إنني واثق من أنك بخير، ولكن سيارة الإسعاف وصلت. وبما



أنها هنا الآن، فلم لا تذهب إلى المستشفى للاطمئنان فقط. فمن غير الطبيعي لشاب في عمرك أن يغمى عليه"

بدأ دنيز يفقد صبره، وأخذ إلحاح ذلك الرجل الذي لا داعي له يزعجه. ما الذي جعله يهتم به إلى هذا الحدّ؟ فهو لم يكن مريضاً. ولم يتوجب عليه أن يروي قصة حياته لذلك الرجل المسن ليقنعه بذلك. جلس ببطء. فجعلت نظرات القلق في عيني الرجل عروق رقبته تضيق من فرط الغضب. وبينما هو على وشك أن ينهض ويغادر، توقفت سيارة الإسعاف على جانب الرصيف واقترب طاقم السيارة منه ومعهم نقالة. وقال أحدهم: "من فضلكم أفسحوا الطريق" خرجت من دنيز صيحة ممتزجة بنوع من الضحك. ما الذي يجري؟ أهو فيلم أميركي؟ أيعقل أن تصل سيارة الإسعاف بهذه السرعة لأنه قد أغمي عليه؟ حاول أن يخبر المسعفين أنه على ما يرام بأكبر قدر ممكن من الهدوء.

"دعنا نقس ضغط دمك، يا سيدي"

مهما حاول أن يسيطر على نفسه، فقد تسلل صوته كالفحيح من بين أسنانه: "إن ضغط دمي طبيعي، ولكنني متعب وحسب"

"مع ذلك، دعنا نلقي نظرة عليه"

"أليس لديكم عمل؟ دعوني وشأني. إن قلت لكم إنني على ما يرام، فهذا يعني أنني على ما يرام. أتفهمون ذلك؟ قلت لكم إنني متعب. ألا يمكن للمرء أن يغمى عليه بسلام في هذه البلاد اللعينة؟ عندما يقول الناس إنهم يحتضرون، فلا يمكنهم العثور على سيارة إسعاف. تباً! لا تنظروا إليَّ هكذا! ما الذي يهمكم في ذلك؟ اذهبوا لحال سبيلكم"

كلما تحدث أكثر، ارتفعت نبرة صوته بينما انتهت كل جملة

قالها بنبرة تعجبية. وبالرغم من أنه حاول أن يمنع نفسه، فقد سبق وتخطى الحدود. ومن تلك اللحظة وصاعداً، أصبح من الممكن له أن يتحدث عن كل المسائل الصحية في البلاد وعن مدى سوء حالة المستشفيات، ويلعن الأطباء وحتى يختم كلامه بتلاوة خطبة كمال أتاتورك سيئة السمعة. ازدادت أعداد جمهوره بعد أن توقف أناس آخرون ليروا ما يجري، وتملكهم الفضول ليعرفوا إلى أين يمكن أن يصل ذلك الشاب. وبينما أقر نصف الجمهور بحقه في أن يترك وشأنه، اتهمه الباقون بالتصرف بوقاحة شديدة وهم يقولون إنه لم يعد يمكن للمرء في هذه الأيام أن يمد أحداً بالمساعدة ويتساءلون إلى أين سيصل بنا هذا العالم. أمعنت تلك التمتمات والثرثرات في الضغط على أعصاب دنيز. فكلما زادت، تحدث أكثر، وازداد طول ذلك المونولوج، وراح الرجل المسن ينظر إليه وهو فاغر فمه بينما نسي المسعفون سبب وجودهم هناك في المقام الأول وبدؤوا يتجادلون مع دنيز. توجب عليهم أن يتركوا ذلك الأحمق وشأنه. فلو ارتفع ضغط دمه إلى أعلى المستويات الآن، فلم يكونوا سيأبهون لنقله إلى المستشفى حتى لو توسل إليهم، هذا ما قالوه. حث دنيز الخطى مخلفاً وراءه حشداً مصدوماً واتجه إلى المكان الذي أتى منه بعد أن نسي السبب الذي أتى به إلى هنا، أي إلى حي أورتاكوي؛ محل إقامة أوكان. استغرق الأمر منه مسافة ستمائة قدم حتى يهدأ، وبدأ يتنفس بشكل منتظم مجدداً، وعاد نبض قلبه إلى سرعته الطبيعية. عندما استعاد هدوءه، وجَّه غضبه نحو نفسه هذه المرة. فقد كانت تلك ثورة غير ضرورية على الإطلاق. لم يكن يفترض به أن يلفت الانتباه. وراح يصفع رأسه ويقول: "لا تلفت الانتباه!" قرر أن يعود إلى البيت لأنه أدرك أنه تسبب بما يكفي من الجلبة في تلك الليلة.

بعد مهمته الفاشلة في أورتاكوي، تمدد على الأريكة لعدة ساعات من دون أن ينتبه لما يتفرج عليه في التلفزيون. شعر أنه لم يعد قادراً على التركيز على أي شيء وأن دماغه عاجز عن تسجيل الجمل وتشكيل أي فكرة كاملة. بعد قليل، استغرق في النوم، وتسلل إليه حلم ظل يطارده ويقض مضجعه من وقت لآخر طوال حياته. رأى نفسه يحضر حفلة مولد إحدى الفتيات من صفه في الكلية، ولكنها بدت شبيهة بابنة عمه. دخل إلى قاعة مظلمة، ورأى جميع من فيها يرقصون، وبما أن صوت الموسيقى كان عالياً جداً، فقد صاح بأعلى صوته لتسمعه الفتاة. وفجأة، تملكته رغبة في مغازلتها، ولكن أحد أسنانه العلوية بدأ يتلحلح. فذهب إلى الحمام وألقى نظرة عليه ووجده يتلحلح كما فعلت أسنانه اللبنية وهو في الصف الأول الابتدائي. فبدأ يهزه بالاستعانة بإصبع السبابة والإبهام حتى سقط في يده. فعاد إلى الحفلة ووضعه في جيبه. وعندما توجه ليتحدث إلى الفتاة مرة أخرى، هذه المرة سقط سن آخر من أسنانه العلوية ثم حدث الشيء نفسه مع الأسنان الأخرى. حاول أن يعيد جميع الأسنان إلى أماكنها، ولكنها واصلت التساقط. فذهب إلى الحمام وأسنانه بيده وتفحصها واحداً تلو الآخر وحاول أن يعيدها إلى أماكنها المناسبة، ولكن بلا جدوى. وفي النهاية، وضعها كلها في راحة يدها ومرر لسانه على لثته وهو يدرك للمرة الأولى ما يعنيه أن يكون المرء بلا أسنان. وعندما عاد دنيز إلى الحفلة مرة ثانية وتوجه للتحدث إلى الفتاة، وجدها ترقص مع أصدقائها. أخبر شخصاً واقفاً بجانبه أن أسنانه سقطت. فنصحه ذلك الشاب أن يذهب إلى الصيدلية ويشتري لنفسه طقم أسنان جديداً، لذا خرج وبدأ يبحث عن صيدلية. وعندما عثر على صيدلية مفتوحة، دخل إليها وسأل عن أطقم الأسنان

المتوفرة لديهم. فأرشده الصيدلي إلى رف مليء بأطقم أسنان من أنواع مختلفة. فاشترى طقماً ووضعه في فمه وعاد إلى الحفلة. بدت أسنانه الجديدة أفضل من القديمة، ولكنه وجدها ضيقة بعض الشيء. وقبل أن يصل إلى نهاية الحلم، استيقظ على صوت رنين جرس الباب. وعندما جلس على الأريكة، اكتشف أنه استغرق في النوم أمام التلفزيون منذ الليلة الفائتة وأن صباح اليوم التالي قد حان. وكان يُعرض على التلفزيون فيلم قديم من أفلام رعاة البقر يظهر فيه الممثل الأميركي كلينت إيستوود وهو يرنو بعينيه من تحت قبعته ويعبث بأصابعه على جنبه وكأنه يستعد لسحب مسدسيه وإطلاق النار في أية لحظة. شعر دنيز بلثته تؤلمه. فلا بد أنه أمضى الليلة وهو يصر أسنانه وأن ذلك على الأرجح هو السبب الذي جعل الحلم يراوده. وعندما رن جرس الباب مرة ثانية، أدرك دنيز أنه ليس جزءاً من الحلم. فتوجه إلى الباب متسللاً على رؤوس أصابعه. تساءل إن كان بوسعهم سماع صوت التلفزيون من الخارج. وبينما هو ينتظر ويداه على خصره، سمع صوت أمه من الخارج وهي تقول: "دنيز؟" نظر من العين السحرية بدهشة ورأى أمه واقفة أمامه. ففتح الباب.

"ما الذي تفعلينه هنا، يا أمي؟"

"قلقت عليك. إنك لا تجيب على هاتفك أيضاً. هل كنت نائماً؟"

"آه، نعم"

"هل أنت على ما يرام؟ ألن تذهب إلى الكلية؟ أليست لديك حصص صباح اليوم؟"

لم يعرف دنيز عن أي سؤال يجيب أولاً.

"كلا، ليست لدي دروس في الكلية هذا الصباح. لا يجب عليّ

حضور كل الحصص في هذا الفصل على كل حال. سأجهز نفسي للامتحانات النهائية. فقد باتت وشيكة"

في غضون الدقائق الأولى التي تم فيها تبادل تلك الأسئلة والإجابات، دخلت السيدة سوزان، ووضعت حقيبتها في وسط غرفة المعيشة، وراحت تنظر حولها. وكانت رائحة المكان كريهة. فظنت أن السبب ربما هو قلة الهواء النقي، ولكنها شعرت بوجود رائحة أخرى فاحت منه لم تستطع تمييزها تماماً. لطالما كره دنيز موهبة أمه في الشم وشعر بعدم الارتياح لوجودها. والآن، عندما شمت السيدة سوزان شقة دنيز وأنفها مرفوع بعض الشيء إلى فوق، تملكته خشية من أن تكتشف كل شيء في ثانية واحدة بالرغم من أنه أدرك أنه من الغباء منه أن يفكر في تلك الطريقة. جالت السيدة سوزان بنظرها في أنحاء الغرفة ثم وجهت نظرة متفحصة إليه وتأملته بعناية شديدة. فترك دنيز بحركة عفوية مفاجئة فكه الذي ظل يضغط عليه بأصابعه منذ بعض الوقت.

"ما الأمر؟ هل تعاني من ألم في أسنانك؟"

"كلا، أظن أنني صررت أسناني قليلاً وأنا نائم"

"هذا على الأرجح ناجم عن التوتر بسبب الامتحانات النهائية. كيف يمكنك أن تعيش هكذا، يا دنيز؟ انظر إلى غرفة المعيشة هذه. أنت كائن بشري، صحيح؟ لا يمكنك أن تعيش بهذا الشكل. هل غرفة نومك بهذه الهيئة أيضاً؟ اذهب وافتح النوافذ، ودع بعض الهواء المنعش يدخل إلى البيت. من هذا؟ كلينت إيستوود؟ في مثل هذا الوقت من اليوم؟ ما المشكلة، يا حبي؟ ومع ذلك، فقد أدركت الحقيقة عندما تحدثت إليك على الهاتف. هناك شيء غير عاديّ. لا بد أن هناك شيئاً ما يحصل، ولكننا سنكتشف ذلك، صحيح؟

لنتناول الفطور أولاً. فأنا أتضور جوعاً. لقد أعطوني بعض الكعك في الحافلة. يا ربي! من يمكنه أن يتناول الحلويات في الصباح؟ يمكنهم على الأقل أن يعطوا شطيرة ما. لست أدري. توجب علي ربما أن أحضر وجبة ما، ولكنني كنت على عجلة من أمري"

عندما دخلت السيدة سوزان إلى المطبخ ولاحظت مدى اتساخه، تنهدت بصوت مرتفع، ولكنها حدثت نفسها بأنه مجرد شاب. فما الذي يمكنه فعله؟ فكّرت في أن تطلب منه أن يدرس في أنقرة، ولكنها عدلت عن الفكرة. من دون أن تخلع معطفها، انهمكت بغسل الصحون وهي تصيح على دنيز قائلة: "على الأقل، أحضر بعض الخبز أو شيئاً من هذا القبيل. هل لديك جبن؟ هيا تعال" حاول دنيز أن يستجمع أفكاره وهو يضع يديه على رأسه، فهذا آخر شيء توقع حدوثه. كيف يسعه أن يخبر أمه أنه لم يعد يغادر البيت في النهار كثيراً وأنه في الواقع من الأفضل له ألا يغادر؟ فات الأوان لأن يكذب حيال صحته. فقد ضبطته أمه وهو على غير استعداد في الصباح الباكر. ولم يكن الكذب مسألة سهلة، فهو بحاجة إلى تهيئة وتحضير. عندما رفع سماعة الهاتف ليتصل بمتجر البقالة، ظهرت السيدة سوزان عند باب غرفة المعيشة ويداها مبللتان وكماها مرفوعان وهي تتكئ على الجدار.

"ما هذا؟"

"فكرت بأن أطلب على الهاتف"

"لماذا تتصل؟ لم لا تنزل بنفسك؟ يا ربي! هل تريد بالفعل أن تدفع إكرامية لشخص ما في حين أنه يمكنك فعل ذلك بنفسك؟ يا له من تفكير حكيم، يا دنيز. ألا يكفي أنك تعيش في كل هذه الشقة بمفردك...

أدرك دنيز أنها ستستمر بالكلام دون نهاية، لذا نزل إلى الشارع، وترك أمه هناك وهي لا تزال تتكلم. مشى بأقصى سرعة ممكنة من دون أن ينظر حوله، وأجاب عن الأسئلة المعتادة لموظف المتجر بسرعة وحصل على ما يريده بالإضافة إلى الصحيفة وعاد أدراجه إلى المبنى. وفجأة، تذكر الملابس التي تركها في الغسالة. وكان كل شيء مغسولاً وجافاً، ولكنه أدرك أن أمه ستتفحصها مباشرة بعد أن تنتهي من غسل الصحون. لطالما أحبت أن تضع لائحة بالمهام في أول يوم تصل فيه. ترى هل من الممكن لها أن تفهم ما يجري؟ عندما وصل إلى الشقة متسلقاً كل درجتين في آن معاً ودخل إليها، وجد السيدة سوزان تمسك بالبنطال وتتفحصه عن كثب وتشمه. فنظر دنيز إليها وهو يمسك بالأكياس.

"إلى أين ذهبت بهذا البنطال؟ أرى أنك غسلته، ولكن لا تزال تفوح منه رائحة السجائر. أظن أنك ذهبت به إلى أحد المقاهي

"نعم، لقد ارتديته قبل بضعة أيام"

"إذاً، فأنت لا تذهب إلى الكلية، ولكنك تذهب إلى المقهى. حسناً، يجب عليّ أن أغسله مرة أخرى. تفوح منه رائحة أخرى على كل حال. ما هي؟ أهي رائحة بخور؟ إنها رائحة غريبة"

تذكر دنيز للمرة الأولى بعد ذلك اليوم الذي ذهب فيه إلى بيت أوكان أن أوكان أشعل بعض البخور. وبينما هو ينظر إلى أمه بعينين خائفتين مفتوحتين على وسعهما، ظلت السيدة سوزان تتفحص البنطال. وفجأة، ركزت انتباهها على بقعة في إحدى ساقيه.

"ما هذا؟" وشمت البقعة، ثم قالت: "أهذا دم؟ هل جرحت نفسك؟"

"كلا، كان هناك كلب ميت في الطريق، ولكنهم أزالوه. رأيته في

اللحظة الأخيرة وحاولت أن أعبر من فوقه. أظن أن البقعة حدثت عندئذ"

فقفزت السيدة سوزان على قدميها وأبعدت البنطال عن أنفها، وقالت: "هذا غريب. إن رائحة دماء الكلاب تشبه رائحة دماء البشر إذاً. لم أكن أعرف ذلك"

عندما دخلت أمه إلى الحمام والبنطال في يدها، أيقن دنيز أنها لم تقتنع بكلامه. ومع ذلك، فهناك فائدة وحيدة جناها من ذلك الموقف، وهي أنها لن تضع أنفها ثانية على أية بقعة سواء أكانت دم كلب أم لا بعد أن ترك كل شيء اشتراه في المطبخ، دخل إلى غرفة المعيشة مرة أخرى وبيده الصحيفة. فتفقد كل صفحة من صفحاتها بكل عناية، ولكنه لم يعثر على أي خبر عن أوكان. فكر أنهم ربما لن ينشروا أي خبر على الإطلاق وأنهم ربما يظنون أنه غادر المدينة. فندم أشد الندم أنه لم يكن يعرف أي شيء عن حياته. لم يتحدثا عن أي شيء يخص أوكان في تلك الليلة. فلم يقل شيئاً عن عائلته أو أصله أو أي شيء من ذلك القبيل. ترى هل كان له إخوة؟ هل كان يحب عائلته؟ قال له فقط إنه طالب في جامعة ميمار سنان. ترى ماذا كان يدرس؟ صناعة الخزف؟ كلا، ليس ذلك، ولكن شيئاً من ذلك القبيل. نعم، إنه الفخار! ما الذي يعنيه ذلك. ما الذي يعمل به الشاب الذي يتخرج من كلية صناعة الفخار؟ خطر ببال دنيز أن أوكان ربما ليست لديه عائلة أو فقد كل أفراد عائلته في طفولته أو أن أحداً ربما لا يعرف أين يعيش. فربما كان له أقارب في مكان ما ولكنهم لا يكترثون لأمره أو تخلوا عنه لسبب أو لآخر. ولا بد من أنه تدبر وسيلة ما تساعده على دفع إيجار شقته. وجد دنيز كل تلك الاحتمالات واردة. وفي غمرة كل تلك الأفكار، تذكر دنيز تفصيلاً

نسيه لبضع ساعات فقط. ماذا عن قطعة الورق التي نسيها في شقة أوكان وعليها رقم هاتف لطفي؟ ما السبب الذي دفع لطفي للاتصال به في اليوم الفائت؟ هل اتصل بنفسه أم أن هناك من دبر مكيدة كبيرة وراء تلك المكالمة؟ هل أبلغت الشرطة وسائل الإعلام عن الجريمة أم أنها منعتهم من الكتابة عنها لئلا تسنح الفرصة للمطارد بالإفلات بفعلته؟ وشعر بالغطاء الصغير على رأس معدته ينفتح من جديد بشكل لاإرادي. وعندما دخل إلى الحمام وقطرات العرق تلمع على جبينه، وجد السيدة سوزان تهم بأن تكبس زر الغسالة الكهربائية. وفي اللحظة الأخيرة، تمكن من فتح كرسي المرحاض وإفراغ آخر قطرات الماء من معدته. وبينما أخذت السيدة سوزان تصيح قائلة: "أدركت ذلك. إنك مريض، ولكنك لا تريد أن تخبرني. آه، يا عزيزي. دعني أر. لنغسل وجهك، يا حبي!"، كان الشيء الوحيد الذي أراده دنيز هو أن يُترك وشأنه وأن يفرغ أحشاءه بالكامل إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. لم يستطع أن يحتمل نحيبها وهو يحاول أن يتعامل مع المشاعر المختلطة التي تملكته. وبينما هو يحاول أن يتشبث بكرسي المرحاض، حاول أن يبعد أمه عنه. فلم تقاوم السيدة سوزان كثيراً بل تركت ابنها في مكانه وهرعت إلى غرفة المعيشة، ثم طلبت رقم الطبيب الذي تعامل مع مشاكل دنيز الصحية منذ طفولته من ذاكرتها. والآن، أسرع دنيز إلى غرفة المعيشة بفزع وهو لا يزال يشعر بطعم لاذع على شفتيه وحاول أن يمنع أمه من الاتصال بالطبيب، ولكن فات الأوان بالطبع على ذلك. فقد أخبرت السيدة سوزان الدكتور إيرول أنها أتت إلى اسطنبول ذلك اليوم لأنها شعرت بغريزة الأم أن ابنها يعاني من مشكلة ما ثم وجدته يتقيأ وهو يبدو شديد الشحوب وأنها اكتشفت أنه لم يذهب إلى الكلية منذ بضعة أيام. انتهت المكالمة

الهاتفية بعد أن ضرب الطبيب لها موعداً في الساعة الثالثة ذلك اليوم. لم تكن لديها أية تحفظات حيال اصطحاب دنيز إلى طبيب الأطفال. لطالما عرف دنيز طبيعة أمه حق المعرفة وأنها حالما تتشبث بأمر ما فمن المستحيل إقناعها بالعدول عنه. فاستلقى على الأريكة وهو متعب. وعندما أتت بعد بضع دقائق وفي يدها قطعة قماش مبللة لتمسح وجه ابنها، أدرك دنيز أنها لا تزال ترتدي معطفها.

فقال لها: "لماذا لا تخلعين ذلك المعطف، يا أمي؟"

"آه، أترى؟ لطالما أمضيت زياراتي إلى اسطنبول بهذا الشكل. لا يتوفر لدي متسع من الوقت حتى لأخلع معطفي، ولكنني أدركت أن ثمة خطب ما. أخبرني، منذ متى وأنت مريض؟ هل تتقيأ كثيراً؟ عرفت هذا من رائحة المنزل، ولكنني بالرغم من ذلك لست واثقة تماماً من الرائحة. فثمة شيء آخر أيضاً"

شعر دنيز أنه سيفقد وعيه إن واصلت أمه الكلام أكثر من ذلك. فاستخدم السلاح الوحيد الذي يملكه لتتركه وحده حتى ولو لدقيقة واحدة.

"إنني جائع بعض الشيء، يا أمي

"بالطبع، يا حبي، بالطبع. دعني أحضر لك شطيرة، اتفقنا؟ جبن فقط. هذا سيساعد على تهدئة معدتك. في الواقع، فشاي النعناع بالليمون مفيد أيضاً، ولكنني لست واثقة بأن لديك نعناعاً في البيت"

"ومن قال لك إن لدي ليموناً؟"

"لا تكن وغداً، يا دنيز. بالطبع ليس لديك ليمون، ولكن قلها بلطف أكثر. اتفقنا، يا حبي؟"

"آسف"

"استرح. وسأعود في الحال"

حاول أن يضع خطة لفترة العصر أثناء وجوده وحيداً، وهذا ما لم يكن سيستمر لوقت طويل. أدرك أنه من غير الوارد أن يتمكن من التملص من الذهاب إلى الطبيب، ولكن خطر بباله أن يعثر على طريقة يمكنه فيها القول إنه ذاهب بمفرده. ففكّر: "هذا صعب، ولكنني سأحاول" تحوّل العرق الذي غطى جسده إلى عرق بارد وبدأ يرتعش. فانقلب على جانبه، وقرّب ركبتيه من صدره، وأخذت أسنانه تصطك. وتذكر الحلم الذي راوده، وفي غضون ثوانٍ استغرق في نوم عميق قلق اختلطت فيه الحقيقة مع الخيال. وضعت السيدة سوزان بطانية على ابنها، وبدأت تنظف البيت، وتتحرك في أرجاء البيت بهدوء. وبعد أن فرغت من التنظيف، خرجت من البيت لتشتري بضعة أشياء بما فيها نعناع وليمون. عندما فتح دنيز عينيه مرة أخرى بعد ساعتين، لم يجد أمه في البيت. فنظر حوله محاولاً أن يتأكد هل أمه أتت بالفعل أم أنه كان يحلم، إلا أنه عندما رأى البيت نظيفاً ورأى شطيرة الجين أدرك أنه لم يكن يحلم. نعم، لقد حضرت فعلاً. وبينما هو يتناول أول قضمة من الشطيرة، دار بخلده أن يخبر أمه كل شيء. وفكّر أنه إن أخبر أمه، فستتولى هي حمل كل تلك المخاوف وستعود حالته إلى طبيعتها ويتخلص من العبء الذي أثقل كاهله. تحولت تلك الفكرة فجأة إلى رغبة ملحّة. فلو دخلت أمه إلى الشقة في تلك اللحظة، لأخبرها على الأرجح بكل شيء بالتفصيل. ماذا ستقول يا ترى؟ أي حل ستقدمه له؟ تخيل أنها ستتصل بالشرطة قبل أن يتمكن من إكمال جملته كما اتصلت بالدكتور إيرول صباح اليوم أو ستأخذه إلى مكان آخر. وبينما كان ينظر إلى الباب قرر أن يخبر أمه كل شيء إن دخلت خلال خمس دقائق، ولكنه أيقن أنه لن يتمكن قط من قول هذا. فهذا سرّ عليه الاحتفاظ به لنفسه طوال حياته. وحتى لو لم يتم

القبض عليه، فقد بات مضطراً لأن يبقى حبيس هذه العزلة إلى الأبد وأن يحمل هذا العبء إلى يوم وفاته. وقبل أن تنتهي مهلة الدقائق الخمس بثوانٍ، انفتح الباب ودخلت السيدة سوزان. فلاحظت الحيرة والتردد على وجه ابنها على الفور. ساعدها دخولها إلى الغرفة بعد أن تجدد هواءها لأن تعثر على الرائحة التي بحثت عنها صباح اليوم؛ رائحة الخوف. تساءلت عن سبب خوف ابنها، ولكنها أدركت أنها إن سألته فلن يجيبها أو ربما يريد أن يخبرها ولكنه يخشى أن يفعل ذلك. جلست بجانب دنيز ببطء وأمسكت بيديه بين يديها وقالت:

"ولدي حبيبي ما من أحد هنا سوانا. سنساند بعضنا البعض إلى الأبد. إن أردت أن تخبرني أي شيء، فيمكنك أن تخبرني إياه. بالطبع لو أن والدك على قيد الحياة، لربما استطاع أن يساعدك أكثر مني. ربما هناك شيء تريد أن تخبره لرجل مثلك، ولكنني جاهزة لمساعدتك. ويمكنك أن تخبرني كل شيء"

"من فضلك، يا أمي، لم لا تخلعين ذلك المعطف؟"

* * *

لم يستطع دنيز أن يستجمع أفكاره في الساعات التي عجز فيها عن النوم، لذلك عجز عن التركيز على المسائل التي أراد أن يحلها، لكنه بقي مركزاً على المسائل التي يريد التفكير فيها، ومن بينها الموعد الذي توجب عليه الذهاب إليه عصر ذلك اليوم. لم تكن هناك سوى وسيلة وحيدة يمكنه بها التملص من موعد الطبيب، وهي التخلص من أمه. أخافته تلك الفكرة التي ربما كانت في الماضي لتضحكه. فقد بات يدرك الآن أنه حالما يرتكب أحدهم جريمة قتل، فلا يعود بوسعه أن يفكر بتلك الأشياء على أنها أفكار عادية أو حتى فكاهة وأن كل حلقة من تلك السلسلة ستتصل بالأخرى

بشكل لاإرادي وتؤدي إلى النهاية المرعبة المحتومة. وبالرغم من أنه حاول أن يتهرب من فكرة قتل أمه ويقنع نفسه أنها مجرد دعابة، فقد استقرت الفكرة في مكان ما في قرارة نفسه. وفوق ذلك، فقد أدرك أن الفكرة ستعاوده في أكثر الأوقات غير المتوقعة ربما عندما يشاهد التلفزيون أو يحاول الاستغراق في النوم. وبدأ الغضب الذي أخذ ينمو في داخله في الفترة الماضية يضيق الخناق عليه من جديد. لماذا خطرت له تلك الفكرة؟ لم يكن من الممكن تدمير فكرة حالما تتخذ صيغة ما ولو لمرة واحد. فكما أنه لا يمكن لأية فكرة لم تخطر ببال شخص ما أن تنفذ، فالفكرة التي يتم التفكير بها تحظى بإمكان دائم لأن تدخل حيز التنفيذ، فهي موجودة على بعد مسافة قصيرة من الشرارة التي ستشعلها. حسناً، لقد دخلت السيدة سوزان إلى الشقة بينما هو يفكر بتلك الأفكار، ولهذا السبب فقد وجدت شيئاً من الإنكار في الرائحة التي شمتها. فأربكتها تلك الصيغة المعقدة، ولكن بدلاً من أن تتعامل معها الآن، حاولت أن تجعل دنيز ينهض ويتحرك ليذهب إلى الطبيب. تبع دنيز أمه وهو يشعر بهزيمة الجسد والروح كأي وقت آخر. امتلأ الجو في الخارج بهواء ثقيل وساد طقس غائم ورطب وحار بعض الشيء بالنسبة إلى يوم ربيعي. ولم تكن حالة دنيز النفسية مختلفة عن حالة الطقس في اسطنبول ذلك اليوم. فقد تملكه شعور يلح عليه من الداخل. وفكّر في أنه إن بكى أو تعرق فقد يتخلص جسمه من كل مشاعره المظلمة. مشى إلى جوار أمه بصمت وكأنه غير موجود وهو مختبئ خلف مرضه. أخذ موظف متجر البقالة ينظر إليهما من أمام متجره. لم يكن ذلك اليوم مختلفاً عن أي يوم آخر، ولكن الانتباه الذي أبداه والفضول في عينيه أزعجا دنيز. ترى ما الذي يعرفه؟ رفع رأسه، ونظر إلى النوافذ، وتساءل

إن بـدأ أهـل الحـي كلهم ينظرون إليه. هل أرادوا أن يشـاهدوا عملية اعتقاله من خلف ستائرهم؟ ماذا عن السيدة سوزان؟ هل هناك سبب آخـر يقـف خلـف ظهورها المفاجئ؟ ظل دنيـز يتمتع ببعض المنطق السـليم ليعثـر علـى إجابـات معقولـة لهـذه الأسـئلة. وبالرغم من أن شعوره بعدم الأمان راح يتنامى داخله، فقد بذل جهده لئلا يصل إلى اسـتنتاجات نهائية. وعندما ركبا سـيارة الأجرة، رد رأسـه إلى الوراء، وأغمض عينيه مستغلاً السكون الذي خيم على السيارة. وعندما كاد أن يستسلم لأفكاره، بدأت السيدة سوزان تتكلم قائلة:

"لنراجع القائمة عندما نعود إلى البيت"

نظـر دنيـز إلـى أمـه بدهشـة، وفمه مفتـوح على وسـعه، وعيناه مضيقتان، ويداه شـبه منكمشـتين. لم يسـتطع أن يصدق أنه حتى في موقـف كهـذا يمكـن لأمـه أن تفكـر بالقائمة، وهي عبـارة عن روتين اعتادا على القيام به منذ طفولته. لم يستطع أن يتذكر بدايته، ولكن لو حاول التنقيب عنه في ذاكرته، لاستطاع على الأرجح أن يعود بذاكرته إلى سن السابعة. فقد أعدت أمه أول قائمة تذكرها على الأقل قرابة ذلـك الوقـت. اعتادت أن تضـع القائمة على طاولة المطبخ المألوفة، وتجلـس علـى أحـد الكراسـي، وتطلـب منه الجلوس على الكرسـي المقابل لها تماماً. وكانت السيدة سوزان تدون كل ما تريد أن تعرفه عن حياة ابنها، كأصدقائه ومدرسته ونشاطاته الخارجية على القائمة، وتجهزهـا سـلفاً لأنهـا لا تريـد أن تنسـى أياً من المواضيع أثناء سـير المحادثـة. واعتـادت أن تطـرح عليه الأسـئلة واحداً تلـو الآخر بينما يجيـب هـو عنها بوضوح قدر المسـتطاع مـن دون أن يفهم ما يجري ظناً منه أن هذه طريقة تسـتخدمها كل الأمهات. حدث هذا وهو في الثامنة ثم التاسعة ثم العاشرة من عمره ثم عندما بلغ الخامسة عشرة.

أحمد

وظلا يجلسان على الطاولة كل أسبوع ليراجعا القائمة. وأصبحت أسئلة السيدة سوزان أكثر خصوصية وتحديداً حتى أرادت أن تعرف كل شيء عن ابنها، ولسوء الحظ لم تكن لديه أية فرصة لخداعها. لم تحاول أن تعرف معلومات عن حصصه ودروسه لأنها تعرفها عن ظهر قلب على كل حال بل أرادت أن تعرف أشياء شخصية أكثر كحياته الاجتماعية على سبيل المثال.

"هل لديك أصدقاء في الصف؟"

"نعم"

"كم عددهم؟"

"خمسة أو ستة على ما أعتقد"

"عم تتحدثون؟"

"لست أدري. عن كل شيء كلاعبي كرة السلة والحصص

"وعن الفتيات؟"

"نعم، عنهن أيضاً"

"هل لديك صديقة مقربة؟"

"كلا"

"هل تعجبك إحدى الفتيات؟"

"كلا"

كان أغرب جزء في تلك العملية، هو أن السيدة سوزان اعتادت أن تضع إشارة صح عندما تحصل على أجوبة مباشرة من دنيز، ثم تنتقل إلى الأسئلة الأخرى دون الخوض في التفاصيل. فإن حصلت على جواب بالنفي كسؤال الفتاة، وضعت علامة نجمة صغيرة بجانب السؤال ثم كررته في الأسابيع التالية. وعندما كبر دنيز، تغيرت أنماط الأسئلة ولا سيما عندما انتقل ليقيم وحده. فأصبحا يراجعان اللائحة

فقط أثناء زيارات السيدة سوزان لابنها ويجريان تلك الجلسة كالمعتاد عند طاولة القهوة في غرفة المعيشة.

"كم مرة في الشهر تغسل ثيابك؟"

"أفعل هذا عندما تمتلئ الغسالة"

"هل تتناول الفطور في الصباح؟"

"ليس كل يوم"

"هل ترتب سريرك في الصباح؟"

"كلا"

"هل تستقبل صديقاتك في البيت؟"

"كلا"

شكّل ذلك الأسلوب عادة فريدة من نوعها لدى السيدة سوزان، فهي لم تقرأ عن هذه الطريقة في الاستجواب في أحد الكتب أو تتعلمها في أي مكان، ولكنها اكتسبت عادة الاحتفاظ بقوائم عن كل شيء في الماضي عندما أنجبت طفلها ووجدت طريقة لانتزاع الأجوبة منه. كما أنها اعتادت أن تضع لوائح مختلفة على البراد، كلوائح بالنباتات التي زرعتها في حديقة منزلها الصيفي عام 1980 على سبيل المثال، حيث يمكن للمرء أن يقرأ عن تطورها في أوراق أخرى معلقة على البراد. وهكذا، لم يكن دنيز يختلف عن أي تجربة شخصية بالنسبة إلى السيدة سوزان. وبينما هما في طريقهما إلى عيادة الطبيب، أخذ يراقبها عن كثب. كيف لم تتمكن من أن تكبح عاداتها القديمة حتى أثناء مرض ابنها. لم يستطع أن يصدق أنها قادرة على التفكير باللائحة في ظل تلك الظروف. وأدرك أن أمه ستضع اللائحة على الطاولة في اللحظة التي تظهر فيها حالته بعض التحسن بعدما قامت بتجهيزها على الأرجح في الحافلة وتوشك أن تنتزع الحقيقة

من حنجرته بينما تراقبه عن كثب وهي ترتشف قهوتها التركية. لم يكذب دنيز على أمه قط ليس لأنه أصدق شاب في الوجود، بل لأن أمه كانت تستطيع أن تشم رائحة الكذب. وبالرغم من أنهما أجريا تلك العملية لسنوات، فقد ظل دنيز يشعر بالتوتر في كل جلسة مع أمه بل حتى يزداد توتراً أكثر من ذي قبل. لم يمنعه شيء من ملاحظة أن آلية التحكم تلك تؤثر عليه أكثر من أي شيء آخر. فقد أجبرته على مواجهة التفاصيل وجهاً لوجه، وهذا ما ضاع في أعماق فكره، ولم يتساءل عنه قط في حضور أمه.

"هل سمعتني، يا دنيز؟"

"نعم"

"هل تريد أن تستخدم الحمام، يا دنيز؟"

"نعم، أرغب بأن أغسل وجهي على ما أعتقد"

"حسناً، إنك تعرف مكانه"

حالما غادر دنيز الغرفة، التفت الدكتور إيرول إلى السيدة سوزان وقال:

"إن الامتحانات النهائية على الأبواب على ما أعتقد، أليس كذلك؟ لذا فالتوتر أمر طبيعي. لاحظت وجود سلوك سلبي عدواني في تصرفات دنيز، لذا أنصحكما باستشارة معالج نفسي   واصل النقر على صدغه وقال: "هذا هو السبب الرئيس، يا سيدة سوزان. بالنسبة إلى كل الأمراض ولا سيما مشاكل المعدة. الآن لديهم تشخيص جديد يقول إن سبب التهاب المعدة أو قرحتها ليس التوتر بل نوع معين من الفيروسات. نحن كأطباء بالطبع يجب علينا أن نتحدث إلى مرضانا حسب الاصطلاحات الجديدة، ولكنني أعرفك منذ سنوات عدة وأعتبرك من أفراد عائلتي. أؤكد لك أننا في غضون عشر سنوات

سنعود جميعاً إلى التوتر. إن ما أعنيه هو أن مشاكل معدة دنيز مرتبطة بالحالة النفسية. إن أردت أن أصف له شيئاً فسأفعل، ولكنه شاب قوي وليس بحاجة إلى الأدوية. من الأفضل أن يستشير طبيباً نفسياً"

"هل تقترح عليّ شيئاً، يا دكتور؟ أين ينبغي أن آخذه؟"

"لديّ صديق. دعيني أعطيك رقمه. تفضلي. اذهبي واستشيريه ودعينا نرى ما سيقول"

* * *

بينما هما في طريقهما إلى البيت في سيارة الأجرة، صم دنيز أذنيه عن أحاديث أمه وثرثرتها. بالرغم من أن التغيير في نبرة صوتها ساعده على التركيز بين الحين والآخر، إلا أنه سرعان ما عاد إلى عالمه الداخلي. فآلاف الأفكار والفشل في الإجابة عنها تعادل بعضها. سئم دنيز من عدم قدرته على التقدم بالأفكار التي ظل يفكر بها مراراً وتكراراً إلى الخطوة التالية. وخاب أمله لأنه عجز عن العثور على حل لأي من مشاكله في حين أن كل حياته كانت تدور حول حل المشاكل. في النهاية، لجأ إلى الحل الوحيد الذي استخدمه طوال الأيام القليلة الماضية وأغمض عينيه. وكان هناك برنامج إذاعي وثائقي على الراديو لنائب الرئيس الأميركي السابق آل غور يتحدث عن الاحتباس الحراري وارتفاع حرارة كوكب الأرض.

12

عندما وصلت الجنازة، اتكأ عيسى على رفشه، وهو ينظر إلى الحشد من بعيد. وكان المتوفى يناهز السابعة والتسعين وربما لذلك السبب لم ير أحداً من المشيعين يبكي أو ينتحب، بل استطاع حتى أن يلاحظ وجود سعادة خفية على وجوه الناس وكأن لسان حالهم يقول: "أخيراً، حان الوقت" بدلاً من أن يقدموا تعازيهم لبعضهم. أيقن أن الجميع سيذهبون إلى بيوتهم ذلك اليوم ويلقون بأنفسهم على الآرائك ويتنفسون الصعداء. كانوا ربما سيشعرون بالألم طوال العام التالي بمقدار الوقت الذي أمضوه وهم يعتنون برجل مسن ومريض وسيستغرقون وقتاً أطول ليدركوا أن أيام الرعاية أصبحت من الماضي.

لهذا السبب، لم تستغرق المراسم وقتاً طويلاً. غادر المشيعون المقبرة في أبكر وقت ممكن بينما أوكلت بقية المهمة إلى عيسى ليتحمل المسؤولية عن مرقد ذلك الشخص الأبدي في عمق ستة أقدام تحت الأرض. وبينما هو يردم القبر بالتراب، ظل يفكر بالمقبرة التي رآها في الليلة الفائتة. وشعر أنه متلهف لرؤيتها في وضح النهار أو ربما للعثور على علامة أو شيء يشير إلى كنهها. وحالما فرغ من عمله، حث الخطى باتجاهها. فلم يعد هناك أي أثر باق للخوف أو للغموض الذي شعر به في الليلة الماضية. وحل محل قرع الطبول في أذنيه صوت زقزقة العصافير. فكّر في نفسه: "يعيش الإنسان حياتين مختلفتين في اليوم. فكل شعور يتملكه خلال النهار يحل

محله شعور مختلف في الليل. وكما تزداد حالة المريض سوءاً في الليل، فإن عقله يصبح أكثر ظلاماً بينما تفقد آماله بريقها" عندما وقف على قمة التلة، ونظر إلى الأسفل، وجد تلك الأرض التي بدت مظلمة في الليلة الفائتة مستسلمة كلياً لذراعي الربيع الأخضر. ولاحت له المقبرة من بعيد. فاستطاع أن يرى الشواهد التي بدت بالغة الصغر. شق طريقه إلى الأسفل ببطء. وبالرغم من أن ساقه القصيرة قد تكيفت مع جسمه طوال سنوات، فلم يستطع مع ذلك أن يجهد تلك الساق المسكينة فوق طاقتها. فقد أدرك أنها تبذل قصارى جهدها، ولكن توجب عليه أن يمتنع عن التهور.

بدت الشواهد فارغة كما رآها في الليل. وفجأة، داهمت القشعريرة جسده. فقد بدا أحد الحجارة أشبه بطفل بلا وجه. لم يعرف السبب في ذلك، ولكنه شعر أن ثمة غصة في حلقه تمنعه من ابتلاع ريقه، وانتابه شعور من الهجران، ليس هجرانه هو بل هجران الناس الذين يرقدون هنا في هذه المقبرة. شعر برعشة باردة تسري في جسده، وارتعدت أوصاله. وخيل إليه أن الشيطان قد زاره للتو. فجلس، وأشعل سيجارة، وحاول أن يدرك حقيقة المكان الذي أمامه. لماذا تركت هذه الشواهد خالية؟ لماذا؟ أيقن أن ثمة شخصاً واحداً يمكنه أن يطرح عليه هذا السؤال.

* * *

فوجئ إمام المسجد لرؤية عيسى الذي اعتاد على رؤيته فقط في وقت صلاة الجمعة.

"آمل أنك تحمل أخباراً سارة بإذن الله، يا أخ عيسى. هل أصابك الملل هناك؟"

"فكّرت في زيارتك"

"فكرة حسنة. لنشرب بعض الشاي معاً. فإن لم أفكّر في شرب الشاي في هذا الوقت من اليوم، أصبت بالصداع. آمل أن كل شيء على ما يرام. صحتك جيدة، أليس كذلك؟"

"نعم، الحمد لله"

"جيد، الحمد لله"

جلسا في صالة الشاي الوحيدة في سيفيلي في ظل أغصان شجرة بارد. لم يعرف عيسى من أين يبدأ الكلام، ولكن لم يغب عن ملاحظة الإمام أن لديه ما يريد قوله.

"إذاً، قل ما تريد قوله"

"ليس لدي ما أقوله، إنما سؤال أريد أن أطرحه عليك"

"تفضل واسأل ولا تشعر بالخجل. خيراً إن شاء الله"

"ذهبت في نزهة في الأنحاء قبل بضعة أيام عندما كان الطقس جميلاً. فنزلت من على قمة التلة التي تقع خلف المقبرة ووجدت مقبرة أخرى هناك، ولكنني لم أستطع أن أعرف ما هي. فشواهد القبور...

"فارغة"

"نعم"

"إن الفضول الذي تتمتع به، يا عيسى، شيء ينبغي على كل مسلم أن يتحلى به. من الجيد جداً أن تسأل عن الأشياء وأن تكتشف أموراً لا تعرفها. إذ إن هذا يساعد الناس على النمو. فإن كان هناك شيء لا تعرفه، ينبغي عليك أن تسأل عنه"

قبل أن يدرك ذلك، وجد عيسى نفسه يصغي إلى محاضرة طويلة تتحدث عما ينبغي على المسلم فعله في حياته. فانتظر بينما ظل سؤال واحد معلقاً في رأسه ولم يكن بيده حيلة. ومع أنه نجح

في الإصغاء إلى نصفها فقط، إلا أن مذاق الشاي المر شغل عقله أكثر مما فعل كلام الإمام.

"والآن، لنعد إلى سؤالك"

وجَّه عيسى انتباهه الذي فقده قبل وقت طويل مرة أخرى إلى الإمام واستيقظ من نوم كاد أن يغط فيه على الرغم من الشاي الثقيل.

"الآن، فإن قصة المقبرة تسير على النحو التالي. في فترة الإمبراطورية العثمانية، كان يوجد جلادون. أنت تعلمت في المدرسة وتعرف ماذا تعني كلمة جلاد، أهذا صحيح؟"

"نعم"

"جيد. اعتاد الجلادون أن يقطعوا رؤوس الناس بناء على أمر من السلطان أو الصدر الأعظم، وهذا يعني أنهم ينفذون حكم الإعدام بمن يثور ضد السلطان أي الخونة والمغتصبين وعديمي الخلق والفاسدين والرجال المنحرفين. وبالرغم من أنهم يعدمونهم بأمر السلطان بالطبع، فلا يزال القتل محرماً في ديننا. ولهذا السبب، فعندما توافي المنية الجلاد، فإنه يدفن وفقاً لتعاليم الإسلام، ولكن لا يكتب اسمه ولا تاريخ ميلاده على الشاهدة لأنه لا يزال يعتبر آثماً. وعلى كل حال، فلم يكونوا يعرفون تواريخ الميلاد في تلك الأيام..."

واصل الإمام الحديث في موضوع مختلف تماماً. ورغم أن عيسى لم يكن مهتماً لبقية ما قاله، فقد واصل الإصغاء إليه على كل حال. وفي نهاية كأس الشاي الثالثة، تحدث الإمام عن أمه التي لم تعرف تاريخ ميلادها قط، ولكن قيل لها إنها ولدت في وقت تبرعم زهور الكوسا.

"زهور الكوسا؟ وما هي، أيها الحاج؟"

"إنها لا تزرع هنا، ولكن في بلدتنا بلدة صالحلي، يكون لثمرة الكوسا زهرة كما تعرف"

"ما لونها؟"

"أصفر

"في أي مكان على الكوسا؟"

"في نهايتها بل على الساق. حسناً، ذلك خلق الله، ولكن ثمار الكوسا تلك ليست كبيرة بل صغيرة بالفعل وطعمها يختلف عن الكوسا التي نعرفها، فهي حلوة المذاق حتى أنك تشعر أن قلبك ينفطر وأنت تتذوقها. نعم، إنها شهية للغاية"

"أين تقع صالحلي؟"

"إنها مقاطعة في مانيزا قريبة من الساحل الغربي، وهي منطقة جميلة وخلابة"

"ظننت أنك من هنا، من سيفيلي

"كلا، لقدومي إلى هنا قصة طويلة، ولكن أظن أنني عندما أتقدم في السن سأعود إلى صالحلي. فهي منطقة جميلة بالفعل ولا سيما في هذا الفصل من السنة. حسناً، فإن براعم الكوسا تزهر في هذا الوقت"

"هل لها رائحة؟"

"ما هي؟"

"زهرة الكوسا"

"كلا، ولكنهم يحشونها بالأرز، وهي شهية جداً"

"حقاً؟ زهور محشية"

"بالطبع، ولكن يجب عليك أن تجيد طهيها جيداً. لا يستطيع كل شخص أن يفعل ذلك. فهي تتطلب الكثير من العمل. يجب

عليك أن تقطف الزهرة بمجرد أن تزهر في وقت مبكر من الصباح إن تمكنت من اللحاق بها. لا يستطيع كل شخص أن يفعل ذلك"

"لم لا؟ كيف تطبخونها؟"

"إنك تختلف عن غيرك، يا عيسى. فعندما يتملكك الفضول، لا تكف عن طرح الأسئلة. انسَ أمر الزهرة الآن. فقد أوشك الليل أن يحل. دعني أدعوك لتناول الفليفلة المحشية"

13

"ظننتك ستخبرني شيئاً يستحق الإصغاء إليه. هذا محض هراء!"

"ولكن، يا سيدي. أنت لا تقدر شيئاً مما أفعله"

"لا أريد أن أسمع عن عيادة تدليك، أيها الغبي

"لم لا، أيها المفتش. إن ذلك الأحمق يدير وكراً للدعارة أمام أنظار الجميع تحت اسم عيادة للتدليك"

"أيها الأحمق! هل تعرف كم يبلغ عدد الأماكن من ذلك النوع؟ لو حصلنا على قرش مقابل كل عيادة تدليك نعرفها لأصبحنا أغنياء. يا لك من غبي! حتى لو ذهبنا واقتحمنا المكان، فلن تأتي إحدى القنوات التلفزيونية وتعرض قصتنا في برنامج السهرة. ليس لديك شيء، أيها الأحمق"

"ولكنك ستندم على ذلك، يا حضرة المفتش

"حقاً؟ كيف؟"

"الكثير من المشاهير يذهبون إلى هناك"

"من؟"

"هناك الممثل أوزدين كافتان، على سبيل المثال، وفارول... ماذا كانت شهرته؟ اسم غريب. لا بد أنك تعرف ذلك الرجل الأشقر الطويل

"حسناً. فهمت. من أيضاً؟"

"وهناك سيلال سينار. تعرف ذلك المطرب صاحب الصوت الجميل"

"لديه صوت جميل بالفعل. يقشعر بدنك عندما يغني. أهذا كل شيء؟"

"أنـت تقتلنـي، أيهـا المفتـش. مـن تريـد أيضـاً؟ البـلاد بأكملها تتحدث عن أولئك الرجال. إنهم كالمشاهير

"هل أنت واثق بأنهم يذهبون إلى هناك؟"

"بـكل تأكيـد، أيهـا الرئيس. إن صديقـة صديقي تعمل هناك في الاستقبال. حصلت على الأسماء منها"

"لا بأس إذاً. سـنلقي نظرة على ذلك المكان. هل لديك شـيء آخر؟"

"مثل ماذا، أيها المفتش؟"

"لا تمارس الألاعيب معي، يا لطفي!"

"أقسم أنني لا أعرف أي شيء آخر. تعرف أنني لم أعد أمارس العمل بعد الآن، ولم أعد حتى أذهب إلى الجامعة"

"اخـرس، أيهـا الأبلـه، لا تكـذب عليّ. قيامـك بالعمل أو عدم قيامـك سـيان بالنسـبة إليّ. حسـناً، أبـقِ أذنيك مفتوحتيـن وابتعد عن المشاكل. بهذا الشكل أستطيع فقط أن أمنعهم من ضربك. لا يمكنني فعل المزيد"

"أؤكـد لـك أننـي نظيـف تمامـاً، يـا سـيدي، ولكننـي مـع ذلك سأخدمك طوال حياتي

"لا تبالغ، أيها الأحمق"

أخـذ لطفـي نفسـاً عميقـاً حالما غادر مكتب مفتش الشـرطة. إذ تبين له بوضوح أنهم لا يعرفون أي شيء عن موضوع أوكان. لو كان بوسـعه أن يصل إلى دنيز ويلتقيه في مكان ما، لطمأنه أن كل شـيء علـى مـا يـرام. فقـد تملك القلـق لطفي قبل بضعة أيـام عندما اتصل

بدنيز فلم يتلق منه أي رد أو اتصال. على كل حال، فهو لم يتعرف عليه حق المعرفة. أدرك أنه شاب هادئ ولطيف، ولكن هذا لم يمنع من أنه ارتكب عملاً خطيراً قد يحدث تغييراً في ردود أفعاله. أيقن أن دنيز لن يرتكب أي عمل أحمق لأنه هو من سيدفع الثمن الأكبر في كل الأحوال. فإن لم يكن مريضاً نفسياً أو، ماذا يسمى ذلك، ماسوشياً، فلا بد أنه سيقفل فمه ويواصل حياته. وفوق كل شيء، فهو لم يرسله إلى البيت وهو يربت على كتفه ولم يوجه له أي تهديد لفظي، ولكن توجب على دنيز أن يتحلى بالذكاء الكافي ليدرك ما تعنيه نظراته. فكر لطفي بينه وبين نفسه قائلاً: "كلا، لن يرتكب أي عمل غبي!" وطمأن نفسه أن دنيز لن يخبر أحداً أي شيء. ومع ذلك، فلم يبعث ذلك راحة تامة في نفسه. ففكر قائلاً: "من الأفضل أن يرد على هاتفه هذه المرة" ولكن ماذا إن لم يفعل؟ خطر بباله أن يذهب إلى الكلية ويبحث عنه هناك، ولكنه هو من أمر دنيز ألا يتجول في الأنحاء. إذاً، فقد وجد أن هناك إمكاناً كبيراً في أنه لم يعد يذهب إلى الكلية. نقب في ذهنه عن طريقة أخرى تساعده في العثور عليه. وعندما فكّر في الأمر ملياً أدرك أنه لا يعرف شيئاً عن دنيز: كمكان إقامته ونمط حياته وأفراد عائلته. وبالرغم من معرفته أن دنيز شاب ودود قليل الاختلاط بالناس، إلا أنه لا بد أن أحدهم كان يعرف أين يعيش. طلب رقم دنيز على أمل أن يتلقى رداً. وبعد ثلاث رنات ثم أربع، سمع صوت امرأة ترد على الهاتف. وبعد بضع دقائق من الصمت، بدأ لطفي يتحدث. فقد شعر أن هناك شيئاً حيال الصوت الذي سمعه على الهاتف يجبره على الحديث.

"مرحباً، هل دنيز موجود؟"

"كلا، إنه ليس موجوداً الآن. أنا أمه. من المتصل؟"

"أنا صديقه"

"ما اسمك؟"

"لطفي. إن قلت له أن يتصل بي، فسأكون ممتناً لكِ"

"بالطبع سأفعل ذلك. هل تود أن أبلغه أية رسالة؟"

"كلا، شكراً لك"

"يوماً سعيداً، يا بني

بعد أن أنهى المكالمة، استعاد المحادثة في ذهنه مرة أخرى. لم يستشعر أي نبرة فزع في صوت أمه. فلو أنه أخبرها، لتحدثت بنبرة مختلفة وربما لارتعش صوتها أو أجهشت بالبكاء. لا بد أن مشاعرها كانت ستظهر من خلال نبرة كلامها. وفي تلك الحالة، لم يعد هناك سبب لأن يتصل به دنيز لأنه حصل على الرسالة التي يريدها. فقرر أن يهدئ من أعصابه وينتظر إلى أن يتلقى المكالمة.

شعر بالفضول لأن يعرف كيف ستنتهي قصة عيادة التدليك. فقد تصرف مفتش الشرطة وكأن الأمر لا يعنيه في شيء، ولكن إن سلطت الأضواء إلى وجوه أولئك المشاهير، فكل المدينة ستتكلم عن تلك العملية التي نفذتها شرطة اسطنبول. ومع ذلك، فقد ظن أنه من الأفضل له لو يعثر على شيء أكثر إثارة بقليل للمرة المقبلة.

قابل لطفي مفتش الشرطة للمرة الأولى قبل ثلاث سنوات أثناء شهوره الأولى في العمل عندما كان عديم الخبرة وشديد الحماسة ومتلهفاً للعمل مع جميع الزبائن. ذات ليلة، وبينما هو يحاول أن يعد المال في محفظته ليرى كم جمع لذلك اليوم في أحد شوارع بيوغلو الخلفية، اقترب منه أحدهم وسأله إن كان بحوزته بعض الممنوعات. وكان لطفي يحمل في جيبه رزمة أحضرها لأحد الزبائن ولكنه لم يأتِ لأخذها. فتفاوضا على السعر لبعض الوقت، ولكن لطفي كان

يشعر بالتعب ويتوق للذهاب إلى البيت لنيل قسط من الراحة، لذا أعطى الرزمة للرجل بأرخص من السعر المعهود. وفي تلك اللحظة، أدرك كيف عرف الرجل أنه تاجر ممنوعات من آخر الشارع. أما بولينت، وهو من أشد الرجال خبرة في المخدرات، فقد سر غاية السرور للقبض على لطفي قبل أن تصل دوريته إلى نهايتها بلحظات. فجره من ذراعه إلى مقر الشرطة وهو يبتسم ابتسامة عريضة. وعندما دخلا، وجدا المفتش يدخن سيجاراً وهو متكئ على الطاولة. فنظر إلى بولينت وإلى الفتى النحيل صغير الحجم الواقف بجانبه بعناية ثم فتح محفظته وقال: "أيها الوغد"

"لقد سرقت المال"

"قلت لك، أيها المفتش، ألا تقلق. فهناك الكثير من هؤلاء الأوغاد في اسطنبول. لن تصدق ذلك. لم يتوجب علي حتى أن أبتعد أكثر من ثلاثة شوارع. فقد أمسكت بهذا الوغد خلف المقر مباشرة. تنظر إليه من على بعد 300 قدم وتدرك ما ينوي عليه هذا الأحمق. لا يمكنه حتى أن يقف باستقامة وهو يقحم رأسه كله داخل محفظته. هل جنيت مبلغاً محترماً، يا رجل؟"

"لا بأس به، يا سيدي"

ضحك المفتش من كل قلبه عندما سمعه يقول "لا بأس فالتفت الجميع إليه.

"إنه أحمق، أيها الرئيس، كما ترى"

"أنت محق، يا بولينت، ولكنه ظريف. ليس سيئاً، أليس كذلك؟ كم بالضبط؟"

طرح هذا السؤال على لطفي مباشرة. أما لطفي من جهة أخرى، فلم يدرك ما يجري. وبالرغم من أنه عرف إلى أين أحضره الشرطي

وفهم ما قد يحدث له، ولكنه لم يبدُ خائفاً على كل حال. فالتفت إلى الرئيس وهو مذهول.

وقال: "لست واثقاً، يا سيدي، ولكن يمكنك أن تنظر في المحفظة إن شئت، ولكنني أقسم أنني لا أقوم بأي عمل سيئ. الناس هم يشترون بضاعتي، ولكنني لا أجبرهم على شرائها. انظر إلى هذا الأخ على سبيل المثال. أترى؟ لم أتفاوض معه حتى، يا سيدي. أعني أنني نظرت إليه وفهمت ما يحتاج إليه. فقلت له إنني سأعطيه هذه وهو سيعطيني ما يناسبه. صحيح؟ هذا أشبه بمنح الدواء للمرضى. إنني حقيقة لا أنوي أي شر

تلك الصفة التي ميزت لطفي، والتي جعلته محبباً للجميع، خطرت كذلك ببال المفتش. فقد أعجبه ذلك الفتى الذي بدا مثيراً للشفقة من اللحظة التي فتح فيها فمه وراقت له الطريقة التي روى فيها لطفي القصة بمنتهى البساطة وكيف أنه لم يزعج نفسه بتملقه. تم القبض عليه بسبب تهوره على كل حال لأنه لم يكن إلا واحداً من بين مئات التجار في الخارج الذين لم تكترث الشرطة لأمرهم قط، ولكن لا بد أن الحظ لم يحالفه كغيره هذه المرة. وبدلاً من اعتقاله وتحويله للمحاكمة، زج به وراء القضبان لتلك الليلة وطلب من رجال الشرطة ألا يضربوه. وقال: "دعوه وشأنه. إن هذا الأحمق في حالة تمنعه حتى من أن يدرك أنه يتعرض للضرب" وعندما أتى إلى المقر في اليوم التالي، أطلق سراح لطفي، وجعله يجلس مقابله، وطلب له كوباً من الشاي. أيقن المفتش أن ذلك الفتى يعمل على نطاق ضيق، ولكنه لم يستبعد أن يبني لنفسه اسماً كبيراً في المستقبل.

"إنك تدرك أنني سأطلق سراحك بسهولة كبيرة هذه المرة. هل لديك العديد من الأصدقاء؟"

"حسناً، نعم لدي أصدقاء، يا سيدي"

"هذا جيد. افتح أذنيك وعينيك جيداً. لا تخبر أحداً بما حدث الليلة الماضية. ومن الآن وصاعداً، تعال وقابلني مرة كل شهرين أو نحو ذلك لأرى إن تمكنت من جمع معلومات يمكنني الاستفادة منها. لا تحاول أن تتوارى عن الأنظار. فأنت تدرك أنني أستطيع العثور عليك، وهذا لن يفيدك في شيء. ليس لدي شيء ضدك ولن أسألك عن أي شيء الآن؛ من أعطاك تلك البضاعة أو ما شابه. إنني واثق من أنك ستخبرنا إن عثرت على معلومات مهمة، لذا اخرج واعرف من يشتري البضاعة ومن أين وما هي وأين يبيعونها. أفهمت؟ هل تصغي إلي؟ افتح عينيك. ولا تعرض نفسك للاعتقال مرة أخرى"

"حاضر، يا سيدي"

استند المفتش إلى الوراء، وأطلق ضحكة كبيرة مرة أخرى.

"إذاً، فالمبلغ ليس سيئاً، أليس كذلك؟ تعرف أنك شاب مضحك. حسناً، اخرج من هنا ولا تدعني أر وجهك قريباً"

منذ ذلك الحين، أصبح لطفي يذهب لمقابلة المفتش مرة كل بضعة أشهر ليس في المقر ولكن في أي مكان يتواجد فيه ويشرب الشاي معه أثناء المقابلة. وبالرغم من انشغاله الدائم بصفقاته معظم الوقت، فلطالما حرص على أن يخبر المفتش فقط الأشياء التافهة التي تساعد قوة الشرطة على تحقيق نجاحات صغيرة في تاريخها الطويل. وأيقن أن المفتش حسبه يعمل تاجر مخدرات على نطاق ضيق وأنه يعرف الكثير من الناس ولكن ليس التجار الكبار. على سبيل المثال، لم يعرف قط أنه ابن أخت حامد. فقد نجح لطفي في التكتم على ذلك السر بالرغم من أنه تمنى أن يتبجح به بين

الحين والآخر. إذ إن حامداً شكّل دائماً لغزاً محيراً لشرطة اسطنبول. فقد كان من الواضح أنه رجل من دائرة المافيا وأنه دائم التورط بالنشاطات الإجرامية ومتواجد في كل مكان، ولكن لم يستطع أحد بالضبط أن يضع علامة عليه لأنه من أولئك الرجال الذين يمشون على الثلج من دون أن يتركوا أي أثر يدل عليهم. ولم يكن ليفعل أي شيء يمكن أن يستخدم ضده في أماكن يمكن رؤيته فيها. وحتى لو نشب شجار كبير في أحد النوادي وطارت الرصاصات في المكان، فلم يكن أحد يرى حامداً يفعل أي شيء أو يتحرك قيد أنملة. فقد كان يخرج من المكان بكل هدوء ويداه في جيبيه وسيجارته في فمه وكأن لديه سترى واقية من الرصاص ويختفي. ولم يكن شخصاً فظاً أيضاً. فإن أدلى أحدهم بملاحظة من نوع ما، وهذا من غير المحتمل، أدار وجهه وحسب إلى الجانب الآخر. لطالما اعتنى بلطفي، ولكنهما غالباً ما امتنعا عن التواجد في مكان واحد. فإن حدث ذلك، لم يتحدث حامد عن العمل بل أخذ يروي له قصصاً ممتعة سمعها من صديق مجهول. بالنسبة إلى لطفي، بات ذلك الصديق أشبه برجل مقدس. لم تكن لديه فكرة كيف أصبح ذلك الرجل الذي يعرف كل تلك الأشياء عن العالم والحياة صديقاً لخاله. فخيل إليه أنه أستاذ في الجامعة أو شيء من هذا القبيل. ولذلك السبب، أطلق لطفي على ذلك الصديق المجهول لقب "الأستاذ" إن أراد أن يتحدث عنه. فكلما أخبره حامد شيئاً عنه، سأله: "هل أخبرك الأستاذ بهذه القصة؟" فأجابه حامد: "نعم وأصبح هذا السيل من المعرفة ينتقل من الأستاذ إلى حامد ثم من حامد إلى لطفي ثم يجد طريقه إلى الطلاب في الكلية عندما يذهب لطفي إليها.

كان لطفي يعرف أن خاله يجني مبالغ محترمة من المال ولولا

ذلك لبدا من المستحيل لخاله أن ينفق كل ذلك المال على النساء في النوادي والأماكن المكلفة. ولطالما أدرك أن خاله يتمتع مثله بالصفة نفسها التي تجعله محبوباً من الآخرين لأنه اعتاد أن يراه برفقة أروع النساء في بعض الأحيان. ليس من العدل القول إن حامداً كان محبوباً وحسب لأنه كان أيضاً شديد الوسامة وطويل القامة ويتمتع ببنية قوية. فاعتبر لطفي أن هذا هو الفرق بينه وبين خاله والسبب الذي جعل جاذبيته تنجح مع مفتش الشرطة وليس مع النساء.

أخرج الهاتف من جيبه، وتفقد ورود أية مكالمات فائتة. أيعقل أن يتلقى مكالمة دون أن يسمعها؟ لم يعثر على أي إشارة من دنيز. فقال محدثاً نفسه: "عندما قلت لك ألا تخرج وتتجول في الأنحاء لم أقصد ألا تجيب حتى عن مكالماتي، أيها الأحمق؟" ترى هل أخبرته أمه باتصالي؟ هل ينبغي علي أن أتصل به مجدداً؟" في النهاية، أزعجه شعوره بالتوتر. فقال محدثاً نفسه: "هدئ من روعك. هل حدث أي خطب حتى الآن؟ لقد التقيت بالمفتش قبل خمس عشرة دقيقة فقط. هل تحدث عن شيء من هذا القبيل؟ كلا. هل هناك أي خبر في الصحف؟ كلا. هل هناك أي شيء تخشاه؟ كلا. ما الذي يوترك إذاً؟"

14

ذاع صيت حامد على أنه من أخطر القتلة المأجورين في المنطقة، ولهذا السبب فقد تمنى الكثير من الناس التعامل معه، ولكنه فضّل الالتزام بالأشخاص الذين يضعهم على لائحته منذ وقت طويل. بالإضافة إلى ذلك، وبالرغم من أن اسطنبول مدينة كبيرة جميع من فيها يظنون أنهم من عصابات المافيا، ولا سيما في السنوات الأخيرة، فالرجال الموجودون في لائحته هم فقط الذين مدوه بالصفقات الرابحة. أما الباقون، فقد اعتبرهم مجرد أشخاص عفنين لا يصلحون لشيء. في عالمه، من المهم العمل مع المحترفين. فمن الأفضل العمل مع رجل يستطيع السيطرة على غضبه ويعرف ما يقول ومتى وأين ولا يتورط بأعمال متهورة. وهذا ما جعل حامداً يضع شرطاً لكل زبون يتعامل معه، وهو أن يكون على دراية بطرق اسطنبول حتى لو لم يكن من المدينة نفسها. لم يستطع حامد قط أن يطيق أولئك الرجال الذين يهاجرون إلى مدينته من المدن الصغرى من دون أن يفهموا قوانينها ولكنهم يظنون أن أسلحتهم هي التي تعطيهم أهمية. لم يكن يكرههم وحسب وإنما يود خنقهم لو يستطيع إلى ذلك سبيلاً. فلطالما أزعجه اعتبارهم لأنفسهم ملوك العالم لمجرد كسبهم لبعض المال. في الواقع، تلك المهنة تتحكم بها قواعد أشد ثقلاً بكثير من غيرها وتستغرق الكثير من الوقت ليصبح المرء مشهوراً. إذ يجب عليه أن يعرف التقاليد، وأن يتحلى بالأخلاقيات الملائمة ولا يمكن له أن يتصرف بلسان حال يقول: "أنا أملك المال، وهذا يعني أنني

أسيطر على المدينة"

هناك سبب واحد. لا بد أنها رفضت عرض أحد الرجال المهمين. هذا ممكن. فالوقوع في حبها أمر بغاية السهولة. ماذا غير ذلك؟ ما الذي يمكن أن تكون قد ارتكبته غير ذلك؟ هل يستحق الأمر قتل امرأة لأنها رفضت شخصاً ما؟ بالطبع لا، ولكن الحب يمكن أن يجعل الإنسان يرتكب أي شيء. ألم تخطر بباله أفكار جنونية كثيرة حولها؟ ألم يفكر في أن يرسلها إلى مكان بعيد على متن إحدى الطائرات ويأمرها بألا تعود أبداً؟ نعم، ولكنه عرف أن عمله لا يسمح له بارتكاب خطأ من ذلك النوع. فإن فعل ذلك، ما عاد بوسعه أن ينجو بنفسه على الإطلاق. وإن خيب أمل زبون من ذلك النوع، بات مصيره مجهولاً. وبالإضافة إلى ذلك، فهو لم يكن يحب أن يضع ثقته الكاملة بالنساء. فقد ترسلها إلى أميركا، وتنفق كل أموالك عليها، ثم تعود وتتمشى في أنحاء المدينة وتطعنك في الظهر. هل ذلك يستحق المخاطرة؟ كلا. هل أراد أن يخفف عن نفسه بتكرار تلك الأفكار أم أنه اقتنع بها؟ لم يكن واثقاً بالجواب. لم يعد حامد يعرف إلى أي مدى سيبقى يمارس ذلك العمل. لا يحظى من يزاولون مهنته بتقاعد كما لا يحظون بأي تأمين أو منزل رعاية أو حق بالاستقالة. وفي الواقع، فهم لا يموتون بشكل طبيعي عندما تحين منيتهم. فكل قصص حياتهم تبدو مقدرة من قبل، وهذا يجعلهم يبدون متشابهين: خطأٌ غير متوقع في وقت غير متوقع ورصاصة غير متوقعة ونهاية متوقعة جداً. لم تَجُل تلك الأفكار بخاطره إلا بعد أن أمضى عشرين عاماً في هذه المهنة. ولو أنه عمل موظفاً حكومياً في الوقت الذي بدأ فيه، لأوشك الآن على التقاعد. إن أراد أن يتخلى عن العمل في حالته هذه في غضون خمس سنوات، توجَّب عليه أن

يسـافر إلى منطقة نائية، ويختفي من دون أن يعلم أي شـخص. ففكر في السـفر إلى كندا، ولكن عيسـى قال له إن الطقس شـديد البرودة هناك. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن يجيد لغتها، وهذا ما يجعله يعجز عـن التواصـل مـع أحـد ويعانـي من وقت عصيب في سـنه هذا وهو يعيش وحيداً في بلد أجنبي. سـمع ذات مرة عن ولاية في الولايات المتحدة اسـمها نيوجيرسـي أخبره عنها عيسـى وقال له إن الكثير من الأتـراك يعيشـون فيهـا وإنها تحوي مقاهي تركيـة حيث يلعب الناس بالـورق. ففكـر فـي الذهـاب إلى هنـاك، ولكنه لم يجـد فكرة العيش وسـط الأتـراك فكـرة جيـدة. فلطالما قال: "إن العالـم صغير، لذا فلا يعـرف المـرء مـاذا يمكن أن يصادفه. ماذا إن صادفت شـخصاً أعرفه هناك؟ سأقع في مصيبة كبيرة. وعندئذ، سيتوجب عليّ أن أتعامل مع الحكومـة الأميركيـة. وكأن أميركا تنتظرني مفتوحة الذراعين! ولكنني واثق بأنني سأجد طريقة للذهاب إلى هناك. وفي أسوأ الاحتمالات، يمكننـي أن أذهـب كسـائح وأبقـى هنـاك" وفوق كل شـيء، كثيراً ما تحدث عيسـى عن المكسـيك. ذات يوم، اسـتمع إلى الراديو لقصص شـعبية عن المسـنين فيها وفتن بما سـمعه، وظل لوقت طويل يتخيل نفسـه هناك يعيش بين شـعب المايا. وقال لحامد: "يقال إن المكان جميل جداً هناك والطقس لطيف. إنني واثق من أن المكسيكيين شعب ودود ومحـب. لا أظـن أنهـم مختلفـون عنـا" وعندما فكّر حامد في هذا، فوجئ عندما أدرك أنه لم ير مكسيكياً في حياته بأكملها، وقال لنفسه: "هناك مئات الجنسيات في هذا العالم. يقال إن اثنتين وسبعين جنسـية تعيش في اسـطنبول. فكيف يحدث أن جميع من أراهم هم مـن الأتـراك والأكـراد فقـط" تذكر حامد مكسـيكياً واحـداً فقط رآه فـي فيلـم قديـم علقت صوره في ذاكرته طوال هذا الوقت وعانى من

وقت عصيب في محاولة تذكر اسمه، ولكنه تذكره في نهاية المطاف، واسمه وقت الذروة. حسناً، لقد وقع في حب تلك المرأة المكسيكية طوال حياته وبات يعتبرها فتاة أحلامه. أما تلك الفتاة الشقراء التي لعبت دور زوجة المأمور، فقد وجدها فتاة غبية وبلهاء ومن النوع الذي يقلل من قيمة الرجل. أياً يكن الوقت الذي بدأ فيه يحلم بالمكسيك والنساء المكسيكيات، لم يستغرق منه الأمر وقتاً طويلاً ليعود إلى وعيه ويعرف حق المعرفة أنه ليس بوسعه الذهاب إلى أماكن لا يعرفها. فقد شعر أن شجاعته تشبه مشعاع سيارة معطلاً يجعل الماء يغلي في المسافات البعيدة. جعلته مجرد فكرة الامتناع عن التدخين طوال تلك الساعات على متن الطائرة يفقد صوابه. فلم يكن لديه صديق أفضل من سيجارته. فإن لم يتمكن من الحصول عليها، أصبح أشبه برجل مسن أرمل مرتجف اليدين. وبينما هو يفكر في ذلك، أشعل سيجارة. لقد بدأ يدخن منذ أن بلغ العاشرة من عمره. فخطر بباله أن تلك العادة اللعينة هي ربما ما سيقتله قبل أي شيء. وبين الحين والآخر، كان يصيبه في منتصف الليل سعال شديد إن لم ينهض ويشعل سيجارة. لم يستطع أن يتخلص منها أيضاً. لا بد أن رئتيه أصبحتا مدمنتين على السجائر لدرجة أن الترياق المعالج لإدمان السجائر بالنسبة إليه هو سيجارة أخرى.

* * *

بينما راحت تلك الأفكار تراود حامداً وهو جالس في متنزه يلدز، تلقى مكالمة هاتفية كان بانتظارها. فقبل عشرين دقيقة، رن هاتفه، ولكن الزبون اضطر لأن يغلق الخط ليحل حالة طارئة أخرى وقال لحامد إنه سيعاود الاتصال به. وهكذا، فلا بد أنه انتهى الآن، لذا أجاب حامد على المكالمة.

"نعم، أيها الرئيس

"تعال الليلة لنتحدث، يا حامد. ثمة مسألة معقدة"

"في المقهى، أيها الرئيس؟"

"انتظر لحظة"

سمع حامد صوت حفيف. فلا بد أن الزبون غطى سماعة الهاتف بيده. وسمع صوت شجار يدور بين أصوات مكتومة صادرة من السماعة أو أن الرئيس بالأحرى أخذ يصيح على شخص ما وسط اعتراضات ذلك الشخص. فبدأ حامد يراقب امرأة شابة معها طفل رضيع جالسة على المقعد قبالته بدلاً من أن يصغي إلى الكلام. تفقدت المرأة المكان من حولها ثم أنزلت بلوزتها لترضع طفلها، لذا غير حامد موقعه وهو يشعر بعدم الارتياح. هل توجب عليها فعلاً أن ترضع طفلها الآن في وسط المتنزه؟ لم يكن ذلك المتنزه من أكثر الأماكن أمناً في المدينة. فما الذي قد يجعل امرأة تأتي وتكشف عن صدرها وترضع ابنها. مع ذلك لم يكن الإزعاج الذي أصابه نابعاً من موضوع الأمان، فقد أثار المنظر بحدّ ذاته اشمئزازه وعجز عن النظر إليه، ولكن من ناحية أخرى لم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إلى الطفل وهو يرضع. تملكه عدم الارتياح لأن يشهد طمع الطفل وحتى علاقته الحميمة مع أمه. وبالرغم من أنه ظل يبعد الفكرة عن ذهنه، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير أنه استلقى على حضن أمه ورضع منها وهو صغير حتى أثار هذا اشمئزازه وأصابه ببعض الغثيان. وعندما لم يعد يحتمل أكثر، نهض وبدأ يمشي بعيداً عن الطفل وأمه. وفي تلك الأثناء، أصبح الصوت على الجهة الأخرى من الخط واضحاً مجدداً.

"نعم، تعال إلى المقهى

"بالطبع"
"نعم"
بعد أن أنهى المكالمة بدأ يمشي نازلاً التلة وهو يقول لنفسه: "يا له من متنزه جميل! ولكن لا يمكن رؤية أحد هنا تقريباً. ما الذي تتوقعه؟ إنها مليئة بالعصابات اللعينة؟ ليست فكرة سيئة أن تستولي المافيا على الأمن. لتعلن عن ذلك ثم تراقب كيف يأتي الناس إلى هنا كل يوم" رأى بضعة أشخاص جالسين بجانب مدخل المتنزه ومر بجانب عائلة يشرب أفرادها من أباريق شاي أحضروها معهم. خلَّف الحديقة الخضراء وراءه، وألقى التحية على الحارس الواقف عند البوابة. كان الربيع في اسطنبول لهذا العام مختلفاً تماماً بالرغم من أنهم لم يكونوا يتمتعون به بل ينتقلون من الشتاء إلى الصيف مباشرة. خطر بباله أن يذهب في بضع نزهات طويلة سيراً على الأقدام قبل أن تبدأ الرطوبة. فكّر في نفسه: "عندما تبدأ الرطوبة، تتمنى الموت. فلا يمكنك حتى أن تتنفس. وتشعر بالتعب وبعدم الرغبة بفعل أي شيء. كل هذا بالإضافة إلى توتر الأعصاب. فكل المدينة تفقد عقلها. ولا يمكن للمرء أن يلمس أحداً في المواصلات. فالكل يصبح مستعداً للقتل مشى إلى اليمين متجهاً إلى حي بشكطاش ليحضر سيارته التي ركنها هناك في أحد الشوارع. ومع ذلك، فقد وجد أن الوقت لا يزال مبكراً للذهاب إلى موعده وأن بوسعه أن يمضي الوقت هناك في مكان ما، ولكن تبقى أمامه ثلاث أو أربع ساعات. ما الذي يسعه أن يفعله غير ذلك؟ وبالرغم من معرفته للكثير من الناس، إلا أنه لم يستطع القول إن أياً منهم صديقه. فلم يكن بوسعه أن يدعو أحدهم للذهاب إلى مكان ما لتناول الطعام أو أن يبوح له بما في قلبه أو يطلب منه نصيحة. فقد شعر أنه محبوس في عالمه الخاص وأن

نفسيته لا تختلف عن نفسية السجان. اعتاد أن يصادف أشخاصاً يفرطون في الشرب وأن يجاذبهم أطراف الحديث لساعات، ولكن إن فكّر في أحاديثهم في ما بعد أدرك أنهم بالكاد قالوا شيئاً ذا معنى وتملكته خشية من أن يفضح يوماً ما كل المشاعر التي تختلج في داخله ويبوح بأسرار كل الأعمال التي اقترفتها يداه. وعندئذ، فهناك غمامة سوداء وثقيلة كالقطران كانت ستخيم على العالم. وفي تلك اللحظة فقط، أدرك أنه سيصبح نظيفاً وسينجلي هذا الدخان الكثيف من حنجرته.

بوجود كل هذا المتسع من الوقت بين يديه، وجد أنه من الأفضل لو يذهب إلى بيلرباي. فلا بد من أنه كان سيعثر على شخص هناك في حديقة الشاي يلعب معه بالنرد ليمضي الوقت. وقال في نفسه: "إنني أفضل الأوغاد في بيلرباي على العصابات في بشكطاش نظر إلى الساعة ووجدها تشير إلى الخامسة والنصف عصراً. ففكر في أنه إن تحرك بسرعة تمكن من أخذ العبَّارة بدلاً من عبور الجسر بالسيارة، لذا حث الخطى. وعندما وصل إلى الساحة، شاهد الركاب يبدؤون بالصعود. فأسرع قليلاً وهو يقول: "ترى هل سألحق بها؟" ودخل المحطة مسرعاً. فوجد الرجل الواقف أمامه في الصف يعد القطع النقدية في يده واحدة تلو الأخرى. ومع أن ذلك الشخص لم يبد على عجلة من أمره. إلا أن موظف قطع التذاكر وحامد انتظراه بفارغ الصبر لينتهي من هرائه. وأخيراً، حان دور حامد فأخذ التذكرة وتوجه إلى الطريق الرئيسة ومر عبر الأبواب المغلقة وهو يشفط معدته إلى الداخل. فاكتشف أن العبَّارة قد سبق وأرخت الحبال وبدأت تمخر عباب الماء، ولكن لم يفت الأوان بعد. عندما وصل أخيراً إلى العبَّارة، قفز مسرعاً وهو يظن أنه سيحتاج إلى بعض الوقت

ليتعافى ويلتقط أنفاسه. فوضع قدمه اليمنى ليعتمد عليها ثم أتبعها باليسرى. وعندما أصبحت قدماه واقفتين سوية على سطح العبَّارة، راح يتأرجح إلى الأمام والخلف وهو يحاول أن يعثر على توازنه وعندما أوشك أحدهم أن يمسك بيده سقط في النهر على ظهره.

كان أول شيء فعله في المياه هو أنه تفقد وجود محفظته في مكانها ثم تأكد من مسدسه آمناً تحت إبطه. وماذا عن هاتفه المحمول؟ في حزامه، ولكنه أدرك أنه تعطل. أخذ يشتم قائلاً: "تباً!" فراح كل الناس في العبَّارة وعلى الرصيف يضحكون ملء أفواههم. وبينما هو يحاول أن يبقى على سطح الماء، تساءل كم مضى من السنين منذ آخر مرة سبح فيها. وعندما سحبه شخصان خارج الماء، قال لهما: "لم أسبح طوال السنوات الثلاث الماضية. والآن، افتتحت الموسم فضحك الرجال وقالوا: "ستصل العبَّارة التالية في غضون نصف ساعة، أيها الأخ. تعال واشرب الشاي على حسابنا"

* * *

بعد نصف ساعة، ركب حامد العبارة التالية والماء لا يزال يتقاطر من بنطاله وسترته. صعد على متن العبّارة قبل بقية الركاب. وبدلاً من أن يستمتع بشرب فنجان من الشاي وتدخين سيجارة على ظهر العبّارة، ذهب إلى زاوية منعزلة في الداخل لئلا يصاب بالبرد. فنظر إليه الناس نصفهم يكتم ضحكه والنصف الآخر يتمنى له السلامة. فلم يأبه حامد لنظراتهم بل طلب فنجاناً من الشاي وجلس يتأمل النهر من النافذة. لطالما شكّل المسدس بالنسبة إليه علامة تدل على إنجاز مهمة ما على خير ما يرام كأنه مقياس للحرارة. فقد كان مسدسه، الذي اعتاد أن يخفيه في غمده بالقرب من قلبه دوماً، يظل محتفظاً بحرارته بعد أن يتم إطلاق النار منه لبعض الوقت ويمنحه

شعوراً تحت السترة بأن المهمة أنجزت على أكمل وجه. مع ذلك، فقد شعر حامد الآن بمسدسه بارداً كالثلج بالطبع لأنه تبلل بالماء، ولكن تملكه شعور بارد خفي وغير مألوف. بعث هذا الشعور الخوف في نفسه ككل الخرافات التي تنتابه بين الحين والآخر. هل تلك إشارة ما؟ لم يكن حامد يمر تحت سلم أو يفتح مظلته أو يدع أحداً يفتح مظلته داخل البيت. وإن أدرك أن ثمة قطة سوداء على وشك أن تعبر طريقه، غيَّره في الحال أو يبذل وسعه ليعبر قبلها وربما فكّر في سحب الزناد وإطلاق النار على الهرة. والآن، نبَّأه هذا الشعور البارد في صدره أن يتوخى الحذر، ولكن إلى أيّ حد يمكنه أن يثق بهذه الإضافة الجديدة لمخزونه من الخرافات؟

قبل قليل كانت أمامه ساعات يريد أن يضيعها، ولكن الآن أصبح لديه الكثير ليقوم به في غضون مدة قصيرة. فقد توجب عليه الذهاب إلى البيت وتغيير ملابسه وشراء هاتف محمول جديد. ولحسن الحظ، فقد سقط في الماء بعد أن اتصل بالرئيس ولم يتوجب عليه التعامل مع هذا النوع من المشاكل. ترجَّل من العبّارة والقلق يملؤه بسبب هذا التحول غير المتوقع للأحداث ثم ركب سيارة أجرة. من الواضح أن حالته أثارت تعجّب السائق. فقد حاول ونظره مركز على مرآة الرؤية الخلفية أن يسأله عن تفاصيل سقطته. ها ها ها... إذاً فقد سقطت يا أخي... هذا لا يصدق. ومع ذلك، فقد حالف الحظ ذلك السائق. فمسدس حامد بات معطلاً. وإلا، فلم تكن إلا مسألة وقت بالنسبة إليه قبل أن يتعرض لإطلاق النار في مؤخرة رأسه.

* * *

استيقظ عيسى ووجد نفسه غارقاً في عرقه. لم يراوده أحد تلك الأحلام منذ وقت طويل ربما منذ انتقل إلى المقبرة. استيقظ بهذا

الحالة للمرة الأولى في حياته وهو طفل قبل وفاة جدته ببضعة أيام. ومع ذلك، فلم تسنح له الفرصة للقفز إلى سرير والديه ليتخلص من الخوف ولم يركض أحد إلى سريره ليعطيه كأساً من الحليب ويقول له إن جميع الناس يعانون من الكوابيس ويطمئنه أن كل شيء على ما يرام. تذكر تلك الليلة والحلم الذي رآه فيها بشكل جيد. ففي ذلك الحلم، رأى نفسه متقمصاً شخصية جدته. فتحت المرأة العجوز عينيها في وقت مبكر من الصباح وهي تشعر ببعض الألم في صدرها وتعاني من ضيق في التنفس. فجلست في سريرها. وكانت ترتدي قميص نوم أبيض طويلاً. شعرت بعطش شديد، وفكّرت في أنها ستشعر بتحسن لو تسنى لها أن تشرب كأساً من الماء. نهضت على قدميها بصعوبة، ومشت خطوتين، ولكنها أدركت أنها لا تملك القوة على المضي قدماً لذا تشبثت بالجدار، ووقفت هناك لبعض الوقت. وشعرت بقفصها الصدري يضيق أكثر بمرور كل ثانية. وأصبحت تشعر بالألم كلما تنفست. أدارت رأسها، ونظرت إلى سريرها، وفكرت إن كان من الأسهل أن تعود، ولكنها وجدت أن فكرة المضي نحو الطاولة أسهل من العودة إلى السرير بما أنها وصلت إلى هذا الحد. فخطت بضع خطوات أخرى وهي متشبثة بالجدار وكادت أن تصل، ولكنها شعرت الآن بقطرات العرق تسيل على جبينها وتذوقت طعم الملح على شفتها العليا. وفي تلك اللحظة، داهمها ألم شديد في ذراعها اليسرى التي لا زالت تتشبث بالجدار. وعندما سحبت ذراعها بشكل لاشعوري، تخاذلت ساقاها، فسقطت على الأرض. أرادت أن تصرخ طلباً للمساعدة، ولكنها عجزت عن الكلام. فقد سيطر عليها ألم لم تستطع أن تقارنه بأي شيء آخر. شعرت بأسنانها مطبقة وبحنجرتها مقبوضة. وبمرور كل ثانية، ضعفت قدرتها على التنفس. حاولت

لمرة أخيرة أن تسحب بعض الهواء، ولكن لم يعد هناك أي ممر له، ثم شعرت بألم شديد للمرة الأخيرة قبل أن تغمض عينيها.

في اللحظة التي انتهى فيها حلم جدته، فتح عيسى عينيه. وعندما جلس في سريره، عانى من صعوبة في التنفس ووجد جبينه وظهره وذراعيه مغطاة بالعرق. واستغرق بعض الوقت ليتخلص من الألم في ذراعه اليسرى. وتلاشى الإزعاج في صدره وحل محله شعور بالحزن. كانت تلك المرة الأولى التي يراوده فيها حلم بهذه الصور الحادة والواضحة. بعد وقت طويل، استطاع أن يستغرق في النوم مرة أخرى. وبالرغم من من صغر سنه فقد أدرك معنى ما رآه. فقد فارق الحياة متقمصاً جسد جدته. وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، لم يجد من يقص عليه حلمه. استمرت حياة العائلة كعادتها بينما ظل هو منسياً في زاوية من زوايا البيت. دفع نفسه للخارج زاحفاً إلى الوراء، فرأى المرأة العجوز تتحدث إلى النساء الأخريات في القرية وهي تبدو على ما يرام وشعرها مغطى جيداً تحت وشاحها. ترى هل ستكشف عن شعرها لو طلب منها ذلك؟ هل بدا شعرها طويلاً ورمادياً كما رآه في حلمه؟ كان عيسى يعرف أنه كذلك ليس لأنها كشفت وشاحها ولكن لأنها ماتت بعد حلمه بيومين. ومن خلال المحادثات التي انتشرت بين الناس في القرية، اكتشف أنه تم العثور على جدته ميتة على الأرض في الصباح ويدها اليمنى تمسك بذراعها اليسرى. وقال الطبيب من معمل التكرير الذي اتصلوا به عندما وصل إن المرأة توفيت إثر أزمة قلبية، وهذا يعني أن جدته ماتت كما رآها في الحلم بحذافيره.

في السنوات التالية، زارت روح "السوروس"، التي يقال إنها روح السمع والإصغاء والتي تحمل الناس إلى عالم الأحلام على

غيمة، عيسى عدة مرات. فلم يحلم بالموتى وحسب بل بحوادث صغيرة وإصابات وأشياء تحدث في معمل التكرير. حلم بكل أنواع الأشياء. وفي بعض الأحيان، راودته أحلام عن سيارة مدير معمل التكرير الجديد أو عن زيادة في الأجور يحصل عليها الناس. وبالرغم من أن بعض أحلامه تحقق، إلا أن بعضها الآخر بدا بعيداً كل البعد عن الواقع. وعندما بدأ لا يلقي بالاً لتلك الأحلام بعد الآن، تضاءل اهتمامه بها ثم قلَّت رؤيته لها. في الواقع، شعر أنه قادر على التواصل مع نفسه من خلال هذه الأحلام. ولو أنه بذل المزيد من الانتباه، لاكتشف ربما ما سيجري له في المستقبل، ولكنه لم يجد ذلك أمراً يستحق القلق ولم يبد اهتماماً لمعرفة المستقبل.

لم تعد تراوده أي من تلك الأحلام ولا سيما منذ انتقل إلى سيفيلي باستثناء الكوابيس التي راودته في بداية الأمر. إذ لم تكن تبقى لديه الطاقة الكافية لأن يحلم في نهاية اليوم على أية حال. ولهذا السبب، فعندما استيقظ ووجد نفسه غارقاً بالعرق، خيم الحزن على قلبه كأنه ضيف غير مرغوب به حل عليه في وقت غير متوقع. لم يعرف كيف يفسر ذلك الحلم أو ما يفعل حياله. ترى هل هو من الأحلام التي تتحقق أم لا؟

أراد أن ينساه ويمحوه من ذاكرته، ولكن عقله ظل يكرره مراراً وكأنه لا يزال عالقاً فيه. رأى نفسه نائماً في منتصف الليل. وفجأة، رن هاتفه. فوجد أن المتصل هو حامد. لم يكن يرد على المكالمات الهاتفية في وقت متأخر من الليل، ولكن توجب عليه أن يرد. لم يعرف كم مرة رن الهاتف قبل أن يسمعه ويستيقظ. رد وسمع صوت حامد متهدج وهو يعاني من صعوبة في الكلام. قال حامد: "إنني قادم إليك في السيارة. سأصل في غضون عشر دقائق" ارتدى عيسى ثيابه

وخرج وبيده الضوء الكشاف. وحاول أن يعثر على مكان بين القبور في مكان ما خارج لائحته. وبدأ يقرأ الأسماء واحداً تلو آخر. لم يعرف السبب الذي دفعه لقراءتها ولم يرغب بفعل ذلك أيضاً، ولكن عينيه وعقله لم تعد تطاوعه. فراح يقرأ كل اسم والسنة المكتوبة تحته ثم ينتقل إلى الشاهد التالي ثم الذي يليه وفي النهاية يبدأ من جديد. حاول أن يتوقف، ولكن عجز عن ذلك، فهو لم يختر مكاناً بعد. ظل يدور حول نفسه داخل المقبرة على غير هدى ثم شعر بالدوار، وبدأت كل الأسماء والتواريخ تختلط مع بعضها. وفي تلك اللحظة، شاهد ضوء سيارة يقترب منه. لم يكن حامد يشعل ضوء سيارته قط، ولكن ربما نسي. فأسرع عيسى إلى المدخل بفزع. وفجأة، اكتشف أن ساقه لم تعد أقصر من الساق الأخرى وأنه بات يجري كإنسان طبيعي. تملكته بهجة عارمة وأراد أن يصرخ بأعلى صوته من فرط السعادة وأن يصيح: "لقد كان ذلك كله مجرد حلم سيئ" ومع ذلك، فقد احتفظ بسعادته لنفسه لعلمه أن الصوت المرتفع يبدو أعلى في الهواء الطلق. ترجَّل حامد من السيارة متعثراً. فرأى عيسى الدم يتقاطر من ذراعه اليسرى أولاً ثم لاحظ رطوبة على سترته. ووجد جنبه الأيسر كله ملطخاً بالدم. فتسمر في مكانه من الدهشة. كان الرجل يعاني من الألم، ولكنه لم يستطع أن يحدد شدة ألمه. ذهب إلى حامد ووضع ذراعه على كتفه وساعده على المشي بخطوات بطيئة ثم أجلسه على مقعد بجانب حجرته. في تلك الليلة، لم يكن هناك ما يضيء ذلك العالم الفسيح كله سوى ضوء القمر. عندما سحب سترة حامد، رأى صدره بالكامل حتى بطنه غارقاً بالدماء. أدرك أنه لم يكن بوسعه أن يتصل بسيارة إسعاف أو أن يطلب مساعدة من أحد. نظر إلى حامد بعينين ملؤهما التساؤل. فابتسم له حامد بضعف وسأله عن حالة

جرحه. وقال له: "هل يمكنك أن تنظفه؟ إنه ليس كبيراً جداً على ما أظن" لا بد أنه ظن أن بوسعه النجاة من الموت. نظر إلى عيسى وهو لا يزال يبتسم ورفع له يده السليمة. وبعد أن صمت للحظة، أشار إلى ساقه، وقال: "انظر! ساقك لم تعد قصيرة بعد الآن" "نعم"، قالها عيسى والدموع تملأ عينيه. لم يعرف إن كان يبكي من الحزن أن من السعادة. فقال حامد إنها احتاجت فقط لبعض الوقت لتشفى وإنه بات بوسع عيسى الآن أن يشتري لنفسه بنطالاً جديداً. "سنذهب معاً. سأشتري لك بنطالاً جديداً وفوقه سترة جديدة ثم سأدعوك إلى العشاء في ساراي"، ولكن حامداً أغمض عينيه المتفائلتين في تلك اللحظة إلى الأبد.

تلك هي نهاية حلم عيسى: حامد جالس على كرسي تحت ضوء القمر وعيسى واقف بساقيه المتساويتين. عندما استيقظ، اختلطت لديه مشاعر الحزن بالفرح. فطوال كل تلك السنوات، كانت تلك أول مرة يحلم فيها أن له ساقاً طبيعية. وللمرة الأولى، جرب بنفسه ما يعنيه شعور الإنسان الطبيعي. إذاً، فذلك هو الشعور بأن يملك المرء القدرة على الركض وعلى الوقوف متوازناً.

نظر إلى هاتفه بعينين خائفتين وهو لا يزال جالساً في سريره على أمل ألا يرن. وعندما عاد للنوم ثانية بعد بضع ساعات، ظلت إحدى أذنيه مرهفة بانتظار سماع المكالمة، ولكن الهاتف لم يرن في تلك الليلة ولا في ليلة أخرى.

15

لـم يمـض وقـت طويـل على حضـور والدة دنيـز، ولكن صبره سـرعان ما بدأ ينفد. فقد بات من المسـتحيل بالنسـبة إليه أن يحظى بلحظـة يمضيهـا بمفـرده فـي بيتـه. فأينما ذهب وتحـرك، واجهته أمه بأسـئلتها. لمـاذا لـم يذهـب إلى الكلية؟ لماذا لم يسـتعد للامتحانات النهائية؟ هل تم طرده من الكلية؟ وهددت بأن تتصل بشؤون الطلاب وتعرف منهم الحقيقة إن لم يخبرها. فكلما انتهى سؤال، طرحت عليه سؤالاً آخر. فأدرك للمرة الأولى كم كانت أمه عنيدة وصعبة المراس ويصعـب إقناعهـا، ولكنـه ربمـا بدأ يواجه الحقيقـة التي لم يرغب أن يتقبلها لسـنوات. تمكن على الأقل من التملص من مراجعة اللائحة حتى تلك اللحظة بحجة المرض، ولكنه لم يعرف إلى متى سيتمكن من تجنبها. تعمدت أمه الدخول إلى غرفة المعيشة بضع مرات ويدها في جيبها لتؤكد على وجود اللائحة فيها، ولكن المسألة تأجلت عدة مرات بسبب مشاكل معدة دنيز الحقيقية.

إن نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر السيدة سوزان، فقد كان لها كل الحق في الشـعور بالارتباك. فهي لم تدرك قط من قبل أن ابنها مفعـم بهـذا القـدر من الغضب. فقد اكتشـفت أنه تحول إلى شـخص مختلف، وأن ذلك الشاب اللطيف المحبب قد اختفى، وحلت مكانه تلك القنبلة الموقوتة الجاهزة للانفجار. خطر ببالها إمكان معاناته من مرحلـة مراهقـة متأخـرة. فقد مر ابنها بمراهقة هادئة بالمقارنة بأقرانه. ولـم تتذكره يصرخ أو حتى يعترض ولو لمرة واحدة. ولطالما اعتبرت

نفسها سعيدة الحظ لأن تحظى ليس فقط بذلك الاحترام وتلك السلطة على ابنها بل أيضاً بالصداقة التي بنتها معه طوال سنوات. بعد أن فقدت زوجها بشكل خاص، وفي الوقت التي ظنت فيه أن الظروف ستتعقد في وجه ابنها، أظهر دنيز قدراً كبيراً من النضج اعتبرته بمثابة نعمة كبرى. والآن، حاولت أن تفهم ما تعنيه تصرفات ابنها. فربما بدأ الآن فقط يحزن لموت أبيه. وبالإضافة لذلك، فدروسه لم تكن سهلة، وهذا ما شكّل ربما ضغطاً مضاعفاً عليه. ومهما حاولت أن تربط ألمه بسبب منطقي، فلم تستطع أن تفهم الدافع الذي جعله ينفجر في اليوم الفائت بعد أن ردت على هاتفه. فبينما كان دنيز في الحمام بسبب مشكلة في أمعائه هذه المرة، ردت السيدة سوزان على الهاتف من دون تفكير عندما رن. فسمعته يصيح قائلاً: "لا تردي" في اللحظة التي ردت فيها. ترى ما الذي دفعه لذلك التصرف؟ ربما تعرف على صديقة جديدة، وهذا ما كان ليسعد السيدة سوزان. إذاً، ماذا إن ردت على الهاتف؟ لسوء الحظ، لم تكن تلك صديقته على كل حال. وعندما أغلقت الخط، رأت دنيز واقفاً عند باب غرفة المعيشة ويده على حزامه. وتبين لها أنه غادر الحمام على عجل ثم راح ينظر إليها برعب. صاح ابنها في وجهها للمرة الأولى في حياته. ويا له من صياح! سألها دنيز عن السبب الذي جعلها ترد على الهاتف بجمل طويلة عديمة المعنى. فقالت: "حسناً... حسناً... لن أرد على الهاتف مرة أخرى" مع ذلك، لم يظهر دنيز دلالة على أنه سينسى الموضوع. فكانت السيدة سوزان هذه المرة هي من حبست نفسها في الحمام لتتجنب الشجار معه. جلست على غطاء كرسي المرحاض وهي تحاول أن تستجمع أفكارها. ما الذي سبب كل ذلك الغضب؟ ما الذي جرى لابنها؟ والأهم من ذلك، هل توجب

عليها أن تشعر بالقلق؟ لم يكن الجواب عن سؤالها بهذه الصعوبة كما اكتشفت. في اللحظة التي خطر فيها الجواب ببالها، شعرت أن صاعقة ضربتها. بالطبع! كيف لم تربط بين الأمور من قبل؟ فوجئت بغبائها وجهلها؛ هي من يقول الناس إنها ذكية. حسناً، بالطبع، لقد أيقنت أن المرء في بعض الأحيان يرى كل عناصر حل اللغز موجودة أمامه ولكنه مع ذلك يظل عاجزاً عن تركيبها مع بعضها البعض. هذا هو ما حدث لها. ألم تكن هي من خامرها شك بوجود ميول غير سوية في شخصية ابنها؟ ألم تحصل على جواب بالنفي كلما سألته عن وجود صديقة في حياته طوال الوقت؟ كل مرة كانت تضع علامة نجمة أمام ذلك السؤال، ولكنها قررت عن عمد أو بشكل لاشعوري ألا تتعامل مع النتيجة. لطالما خطر ذلك الموضوع ببالها، ولكنها لم تطرحه أو تواجهه من قبل. كيف يمكن لشاب من مثل سن ابنها ألا تكون له صديقة؟ طوال سنوات، ظنت أنه ربما يخفي عنها الحقيقة، ولكنها أدركت أن دنيز لم يكذب عليها في حياته قط. ربما فعل ذلك في يوم طبيعي، ولكن ليس عندما يراجعان اللائحة. لا بد أن ما سبب حالته الراهنة هو التغيير الذي يمر به. ربما أدرك دنيز طبيعة شخصيته مؤخراً فقط. ما اسم ذلك الشاب الذي اتصل؟ لطفي. نعم، لقد شعرت بوجود سمة غريبة حيال نبرة صوته، كما أنه لم يبدأ بالحديث على الفور بل انتظر بضع ثوان. ولاحظت تردداً غامضاً في كلامه. ترى هل شكّل ذلك مشكلة؟ أهذا هو ما سبب تلك الرائحة؟ رائحة الخوف. هل اعترت الخشية دنيز من أن يعترف بالحقيقة لأمه أو حتى لنفسه؟ لم تنكر السيدة سوزان أن هذا أمر من الصعب التعامل معه، لهذا السبب حاولت لسنوات أن تتجاهله وتتصرف بلا مبالاة حياله وكأنه غير وارد الحدوث، ولكن إن ثبت أن

ذلك صحيح فعلاً، فقد توجب عليهما العثور على حل. كلا، لم تفكر بمعالجة ابنها وتغيير طبيعته. فقد أدركت أن هذا غير ممكن. وتذكرت آلاف المقالات التي قرأتها عن هذا الموضوع، وأدركت الآن فقط أنها خزنتها في مكان ما في عقلها. فإن تبيَّن أن ابنها يعاني من مشكلة فعلاً، فقد توجب عليه أن يواجه حقيقته ويبني حياته عليه ويتعلم أن يعيش بسعادة. قررت السيدة سوزان أن تقف بجانبه وهو يخوض تلك الخطوات، وذلك مؤكد، ولكن توجب عليها بداية أن تعرف كيف تطرح تلك الفكرة. فكّرت في أن أفضل حل هو مراجعة الطبيب النفسي الذي اقترحه عليها الدكتور إيرول. وبتلك الطريقة، ربما كان دنيز سيكتشف الحقيقة بروية وحذر ويتعامل مع مشكلته بحكمة. دفنت السيدة سوزان وجهها بين يديها وهي تفكر بالأيام العصيبة التي تنتظرها وتنتظر ابنها. ودعت الله أن يمنحها القوة لمواجهة تلك المشكلة رغم تخوفها من لفظ اسم الجلالة في الحمام خشية العبث بقدسيته. أدركت أن الناس في بيئتها الاجتماعية لم يصبحوا مستعدين بعد للتعامل مع أشخاص من مثل حالة ابنها، ولكن لم يكن أمامهم أي شيء يفعلونه حيال هذا. تملكها أيضاً شعور غامض بالذنب لأن دنيز ابنها. إذ قيل إن لهذه الحالة علاقة بالجينات. ترى هل هي من أورثته هذه الصفة بالوراثة؟ لفترة قصيرة من الزمن، قامت بتحليل ميولها في شبابها وقيمت اهتمامها بالرجال إلى أن حررت نفسها من الشعور بالذنب.

16

بعد أن واصل دنيز الصياح في وجه أمه لبعض الوقت، استعاد هدوءه مرة أخرى. فقد أدرك أن أمه قد صمت أذنيها عن صياحه، وتاهت في أفكارها الخاصة. أخذ يلوم نفسه أنه ترك هاتفه بين يديها. هل نسي طبيعة شخصية أمه؟ هل نسي أنها أكثر الناس فضولاً على الإطلاق؟ إن الحقيقة التي عجز عن إنكارها هي أن أمه هي من تسببت له بالمرض. فقد سئم من لوائحها وتعليقاتها على الأشياء وتظاهرها بأنها أكثر الأمهات تفهماً في العالم في حين أنها ليست كذلك. لم يعد يتمنى سوى أن يحظى بشي واحد، وهو أن يُترك وشأنه. كيف يسع المرء أن يفكّر في شكل ملائم إن تعرض لكل هذا الضغط؟ أراد أن يعرف إن كانت الشرطة تتعقّبه أم لا. ترى لماذا عاود لطفي الاتصال به؟ ما الذي أراده؟ لو أن القضية أغلقت وانتهت، لما تبقى أي شيء يمكن للطفي أن يريده منه، ولكن كلا... كلا... كان ثمة خطأ ما. وظل الشيء الوحيد الذي عجز دنيز عن فهمه هو لماذا لم تأتِ الشرطة بعد لاعتقاله. أيعقل أنهم لم يكتشفوا مكان إقامته بعد؟ كان ذلك ممكناً. إن لم توزع الشرطة صورته على كل متجر بقالة وطبيب في المدينة، فذلك ممكن. تساءل في نفسه إلى متى سيستمر هذا الكابوس ومتى سيتمكن من العودة لمزاولة حياته الطبيعية. أدرك أنه سيرسب في جميع امتحاناته في نهاية الفصل الدراسي. نعم، فذلك مؤكد، ولكن هل كان ذلك سيهمه طالما أن

كل شيء سينتهي على ما يرام. إن توجب عليه أن يدرس سنة إضافية، فأسوأ شيء سيضطر للتعامل معه هو إلحاح أمه، ومن المؤكد أنه بات معتاداً عليه. فقد كانت ستزعجه في كل الأحوال. فإما أن تزعجه بسبب الدراسة أو بسبب أي شيء آخر، فتلك المرأة لم تكن تلتزم الصمت قط. فقد علقت حتى على الطريقة التي يتقيأ بها، وهذا ما أصابه بالفضول. فأي أم تقف فوق رأس ابنها وهو يتقيأ ولا تكتفي بذلك بل تستمر بالكلام. على الأقل، لم تعط أمه عنوانهما للطفي. فقد استمرت محادثتهما وقتاً قصيراً ولم يدر فيها ما يمكن للطفي أن يستغله ضده. لو تمكن من الذهاب إلى شقة أوكان مرة أخرى ليحضر تلك الورقة الصغيرة، لشعر ببعض الراحة، ولكن أيقن أن ذلك أمر غير وارد. إن عرفت الشرطة هوية القاتل ومع ذلك لم تتمكن من العثور عليه، فقد توجب عليه مواصلة التزام البيت. ألقى نفسه على الأريكة وهو متعب. كان التلفزيون يعرض برنامجاً وثائقياً آخر عن النمور في قناة ديسكفري. من يحب النمور إلى هذا الحد ويشعر بالفضول حيالها إلى هذا الحد لدرجة تجعله يعد كل هذه البرامج الوثائقية عنها؟ لم يتحدث البرنامج عن فصيلة القطط بشكل عام، وهذا ما يمكنه تفهمه، بل عن النمور دون غيرها. لذلك السبب، بدأ يتابع البرنامج. ما الشيء المهم حيال هذه المخلوقات على أية حال؟ قد يكون سر الحياة برمتها مخفياً في طريقة حياتها، من يدري؟ بعد أن ظن نفسه لبضع دقائق فقط سيحظى ببعض السلام والسكينة، خرجت أمه من الحمام ويداها في جيبيها. بدأت تمشي نحوه وهي تبدو قلقة بشكل واضح وهناك آثار غامضة للتعاطف على وجهها. جلست على الكرسي المقابل له، وراحت تحدق إليه. فنظر دنيز إليها بتعبير وجه

يصيح في أعماقه: "ماذا؟ لنر أي هراء ستتحدثين عنه الآن. كيف ستعلقين على مشاهدة برنامج وثائقي على التلفزيون؟ هل يسعني أن أنتبه لأي شيء آخر أثناء وجودك؟ هل ينبغي علينا أن نتحمل هراء بعضنا البعض طوال الوقت. لست أدري ما الذي تريدينه؟ ما الذي تريدين مني أن أفعله؟ هل تريدين أن أخرج وأعرض نفسي للاعتقال؟ من يدري ما الذي يشمه أنفك الآن؟" انتظرت السيدة سوزان وكأنها سمعت كل كلمة قالها ابنها في نفسه ثم بدأت تتحدث.

فقالت: "لقد اقترح الدكتور إيرول، كما تعرف يا حبي، أن نذهب لاستشارة طبيب نفسي

"كلا، لا أعرف. لم أسمع بشيء من هذا القبيل"

"حسناً، لقد ناقشنا الموضوع أثناء وجودك في الحمام. فقلت لك أثناء عودتنا إلى البيت. هل تتذكر؟"

"كلا"

"ربما لم تصغ إليّ"

"ربما"

لم تغب عن ملاحظة السيدة سوزان بالطبع نبرة التحدي في صوت ابنها. ولم تكن في وقت آخر لتسمح له بالاستمرار بالتحدث بهذه اللهجة، ولكنها قررت اليوم أن تحافظ على هدوئها لأنها وجدت الوقت غير مناسب لإثارة أعصابه.

"نعم، من الواضح أنك لم تصغ إليّ. لا بأس بذلك. فأنت مريض، ولكنك تصغي إليّ الآن، صحيح؟"

فوجئ دنيز عندما سمحت له أمه أن يتحدث كما يحلو له من دون أن تحذره للمرة الأولى. وكان الشيء الطبيعي الوحيد في حياته

في تلك الأيام هو طريقة تصرف والدته المعهود، ولكن أسلوبها الآن أصاب توازنه بالخلل وتسبب له بعدم الراحة. فأراد أن يعرف إلى أي حدّ يمكنه الوصول معها. ترى هل ذلك وقت مناسب لأن يختبرها فيه؟

"إنني أشاهد برنامجاً وثائقياً الآن. أيمكننا أن نتحدث في وقت لاحق؟"

"عم يتحدث هذا البرنامج الوثائقي، يا حبي؟"

"عن النمور"

"أعتقد أن ما نتحدث عنه الآن أكثر أهمية من النمور. إنني واثقة من أنهم سيبثونه في وقت آخر وعندئذ يمكنك مشاهدته"

عودة إلى الواقع! شعر دنيز بشعور شبيه بالراحة. فعلى الأقل، عادت أمه إلى طبيعتها. ربما تحملته مرة واحدة، ولكنها لم تعتزم أن تكررها مرة أخرى.

"نعم، إنني أصغي إليك"

"كما قلت لك، الدكتور إيرول يظن أنه ينبغي علينا أن نستشير طبيباً نفسياً"

"لماذا؟ ما المشكلة التي أعاني منها؟"

فكّر دنيز في نفسه: "بالطبع. ينبغي أن أذهب لأستشير طبيباً نفسياً. هذا بالطبع أفضل وقت لذلك. إن الشيء الوحيد الذي أحتاج إليه الآن هو استشارة طبيب نفسي" وبينما هو يحدث نفسه بهذا الكلام، راح يتنفس بمشقة ويتحسس وجهه بعصبية. ومع ذلك، فإن كانت استشارة الطبيب ستساعده على إسكاتها، فلم يجد الفكرة سيئة بالفعل.

"كلا... كلا... ليس السبب هو أنك تعاني من مشكلة. ومع ذلك، فبعد أن فقدت والدك، لم نتحدث حيال هذا الأمر لأنك أبديت سلوكاً ناضجاً جداً في الواقع، ولكن الدكتور إيرول يظن أنك تعاني الآن لأنك لم تواجه الحزن في ذلك الوقت كما أن دراستك صعبة وتشكل ضغطاً عليك بالطبع. ولهذه الأسباب، نظن...

عندما فكّر دنيز في الأمر ملياً، لم يجد الفكرة غير منطقية على الإطلاق. فقد كانت أمه بهذا الشكل ستتوقف على الأقل عن إزعاجه وهو يمر بتلك المرحلة العصيبة. فإن اعتبرت أن لحالته علاقة بالحزن الذي لم يواجهه، فلم لا يدعها تفكر في تلك الطريقة؟ وبالإضافة لذلك، فقد أدرك أنه إن رفض هذه المرة فلن تتوقف أمه عن الكلام إلى أن تحول حياته إلى جحيم ووجد أن أفضل شيء هو عدم المرور بهذه التجربة وإسكات أمه.

"حسناً، لم لا؟"

هذه المرة، كان دنيز هو من أفقد أمه توازنها لأنها هيأت نفسها لسماع رد بالرفض. نظرت إليه بعينين ملؤهما الدهشة. من الواضح أنه لم يعد يحتمل بعد الآن وأنه بات يشعر بالحاجة إلى التحدث مع شخص ما. فقالت لنفسها: "كيف عجزت عن ملاحظة هذا حتى الآن. أي نوع من الأمهات أنا؟" وقبل أن تواصل حديثها لنفسها عن مشكلاتها النفسية، عادت إلى الموضوع. فلم يكن رد دنيز الإيجابي ليمنعها من إلقاء خطبتها الطويلة المحضرة بكل إتقان. فحدثته عن فوائد العلاج وعن تجاربها الشخصية وتجارب الآخرين وكيف أن الجميع بحاجة إلى هذا العلاج بين الحين والآخر. استطاع دنيز بواسطة خبرة سنوات أمضاها مع أمه أن يعرف في أي جزء من

مناجاتهـا الذاتيـة يمكنـه أن يصم أذنيه. وبالرغم من مقته لنبرة صوت مقـدم البرنامـج الوثائقـي وتعليقاتـه والانفعال فـي صوته وهو يصف الشـجار بين النمور، فقد ركز معه قدر المستطاع. قالت أمه إنها لم تكن تعرف أن رائحة دماء الكلاب تشبه رائحة دماء البشر. فهل هناك يا ترى فرق بين رائحة دماء الحيوانات ودماء البشر فعلاً؟

17

بعد أن بدّل حامد ملابسـه، وارتدى طقم ملابس مختلفاً، علّق بنطالـه وسـترته وقميصـه المبللـة على حوض الاسـتحمام. شـعر أن مزاجه قد تغير كلياً خلال الساعات القليلة الأخيرة. فلم يعد هناك أي طائـل مـن الذهـاب إلى بيلرباي بعد الآن. فقد فات الأوان. بالإضافة إلى ذلك، فقد توجب عليه أن يشـتري هاتفاً محمولاً جديداً قبل أن تغلق كل المحلات أبوابها. رفع رسـغه ورد رأسـه إلى الوراء ليتفقد سـاعة يده. وكان قد اشـتراها قبل بضعة أشـهر. فحمد الله أن البائع أصر يومئذ أن يبيعه ساعة مضادة للماء.

اكتشـف أنـه أصبـح يعاني من صعوبة متزايدة في قراءة السـاعة عـن قـرب، وهـذا يعنـي أن بصـره بدأ يضعـف. لم يكن قارئـاً نهماً. فـي الواقـع، فالكتـب الوحيدة التي قرأها هي كتب المدرسـة. واعتاد أن يقـرأ الصحيفـة بيـن الحين والآخر علـى الأغلب ليتفقد وجود أية أخبار تتعلق بالحلقة المحيطة به من الناس، وينظر إلى النعي ويتجاوز الباقي. كان قليلاً ما يقرأ، ولكنه أدرك أنه بات بحاجة إلى نظارة حتى من أجل أقل النشاطات الهامة التي تتطلب النظر إلى شيء عن كثب. أدرك أن الحياة تزداد تعقيداً بشكل واضح كلما تقدم المرء في السن.

لـم يكـن يعـرف الكثير عن التقدم بالسـن، فهـو لم يصادف في حياته نماذج كثيرة. إذ إنه فقد والده وهو لا يتجاوز السابعة من عمره. حـدث ذلـك فـي أول يـوم من أيام المدرسـة بعـد أن أوصلته والدته وقالت له إنها ستأتي لتأخذه عند الظهر، وطلبت منه أن يأكل شطيرة

الجبن التي أعطته إياها عندما يجوع في وقت الاستراحة. وعندما انتهت الحصة الثالثة، بدأ يشعر بالجوع ربما بسبب الرائحة المنبعثة من تحت مقعده. فبدأ يأكل حالما رن جرس الاستراحة. وعندما وصل إلى وسط الشطيرة، شاهد عمته واقفة عند باب الصف بعينين تكسوهما غشاوة. ورأى المعلمة تربت على كتفها بلطف وتقول لها شيئاً يُعبّر عن أسفها. تقدمت عمته منه وساعدته على حمل حقيبته. وبينما هو يغادر الصف، لاحظ نظرات الشفقة في عيني معلمته. وبالرغم من صغر سنه، أدرك أن ثمة خطباً ما. فقالت له عمته إن والده توفي وهو في طريقه إلى البيت. لم تبدُ نبرة صوتها موحية بالمحبة أو التفهم، فهي لم تكن على الأرجح تحاول أن تقي ابن أخيها وقع الصدمة. وعندما وصل إلى البيت، وجده مكتظاً بالناس. فلم يستطع أن يدرك كيف يستطيع الناس أن يسمعوا بالخبر ويصلوا إلى البيت في هذه الفترة الوجيزة. وعندما تقدم من أمه وسط الحشد، لم يترك حقيبته عند الباب بل جرها وراءه من دون أن يأبه لعدد الجوارب التي سيفسدها. وجد أمه جالسة وسط حلقة كبيرة من الناس وهي تبكي وتضرب ركبها. وعندما شاهدت حامداً، جذبته إلى صدرها وراحت تبكي حتى بصوت أعلى وهي تقول: "لم تأخذهم رحمة بنمري الصغير لم تأخذهم به أية شفقة" لم يفهم حامد ما يعنيه كل هذا الكلام، ولكنه أدرك أن خطباً مريعاً قد حدث. ترى ما الذي تعنيه كلمة رحمة؟ وبينما هو واقف بين ذراعي أمه وحقيبته بيده، نظر حوله ومن خلال النظرات المصوبة نحوهما، تملكه شعور بفداحة موقفهن ولكن صغر سنه جعله لا يدرك ما يعنيه الموت ويعجز عن الشعور بالأسى بالرغم من فيض المشاعر الذي ملأ المكان من حوله. ومرت به أوقات لاحقة فكّر فيها بأبيه، ولكن بما أن أباه لم يكن من النوع

الـذي يعبـث بشـعر ابنه ويقول: "ما الـذي يجري مع بطلي الصغير؟" فلم تنجرف أفكاره نحو الشوق والحنين قط.

كانت أمه قد توفيت في ريعان شبابها كوالده. فقد فارقت السيدة ميفلايد التي أنجبت حامداً في مقتبل عمرها وهي لا تزال فتية أيضاً. وبالرغم من أن حامداً فقدها وهو في العشرين من عمره، إلا أنه أدرك عندئذ ما يعنيه البكاء وضرب الركبتين. ومع ذلك، لم يعد يتمتع بحرية إظهار مشـاعره لأنه أصبح رجلاً. ولـم يمضِ وقت طويل حتى اعتاد على فكرة غيابها. عندما ماتت أمه، لم تكن التجاعيد قد غزت وجهها بعد ناهيك عن أن تستعمل النظارة. وهكذا، فلم يستطع الآن أن يدرك ما يعنيه أن يكبر المرء في السـن ويجرّب حياة الشـيخوخة. بالإضافة إلـى ذلـك، فهـو لـم يفكر في الأمر حتى تلـك اللحظة. جعله انتماؤه لعائلة مات معظم أفرادها في مقتبل العمر يتخيل نفسـه سـيموت إثر نوبة قلبية، ولكن ربما يكون التقدم في السن قدره ومصيره.

* * *

لـم يكـن متجـر بيع الهواتـف المحمولة يقع في مكان بعيد، لذا تمكن حامد من الوصول إليه قبل أن يغلق أبوابه.

"مرحباً، يا أخ حامد. أهلاً بك"

"شكراً، يا علي. ما الأخبار؟"

"بخير والحمد لله. كنت سأغلق أبوابي مبكراً الليلة كما تعرف. إذ إننا مدعوون إلى العشـاء في بيت والد زوجتي. فقلت لنفسـي لم لا أغلق المحل مبكراً؟ أرأيت، لا بد أنني أدركت أنك قادم. تفضل، يا أخي. كيف يسعني مساعدتك؟"

"إنني بحاجة إلى هاتف جديد. فقد سقط هاتفي في الماء"

"آه، يـا للأسـف! لقـد كان هاتفاً جيداً جـداً، هذا مؤكد. أتدري

إنهم لم يعودوا يصنعون النموذج نفسه بعد الآن. أهو معك الآن؟"

"نعم، تفضل وألق نظرة عليه. لا أظن أنك قادر على إصلاحه"

"تباً، يا أخي. هذا الهاتف أصبح قطعة خردة. يا للأسف! أتعلم أن الكثير من الناس لا يزالون يريدون هذا الهاتف؟ ولكنهم لم يعودوا يصنعونه بعد الآن ولا سيما هذا اللون، لذا لا أحد يملكه. والآن، دعني أر. ماذا يمكنني أن أعطيك بدلاً من هذا الهاتف؟"

لطالما دهش حامد للطريقة التي يتعامل بها علي مع الهواتف كما يتعامل مهووسو السيارات مع سياراتهم. فبينما كان يعتبر الهاتف مجرد وسيلة للتواصل مع الناس، كان علي يشعر بالإهانة من هذه الفكرة بل يصر على شرح كل تفصيل من تفاصيل النموذج ووظائفه لساعات. عندما اشترى حامد الهاتف القديم، أمضى علي وقتاً طويلاً وهو يسهب في التحدث عن ميزاته. ولسوء الحظ، لم يكن مدعواً إلى العشاء في بيت والد زوجته ذلك اليوم. فكلف هذا حامداً الكثير من الوقت. إذ إنه حاول أن يعلمه كيف يستخدم الملاحظات وكيف يمكنه أن يحفظ مواعيده أو عمله على التقويم. فلم يخبره حامد بالطبع أنه معتاد على حفظ كل شيء عن ظهر قلب تقريباً بدلاً من كتابة أي شيء بسبب طبيعة مهنته. فانتظر علي لينتهي من الشرح بفارغ الصبر.

"آمل أنك، يا أخي، احتفظت بأرقام الهواتف في مكان آخر كدفتر للهواتف أو شيء من هذا القبيل

"ماذا؟"

"أرقام الهواتف. انمحت كلها الآن كما تعرف لأن شريحة الخط تعرضت للتلف بدورها"

"حقاً؟"

"بالطبع. لا تقل لي إنك لا تحتفظ بالأرقام في مكان آخر. تعرف أن شركات الهواتف لديها نظام يحتفظون فيه بالأرقام في مكان ما في المركز. فإن فقدت البطاقة أو أتلفت، يحولون الأرقام من ملفاتهم إليك، ولكن هاتفك ليس مسجلاً، صحيح؟"

عندما بدأ حامد يستخدم الهاتف المحمول أول الأمر، كان يطلب كل أرقام الهواتف من ذاكرته، ولكن عندما ذهب إلى متجر علي ذات يوم، نصحه ذلك الشاب بأن يحفظ الأرقام في الذاكرة. وعندما لاحظ علي أن لدى حامد بضع أرقام فقط في قائمة الأسماء، سأله عن السبب فقال له حامد إنه يحفظ الأرقام. فقال علي: "ماذا إن نسيتها يوما ما" وعلّمه كيف يستخدم الهاتف كما يفترض استخدامه، ولكن الطريف في الموضوع هو أن حامداً بدأ ينسى الأرقام بعد أن أخذ باقتراح الشاب وأدخل الأرقام في لائحة الأسماء. ولا بد أن الحيز الفارغ الذي بقي في دماغه بعد هذا الانتقال قد ملأ نفسه بمعلومات أخرى بسرعة بحيث إنه مهما أجهد نفسه بالمحاولة فلن يستطيع أن يتذكرها بعد الآن. لحسن الحظ، فقد قام من قبل بتدوين كل الأرقام على دفتر عناوين قديم في شقته واحتفظ بذلك الدفتر في آخر درج من الخزانة في غرفته. ومع ذلك، فقد وجد أن المشكلة الوحيدة تكمن في أنه بات مضطراً لإدخالها واحداً تلو الآخر في ذاكرة الهاتف الجديد. في الواقع، هناك أيام لم يكن يتوجب عليه القيام بأي شيء فيها وساعات يمكنه أن يستغلها لهذا الغرض. في تلك الأوقات، لم يكن حامد يعرف ما يفعل بنفسه. فالأشياء التي اعتادت أن تشكل مصدر متعة له من قبل لم تعد كذلك. فقد بات الآن يحب أن يدخن الممنوعات وينظر بعينين خاليتين من التعبير إلى التلفزيون أو يتفرج على برامج السياسة الحوارية أكثر من أي شيء

آخر. ولم تعد صلاته بأصدقائه كسابق عهدها بعد الآن. ومع ذلك، فقد ظل يستمتع بلعب طاولة النرد في بعض فترات العصر، ولكن المحادثات لم تعد تمتد ساعات كما كانت في الماضي. فقد بات أصدقاؤه يكررون أحاديثهم ويعيدون سرد القصص نفسها. لم يكن أفراد مجموعته يتطرقون للأحداث الجديدة بل يتحدثون عن القصص القديمة فقط، تلك التي يمكن حتى مشاركتها مع رجال الشرطة على طاولة أحد المقاهي والضحك عليها بكل حرية. ولهذا السبب، لم يكن أي شيء مثير يصدر منهم. خطر بباله أن الأحداث التي كانت تجري الآن قد تصبح بعد سنوات مقبلات جيدة لطاولات المقاهي المستقبلية، ولكن توجب عليهم الآن الالتزام بالقصص القديمة.

لكل تلك الأسباب، شعر أنه لا يمانع أن يمضي إحدى لياليه وهو يتعامل مع هذا الواجب ووجده حتى ممتعاً، أي أن ينظر إلى أرقام الهواتف وكأنه ينظر إلى صور قديمة. فقد يتذكر أصدقاء قدامى وقصصاً وأماكن وهو يتفرج عليها. بينما راحت تلك الأفكار تدور برأسه، وقع اختيار علي على هاتف يرضيه هو فعلاً أكثر مما يرضي حامداً.

"ها هو الهاتف، يا أخي. هل يعجبك؟ إنه جميل، أليس كذلك؟"

"جميل. ما هذا اللون؟"

"أخضر داكن. أقسم أنه من الصعب العثور على هذا اللون. هذا هو الهاتف الوحيد لدي ولست واثقاً بأنني سأحصل على واحد آخر

"ألا تملك واحداً أسود اللون؟"

"أسود؟ هيا، يا أخي، الجميع معهم هواتف سوداء اللون. هيا،

لا تفطر قلبي. انظر إلى هذا الهاتف، وألقِ نظرة على الهاتف الأسود. أتلاحظ الفرق؟"

أدرك حامد أنه إن أصر أكثر على لون الهاتف، فإن عليًّا سيعتبر ذلك إهانة له، لذا رضخ لاختياره. وبدلاً من أن يمضي عشرين دقيقة أخرى وهو يتجادل معه على اللون، فضل أن يشتري الهاتف الذي أعجبه ويغادر.

"أنت محق. هذا جيد. أريد هذا الهاتف. ما سعره؟"

* * *

بعد أن طلب بعض البيتزا، أخرج دفتر العناوين وأمسكه وجلس على أحد الكراسي المخملية. كان دفتراً صغيراً أسود اللون زوايا صفحاته مطوية على بعضها تحول لونها الأبيض إلى لون رمادي بمرور الوقت. لم يستطع أن يتذكر كم مضى من الوقت عليه وهو يملك هذا الدفتر. ولو أنه بذل جهداً أكبر بقليل، لتذكر أنه اشتراه من متجر قرطاسية صغير من كاديكوي قبل عشرين عاماً. وكانت تلك أول مرة شعر فيها أنه رجل حقيقي، ولكنه مع ذلك لم يبذل جهداً كافياً ليتذكر ذلك. بدا الدفتر بمثابة جوهرة في نظره كتلك المجوهرات التي لا تستطيع النساء المسنات أن تستغني عنها. وكاد حتى أن يفكر بمن سيرثه عندما تحين منيته. وحالما فتحه، سقطت بضع بطاقات عمل منه على الأرض. وكانت إحدى البطاقات تعود لمتجر مجوهرات في كاديكوي. لم يتذكر سبب وجوده لديه أو من أين حصل عليه. من يدري ما الذي دفعه للذهاب إلى محل المجوهرات؟ لا بد أنه ذهب بسبب إحدى المهمات التي نفّذها في ذلك الوقت. كان حامد قد بدأ مهنته من الصفر وكسب الحظوة لدى رؤسائه خلال سنوات بالعمل الشاق والعزيمة. فقد عمل على جمع

المال لهم من الأماكن والناس ونقل الأشياء وحتى قام بتهديد بعض الأشخاص. توجب عليه أن يعمل بجد كبير طوال السنوات الخمس عشرة الأولى وأن يؤدي كل أنواع المهمات.

وضع البطاقة الأولى على ذراع الأريكة، وتابع النظر إلى البطاقات الأخرى. فوجد بطاقة أخرى تعود لمحطة وقود. وتذكر أن صاحب تلك المحطة رفض دفع مستحقاته لرؤساء حامد لبعض الوقت. فكانت تلك أولى المهمات التي توجب عليه فيها أن يلجأ للعنف. ولو أن هناك صفاً يعلِّم هذا النوع من الأشياء، لتعلَّم الناس منه. ففي ذلك اليوم، تصرف حامد بشكل غريزي، وحلّ المشكلة قبل أن تتفاقم. تذكر شكل ملامح وجه الشاب عندما قرأ الاسم على البطاقة. وبعد أن غادر المحطة في ذلك اليوم، كانت ملامح الشاب قد تشوهت بالكامل. فيما بعد، تولى شخص آخر إدارة المكان، ولكن حامداً لم يعد يذهب إلى هناك منذ وقت طويل جداً، فلم يعرف ما الذي جرى للشاب فيما بعد. ومع ذلك، فقد علم أن شباناً آخرين تولوا الأمور من بعده. إنه الجيل الجديد! لم يود أن يحتفظ بالبطاقة بعد الآن، لذا وضعها فوق البطاقة الأخرى. استغرب من السبب الذي دعاه للاحتفاظ بكل تلك البطاقات لهذا الوقت الطويل. وكانت البطاقة الثالثة بطاقة طبيب. والآن، تذكر هذه البطاقة جيداً جداً. فقد كانت تخص خالته. إذ بعد أن توفيت أمه، أصيبت خالته بالمرض نفسه. وعندما كادت أن تدخل في غيبوبة في أحد الأيام، تولى مهمة الاعتناء بها واصطحبها إلى الطبيب. وقبل وقت طويل، فقد حامد خالته وهي لا تزال شابة لم تصب الغضون والتجاعيد وجهها بعد. فكّر في نفسه: "رائع! انظر إلى كل هذه البطاقات التي أحتفظ بها. لست أدري إن بقي هذا الرجل على قيد الحياة أم لا.

كان كبيراً في السن. لا أظن أنه لا يزال على قيد الحياة" وضع البطاقة فوق البطاقات الأخرى. وكانت البطاقة التالية تعود إلى مركز رياضي. من يدري من أين أتى بتلك البطاقة؟ بعد قليل، أصبحت هناك عشرون بطاقة على ذراع الكنبة، كلها يجب رميها في القمامة. وعندما نهض ليتخلص منها، رن جرس الباب. فقد وصل موظف التسليم. عندما عاد حامد إلى غرفة الجلوس وعلبة البيتزا في يده، جلس بجوار الطاولة مقابل الخزانة وظهره نحو آخر أضواء اليوم. كان يوماً جميلاً من أيام الربيع التي أخذت تزداد طولاً يوماً بعد يوم. اعتاد عندما يمكث وحده في البيت أن يتناول وجبته حتى من دون أن يلاحظ كيف يبدو طعمها. معظم الوقت، كان يأكل لأنه يجب عليه ذلك وحسب. والآن، راح يمضغ طعامه بسرعة لأنه لم يجد أنه من المنطقي التمهل في تناول طعامه وهو وحده. وعندما أوشك على البدء بشريحة بيتزا جديدة، رأى عليها شعرة. وبدت شعرة سميكة وخشنة. وبعد أن أطلق من فمه شتيمة طويلة محكمة الصياغة، طلب رقم المطعم.

"هنا محل بيتزا آرزو 6. هل يمكنني مساعدتك؟"

"حامد يتكلم معك. أرسل إلي الفتى على الفور. سأرسل لك شيئاً. وإن تكرر هذا مرة أخرى، فسوف أصب لعنتي عليك"

"إنني آسف جداً، يا سيدي. الفتى في طريقه إليك. هلا أرسل لك شيئاً آخر؟"

"إياك أن تجرؤ على ذلك! لقد أفسدت شهيتي. أعد إليّ مالي!"

ما كان حامد ربما ليغضب إلى هذا الحد في وقت آخر، ولكن من الواضح أن نوعاً من الطاقة السلبية أخذ يحوم في الهواء ذلك اليوم عندما دخل كوكب أورانوس إلى مجال كوكب زحل وأثر على

برج حامد بطريقة عنيدة. فقد سقط في النهر وتبلل مسدسه ولم تعد الشركة تصنع مثل الهاتف المتضرر وفسد جهاز التحكم عن البعد الخاص بسيارته، وفوق كل شيء فقد شعر بالجوع. وهكذا، فقد توالت الأحداث واحداً تلو الآخر وأفقدته شهيته. لم يعد يود أن يفكر بالطعام بعد الآن. انتظر أمام الباب والعلبة في يده وفتحه في اللحظة التي رن فيها الجرس. فوجد الفتى واقفاً هناك أمامه بعد أن تم تحذيره أن يقف ساكناً مهما أراد الزبون أن يقول. وبدا مستعداً لسماع أي إساءة لفظية وهو يحمل بيده علبة صغيرة.

"ماذا تحمل بيدك؟" telegram @ktabpdf

"بودنغ الأرز، يا سيدي. إنها هدية من المحل"

في اللحظة التي سمع فيها حامد كلمة "هديتنا"، شعر أن أحدهم ضغط على زر الإشعال في دماغه. فتحول لون وجهه إلى لون أحمر كالدم. ولسوء الحظ، لم يعد بوسع الفتى أن يهرب من المصير الذي ينتظره بالرغم من أنه تراجع خطوة للوراء. فشحب وجهه وأخذت العلبة في يده ترتعش. لم يدرك حامد ما فعله من تلك اللحظة وطوال ثلاث دقائق. فقد محيت تلك الدقائق من ذاكرته كغيرها حالما انقضت. فإن قام بحساب اللحظات التي لا يتذكرها، لوصلت ربما إلى أشهر. قبض حامد بحركة واحدة على ذراع الفتى التي تمسك بالعلبة ولواها خلف ظهره. وكان الفتى ليوفر على نفسه ألماً مبرحاً لو أنه لم يتحرك، ولكن لأنه قاوم هذه الحركة المفاجئة، فقد سمع صوت تكسر صادر من ذراعه، وذلك الصوت هو ما أعاد الوعي لحامد. وعندما هز رأسه ورأى الفتى ثانية والعلبة التي سقطت على الأرض والعظمة التي برزت من ذراعه من الاتجاه الآخر، اكتشف أن عظم ذراع الفتى قد كسر وكاد أن يمزق الجلد. بدت

ملامح وجه الفتى معبرة عن الألم الذي شعر به بالتحديد. فقد تلوت كل ملامحه وانقلبت شفتاه إلى الخارج وسال لعابه من بين أسنانه المصطكة وراحت الدموع تسيل من عينيه ثم تتدفق مع لعابه، وهذا ما جعل حامداً يشعر بالغثيان. وبعد بضع دقائق، توقف الفتى عن البكاء. وحالما استعاد وعيه، نظر بخوف إلى حامد الذي مد له علبة البيتزا ليأخذها. وعندما استخدم الفتى يده السليمة ليحملها، توجب عليه أن يفلت ذراعه المكسورة فتدلت في الهواء. فبدت شديدة الطول كأن له ذراعاً إضافية. وحالما أخذ العلبة من يد حامد، التفت إلى الدرج وركض إلى الطابق السفلي. وعندما خرج من البناء وبدأ يئن من الوجع، كان حامد قد أغلق الباب ولم يعد يسمعه. وضع بودنغ الأرز في الثلاجة وقال في نفسه: "تباً لأولئك الناس. يا له من توقيت. أردت وحسب أن أتناول وجبة بسلام" ومع ذلك، فقد شعر بالأسى لحال الفتى. وأدرك أنه توجب عليه في الواقع أن يكسر ذراع الرجل الذي دفعه زهوه وعجرفته لأن يعطي العلبة للفتى. وفكر في نفسه: "قلت لك ألا ترسل شيئاً، أيها المغفل. حسناً، ما حصل قد حصل" صب لنفسه كأساً من الشراب وجلس على الأريكة، ورد رأسه إلى الوراء، وأغمض عينيه، وأخذ نفساً عميقاً وهو يعلم أن هذا سيهدئ من أعصابه، وأدرك أن أحداً من مطعم البيتزا لن سيتصل به إلى أن يتصل هو بهم ثانية وأنهم سيتعاملون مع المشكلة بصمت فيعطون علاوة مالية للفتى وإجازة لبضعة أيام. بالطبع، فقد كان من الممكن أن يترك الصبي العمل، ولكن لا مشكلة إذ يمكنه أن يذهب إلى محل بيتزا آرزو 5. مع كل رشفة شراب تناولها حامد، شعر بنفسه يعود إلى طبيعته وتسلل دفء الشراب إلى دمه وجسده حتى استعاد وجهه لونه الطبيعي واسترخت عروق عنقه. تنحنح وعيناه لا تزالان

مغمضتيـن. وعندمـا فتـح عينيه من جديد، كانت الروح الشـريرة التي استولت على جسده لبضع دقائق قد تبادلت الأدوار مع توأمها الأكثر سـلاماً. فأمسـك دفتر العناوين الذي تركه على طاولة القهوة بجانبه، وتناول هاتفه المحمول الجديد، وفتح صفحات الدفتر المصفرة، وبدأ بالأسماء التي تبدأ بحرف ألف وهكذا دواليك: أحمد، أيمن، أمجد...

18

مرّ يومان على اتصال لطفي بدنيز، ولكنه لم يتلقَّ منه أي رد حتى الآن. لو أن خطوط الهواتف الأرضية هي التي كانت تعمل فقط بدلاً من الهواتف الخليوية كالأيام الخوالي ولم يتمكن من الوصول إليه بسبب ذلك، لوجد هذا منطقياً ولما انزعج إلى هذا الحد. لطالما كره لطفي الهواتف الخليوية واستاء منها لأن الناس يعرفون من خلالها من يتصل بهم ويمتنعون عن الردّ. ولم يكن هذا يعني إلا شيئاً واحداً وهو أنهم لا يريدون التحدث مع ذلك الشخص، وهي طريقة قاسية تدل على عدم اكتراثهم لأمره. فإن اتصل لطفي بشخص ولم يرد، أصابه هذا التصرف بالغضب والقلق. وكلما همَّ بأن يتصل بشخص ما، انتابه شعور غامض بالتوتر ولا سيما الآن. فامتناع دنيز عن الرد على هاتفه بث الكثير من الخوف في نفسه بالرغم من أنه لم يود أن يعترف بذلك.

قرر أنه من الأفضل أن يتصل به من هاتف عمومي. وبالرغم من أنه أدرك وجود إمكان كبير بألا يرد عندما يرى متصلاً مجهولاً، فقد اعتبر ذلك لا يزال يستحق المحاولة. ذهب لطفي إلى أقرب كشك هاتف عمومي وطلب الرقم. وهذه المرة، لم يرن الهاتف مطلقاً بل تحول مباشرة إلى البريد الصوتي. فقال لطفي بغضب: "إن هذا التافه لن يرد على هاتفه. حسناً، لا ترد. سأعثر عليك على كل الأحوال" وبالرغم من أن ذلك بدا وعيداً مقعناً في تلك اللحظة، إلا أنه لا يعني أن لطفي سينجح في العثور على دنيز. ففي مدينة مثل اسطنبول لا

يعلـم سـوى الله عـدد الناس الذين يتوعدون أشـياء مختلفة بالطريقة نفسها مثل "سأريه" أو "ستعود إلي أو "سأجعله يعرف قيمته" فكل هذه التهديدات لا تتحقق معظم الوقت.

وعندمـا هـمَّ لطفي بالخروج من الكشـك، بدأ الهاتف العمومي يرن. فنظر حوله، ولكنه لم ير أحداً ينتظر مكالمة هاتفية. فاقترب من الهاتف وهو خائف ورفع السماعة بعد أن انتظر بضع رنات إضافية.

مرحباً؟"

"لطفي!"

فقفز لطفي ونظر حوله وكاد أن يسـقط السـماعة من يده. ذلك الشـخص الـذي يقـف هناك، هل هو أحـد أصدقائه؟ هل يريد العبث معـه؟ وحتـى لـو كان ذلـك صحيحـاً، فكيف عرف رقـم هاتف ذلك الكشك؟ قال لطفي في نفسه: "ليساعدني الرب الرحيم" وبينما هو يحاول أن يتأكد من وجود شـخص آخر في الكشـك المجاور، صاح الصوت من السماعة بصوت أعلى.

"لطفيييييي؟"

"نعم، نعم، نعم؟"

"أصغ إلي، ستذهب الآن إلى شارع سلطانبيلي. اتفقنا؟"

"ماذا؟ من أنت؟"

"هل فقدت عقلك أو ما شابه، يا صديقي؟"

"المفتش؟"

"ماذا؟ أي مفتش؟ هل أصبت بضربة شمسية أو ما شابه؟"

"حضرة المفتش؟ أهذا أنت؟"

"أي مفتش، أيها الأحمق؟ هيا. هل انتهيت من هناك؟"

"آسف، يا أخي، ولكنني لا أفهمك في الواقع. من أنت؟"

"هذا أنا حسان، يا صديقي، إنني أتصل من المركز"
"أي مركز؟"
"تباً! لقد فقد الشاب عقله"
"أظن أنك تتصل بشخص آخر، يا أخي
"ألست أنت لطفي؟"
"نعم"
"حسناً؟ هل انتهيت من هناك؟"
"انتهيت من ماذا؟ لقد أتيت هنا لأتصل بشخص ما. وكنت على وشك أن أغادر. فرن الهاتف ورددت عليه"
"ألست أنت لطفي من الشركة التركية للاتصالات؟"
"كلا، لست أنا"
"ولكن اسمك لطفي؟"
"نعم، يا أخي
"هيا، ما الذي يجري، يا صاح؟ لماذا ترد على الهاتف إذاً؟"
"كنت هنا. إنني أفعل ما يحلو لي. ماذا؟ هل ستعلمني ما أفعل؟ لماذا تتصل على أية حال؟"
"هيا هدئ من روعك. حسناً... حسناً... إنني جد آسف، يا صاح. هل يمكن أن تتأكد من وجود شخص يدعى لطفي حولك؟"
وضع لطفي السماعة من يده ونظر حوله، ثم صاح قائلاً: "هل يوجد شخص اسمه لطفي هنا؟" فلم يرد أحد. وعندما نظر مرة أخرى بإمعان أكثر، رأى شخصاً يعمل تحت أحد الأعمدة على بعد مسافة. فذهب إلى هناك ولمس كتفه.
وقال: "أرجو المعذرة، هل اسمك لطفي؟"
"نعم

"لديك مكالمة هاتفية"

"شكراً، يا أخي

قبل أن يتمكن من أن يستعيد هدوءه من كل هذه الفوضى، بدأ هاتفه يرن. وظهر عليه رقم لا يعرفه من الجانب الأوروبي من المدينة. فظن أنه ربما زبون جديد أو دنيز يتصل من رقم مختلف.

"نعم؟"

"أهذا لطفي؟"

"نعم"

"مرحباً، لقد أخذت رقمك من صديق مشترك"

"من؟"

"عمر

"عمر؟"

"نعم، عمر

عمر؟ نعم، عمر. حسناً، لقد كان أحد زبائنه القدامى، ولكنه لم يعد يتصل به منذ وقت طويل. فقد سمع أن عائلته أرسلته للعلاج في مركز لإعادة التأهيل. وكان شاباً رائعاً ودمث الخلق. فكلما زاره لطفي ليحضر له بضاعة يريدها، دعاه للدخول وقدم له القهوة. في البداية، اعتاد أن يشتري الحشيش ليس إلا. وفي أحد الأيام، طلب الهيروين ثم لم يعد يقوى عن الامتناع عنه. وفي آخر مرة جلب له لطفي البضاعة، شعر بالأسى لحاله. فقد بدت شقته الجميلة في حالة فوضى وهناك قطتان تتمشيان في الأنحاء جائعتين. وبعد ذلك، سمع أن عائلته حبسته لتنظف جسمه من المخدرات ثم أرسلته لمركز لإعادة التأهيل في ما بعد. كان ذلك تصرفاً جيداً من قبلهم، ولكنهم لم ينجحوا بمعالجته بتلك الطريقة. فقد حبس لطفي نفسه لينظف

جسده من الهيرويين عدة مرات، ولكنه سرعان ما بدأ يتعاطاه من جديد. فالمتعة التي حصل عليها من تعاطيه للمرة الأولى، لم تكن تعادل أي متعة أخرى في نظره. سمع أن عمر أصبح يقيم مع والديه الآن. فلم يعودا يسمحان له بالغياب عن ناظريهما، ولكنه ربما ظل على صلة بأصدقائه القدامى بما أن هذه الفتاة حصلت على الرقم منه. ومع ذلك، فمن المستحيل لشخص أن يقلع عن الممنوعات إلى الأبد، وهذا هو السبب الذي جعلها تجارة مربحة. فكّر لطفي في أنه لا يمكن لعائلة الشاب أن تسجنه إلى الأبد لأنه رجل ناضج على كل حال ولا بد أنهم سيتركونه وشأنه في وقت ما. فإن حان ذلك الوقت، اتصل بلطفي.

"نعم، أتذكر

"دعني أعطيك العنوان"

أخبر لطفي الفتاة أنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك إلا بعد ساعتين. فقد توجب عليه أولاً أن يذهب إلى البيت ويحضر البضاعة. كانت لديه مجموعات مختلفة من الزبائن، إحداها هم الزبائن كتلك الفتاة، أي أولئك الذين اعتاد أن يوصل البضاعة لبيوتهم. أما المجموعة الثانية، فقد اعتاد أن يقابلهم فقط في الخارج لكي لا يعرف أين يقيمون، ومعظمهم في الواقع من الأغنياء والمشاهير. فقد كان لديه بعض الزبائن من ذلك النوع. وهناك مجموعة أخرى من الزبائن الذين يأتون كلما حصل على ما يبحثون عنه، وأولئك عادة لا يملكون الكثير من المال ويحبون المساومة وينفقون كل قرش يملكونه على الممنوعات ويسافرون بالحافلات ليصلوا إلى لطفي. وهناك مجموعة الطلاب في حرم الجامعة، وهذه على الأرجح المجموعة الأفضل بالنسبة إليه لأنهم جميعاً يعرفونه حق المعرفة. في بعض الأحيان،

كان يبيعهم كل ما بحوزته في غضون خمس عشرة دقيقة، وخاصة الحشيش أكثر من أي شيء آخر، ولكن البيع السريع در عليه ربحاً كبيراً. وبالإضافة إلى ذلك، فلطالما أحب الجو الخاص الذي يتمتع به المكان هناك والتحدث إلى الناس وتعلم الأشياء. واعتبر الربيع بشكل خاص أفضل من أي وقت آخر. فلم يكن هناك شيء ممتع أكثر من النوم في مرج الجامعة. لم يعد يستطيع أن يذهب في هذه الأيام، ولكن لا بأس بذلك. فالتوقيت لم يكن سيئاً في الواقع. فقد بات الصيف على الأبواب. وعندما يحين الصيف، لا يذهب أحد إلى الكلية في كل الأحوال، وهذا ما يجعل الهدوء يخيم على كل شيء حتى حلول الخريف. فقرر أن يطلق عندئذ استراتيجية بيع جديدة أفضل من أي وقت مضى. فقد حدث عدة مرات أن حاول بعض الحمقى أن يقتحموا السوق ويجنوا منه بعض الفوائد، ولكنهم لم ينجحوا. فقد ظل الطلاب يحبون لطفي ويخلصون له.

أما خارج حرم الجامعة، فلم يكن أحد يجرؤ على العبث معه لأنه ابن أخت حامد. في الواقع، لم يكن ابن أخته بل ابن ابنة خالته، وهذا ما جعلهما على علاقة مقربة. فقد اعتاد حامد أن يعامل لطفي معاملة الخال لابن أخته لأنه لم يكن له أقرباء آخرون. وعلى حدّ علم لطفي، فقد خسر خاله كل عائلته وهو صغير السن. وقيل له إن جدته، وهي خالة حامد، توفيت وهي في مقتبل العمر. لم تكن أمه وخاله حامد يقابلان بعضهما في أغلب الأحيان، ولكن إن التقيا ذات مرة، حافظا على حميمية أفراد العائلة. فبين الحين والآخر، اعتاد أن يذهب لتناول العشاء في بيتهما. وفي تلك الأيام، توجب على لطفي أن يلزم البيت ولا يخرج منه لأنه لا يوجد رجل آخرِ في البيت ولأنه ليس لدى أمه وخاله الكثير ليتحدثا عنه، لذا لطالما توقفت المحادثة

عند حدٍّ معين ودارت حول الأشياء نفسها مراراً وتكراراً.

"هل تحتاجين إلى أي شيء، يا آيز؟"

"كلا، شكراً لك، يا أخ حامد. شكراً جزيلاً لك"

"أصغي إلي، إن احتجتما شيئاً ولم تخبريني، فسأشعر بالإهانة، أتفهمين هذا؟ إن احتاجت أمك، يا لطفي، أي شيء، فاحرص على أن تخبرني، اتفقنا؟"

"بالطبع يا خالي

"إنني واثق بأنهم يعاملونكم جيداً في الجوار"

"بالطبع. إنهم جميعاً جيران قدامى على كل حال، وهم يعتنون بنا جيداً"

في معظم الأحيان، كانت تجري الأحاديث بقية الأمسية بين حامد ولطفي بينما تقوم والدته بتنظيف الطاولة وغسل الصحون وهما يتحدثان عن مواضيع تهمّ الرجال. أثناء حياة والده، اعتاد لطفي أن يشجع فريق كرة القدم الذي يشجعه والده، وهو فريق فيناربخشة. ومع ذلك، فعندما فقد والده، وأصبح خاله يشكل نموذج الأب في حياته، شعر أنه من واجبه أن يغير فريقه. والآن، أصبح مشجعاً للفريق الذي يشجعه خاله، أي فريق بيشكطاش. فكانا يتحدثان عن الفريق وكيف يلعب أفراده وما يجب عليهم فعله وهم يسمعون أصوات الأطباق القادمة من المطبخ. وبالرغم من شعور لطفي بالمكانة المقربة التي يحتلها لدى خاله حامد، إلا أن هناك مسافة معينة ظلت تفصل بينهما على مر السنين. لم يعرف إن كان يتمتع بتلك المكانة في حياة حامد لأن خاله يحبه فعلاً أم لأنه ليس هناك أحد آخر في حياته. ومن ذلك المنطلق، فقد ظل لطفي يعتبر وجود حامد مفيداً لمهنته حتى لو لم يملأ الفراغ الذي خلفه والده، ولهذا السبب فقد ألزم نفسه بتشجيع

فريق خاله الرياضي بقية حياته إلى أن يموت.

* * *

بعد ساعتين، وقف لطفي أمام البناء وهو خائر القوى بسبب الطقس الحار والسفر بين القارتين. فقد توجب عليه الذهاب إلى الجزء الآسيوي ليحضر البضاعة ثم العودة إلى الجزء الأوروبي. نظر إلى البناء رقم 63 ورن جرس الباب الرئيس.

"من الطارق؟"

"لطفي

"الطابق الثاني

صعد لطفي الدرج على مهل. إذاً، فقد حل الصيف بشكل رسمي هنا. فكّر في نفسه أنه لو تمكن من الحصول على نشقة واحدة من الممنوعات قبل أن يغادر البيت، لشعر الآن أنه بحال أفضل بكثير، ولكن عندما أوشك أن يحضر شيئاً لنفسه، دخلت والدته إلى غرفته. كانت أمه بالطبع تعرف كل شيء. فطريقة عيشه لم تكن سراً بالنسبة إليها، ولم تكن راضية عنها، ولكنهم كانوا الجيران الوحيدين الذين يملكون جهاز تكييف للهواء في الجوار. وبالرغم من أنهما لم يعتادا تشغيله طوال الوقت خوفاً من ارتفاع فاتورة الكهرباء، إلا أنها شعرت بفخر كبير عندما اقترحت النسوة الأخريات أن تتم اجتماعاتهن الأسبوعية في بيتها خلال الصيف.

عندما وصل لطفي إلى الطابق الثاني أخيراً، وجد كلا البابين مغلقين. فنظر مرة أخرى إلى الورقة التي كتب عليها: "الشقة رقم 5" وقال في نفسه: "لقد رننت الجرس لتوي، أليس كذلك؟ هل من الصعب إبقاء الباب مفتوحاً. من الواضح أنني سأصعد إلى الطابق العلوي، أيها الحمقى!" فانفتح الباب ورأى لطفي امرأة أكبر سناً من

المتوقع. فقد كانت تبلغ منتصف العمر.

"تفضل

"ليس لدي متسع من الوقت، يا سيدتي

رفعت السيدة أحد حاجبيها وابتسمت بسخرية. فقد تصرف كما يتصرف الشاب الذي يوصل الحليب للبيوت. "ليس لدي متسع من الوقت، يا سيدتي؟"

"سيدتي؟"

"إنني آسف... أعني..."

تبادلا النقود والممنوعات في الوقت نفسه. وبعد أن أخذت المرأة الكيس الصغير من يد لطفي وتفقدت محتوياته، أخرجت أصفاداً من وراء ظهرها ودلتها أمام وجهه. وفي الوقت نفسه، دخل رجل إلى الصالة وبحوزته مسدس، وطلب من لطفي أن يدير ظهره بإيماءة من يده. ولم يعد ثمة ما يسع لطفي فعله سوى شتم نفسه لغبائه.

* * *

عندما رأى المفتش لطفي مكبلاً عند مقر الشرطة، كاد أن يختنق بدخان سيجارته.

وقال: "هل أحضرتم هذا الشاب من بين الناس جميعاً؟ مجدداً؟"

فوجئ كل من الرجل والمرأة برد فعل المفتش.

"أيها الأحمق اللعين. أتعرف ماذا؟ أظن أنني بت على يقين من أنك تاجر المخدرات الوحيد في هذه المدينة اللعينة كلها. هل يجب علي أن أعثر عليك تحت كل حجر أرفعه؟ ألا يمكنكم العثور على شخص آخر في كل مدينة اسطنبول؟ هل هذا القذر هو

قدري المحتوم؟ لا تحضروا هذا المغفل الغبي إلي مرة أخرى، هل تسمعون؟ ألا يمكنكم العثور على شخص آخر، أيها الحمقى؟"

"حسب المعلومات التي لدينا، يا سيدي...

"تباً لمعلوماتكم! لقد اعتقلتم أغبى شخص يتم القبض عليه مهما حدث في هذه المدينة. أتعرف ماذا، تحدثوا إلى بعضكم البعض واعرفوا ما يجري! إن اسم هذا الشاب هو لطفي، وذلك الغبي الأحمق يحضر لي بعض المعلومات. إنها لا تساوي شيئاً على كل حال. إن أحضر لي أحدكم هذا الغبي مرة أخرى، فسوف أقوم بنفيه بنفسي إلى أي مكان أريده ربما إلى كارس أو إلى حدود العراق أو أي مكان يعجبني على الخريطة. أطلقوا سراحه! والآن، أنت أيها الغبي لطفي، ما الذي قلته لك؟ ماذا؟"

"أقسم لك، يا سيدي، إنها قالت إنها صديقة لأحد زبائني القدامى، هذا هو السبب. وفوق ذلك، فقد ظننت أنني ربما سأتمكن من الحصول على شيء لك. أقسم لك. تعرف أنني أفكر فيك طوال الوقت وبما يمكنني أن أحضره لك"

"لا تبدأ مرة أخرى، يا لطفي، ولا تجعلني أغير رأيي. إنك لا تريد أن تمضي بقية ليلتك هنا"

"حسناً، يا حضرة المفتش

19

شكّل الحلم الذي راود عيسى عن حامد مستهل فصل جديد بالنسبة إليه أو ربما في الواقع تتمة لفصل أُغلق قبل سنوات عديدة. وأصبحت الأحلام التي راودته الآن تتجاوز الأحلام التي راودته في الماضي. فقد بدت هذه الأحلام أكثر رعباً بكل تأكيد. لم يعرف أي حلم منها يتوقع للمستقبل وأي حلم لا، ولكن هذه الأحلام أكدت على شيء واحد فقط، وهو أنها تحمل الرسالة نفسها. لم تعد أحلامه مجرد أحلام عادية كتلك التي يتذكر نصفها وينسى الباقي. كلا، بل كانت أحلاماً كاملة. فخلف لديه هذا البعد الجديد أحاسيس خانقة لازمته طوال الأمسية ومشاعر متبقية منها لم تبارحه طوال اليوم. وفجأة، تفتحت بصيرته على أمور جديدة لم يألفها من قبل. فقد أصبح يعرف ما يجري في سيفيلي من دون أن يخبره أحد. فقد رأى أشخاصاً لم يرهم من قبل وشهد على محادثاتهم في أحلامه وجعله هذا يشعر بفضول شديد. ترى ما مدى قرب ما شهده في أحلامه من الحقيقة؟ عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، ظلت الصور التي رآها في الليلة الماضية واضحة في عينيه. وخامره شك من أنه رأى الرجل الذي شاهده في الحلم من قبل ربما في صلاة الجمعة أو المقهى، ولكنه لم ير تلك المرأة مع أن وجهها بدا له مألوفاً. في الحلم، عاد الرجل إلى بيته ثملاً وزوجته نائمة. وكان الأطفال قد استسلموا لنوم قلق. فاستيقظت المرأة على صوت

الرجل، ولكنها لم تحرك ساكناً. شعر عيسى بخوف المرأة وكأنه يعيش الأحداث في مكانها. كانت تلك شقة صغيرة. فأشعل الرجل ضوء المطبخ، وبدأ يفتح أبواب الخزائن ويغلقها. راحت زوجته تصغي إلى الأصوات من مكان نومها، وتحاول أن تستعد لخطوتها التالية. وفي تلك اللحظة، سمعت صوت الرجل وهو يدخل إلى غرفة الأطفال ويجر خفه بصوت مرتفع. فجلست المرأة في سريرها وأسنانها مطبقة وأنفاسها مقطوعة. كانت ابنتها وابناها الصغيران يشتركون الغرفة نفسها. في اللحظة التي فتحت فيها أمهم عينيها، استيقظ الأطفال. وبالرغم من عدم وجود أي حركة تدل على الحياة في الشقة، فقد أخذ الجميع ينتظرون متأهبين. دست الفتاة قدميها تحت غطائها القطني، وجلست ساكنة ومتيبسة. فتح الرجل الباب وأدخل رأسه. ولم يسمع أي صوت في المكان. فهمست المرأة بنعومة وكأنها تتلو صلاة: "أغلق ذلك الباب وادخل إلى الغرفة. أغلق ذلك الباب وادخل إلى الغرفة" وراح الأطفال الثلاثة يصلون الصلاة نفسها في الوقت نفسه: "أغلق الباب وادخل إلى غرفتك" أخذت القلوب الصغيرة الثلاثة وقلب أمهم المشتت تدق بعنف. وقف الأب في الضوء المتسرب من المطبخ وهو ممسك بالباب لأنه ثمل ولأنه لم يستطع أن يحمل نفسه على المغادرة بينما ظل نظره مركزاً على سرير ابنته. تضرعت الابنة إلى الله هامسة محاولة أن تكبح دموعها التي علقت في زاويتي عينيها. وكان الصبيان قد عاهدا الله أن ينتقما لأختهما بصمت حالما يكبران ويصبحان قويين. دفع الرجل الباب ودخل. فخرجت المرأة من غرفتها وتبعت صوت خطواته. لم تكره شيئاً في حياتها أكثر من صوت الخف

الـذي ينتعلـه زوجهـا حالما يدخل إلى البيت. فقد كانت تعرف إلى أين يؤدي كل مرة. وبدأت الدموع تنساب على خديها، ولكنها اليوم بدلاً من أن تدفن رأسـها في الوسـادة وتبكي حتى ينفطر قلبها كما لطالما فعلت، نهضت ومشت نحو المطبخ متسللة وأخذت المطرقة من إحدى الخزائن وتسـللت إلى غرفة الأطفال. وقفت في الضوء المتسـلل من المطبخ ورأت أجسـاد أطفالها المرتعشـة. ومع ذلك، فلم تسـتطع أن ترى جسـد طفلتها لأن ظلاً كبيراً خيم عليها. فدنت منـه بتصميـم وضربـت الرجل على رأسـه بالمطرقة بـكل ما أوتيت من قوة. سـمعوا جميعاً صوت تحطم يشـبه الصوت الذي سـمعوه مـن معصـم الفتاة قبل شـهر. تعثـر الظل الضخم محاولاً أن ينهض. فضربته المرأة مرة أخرى وعثرت على هدفها على الرغم من الدموع التي حجبت رؤيتها. فانهار الظل في مكان جلوسه. وفجأة، امتلأت الغرفة برائحة مثيرة للاشمئزاز. وعندما تسللت الفتاة من وراء الظل، كان قميـص نومهـا مغطـى بـكل ما أكله والدها تلـك الليلة. اقتربت ووقفت بجانب أمها بهدوء ووضعت ذراعيها حول خصرها وتبعها الصبيـان ثـم غادر الأربعة جميعـاً الغرفة ودخلوا إلى المطبخ. وبعد أن أعـادت الأم المطرقـة إلـى مكانها، أخذت الهاتف وطلبت رقماً. وعندما وضعوا الرجل في سـيارة الإسـعاف، كان قد دخل في حالة غيبوبة كاملة.

استـيقظ عيسـى من الحلم الذي لا نهاية له، وأراد أن يعرف ما سيجري في النهاية. ترى هل وصلت الشرطة؟ هل وضعت الأم رهن الاعتقـال؟ تـرى هل تفهموا سـبب ارتكابهـا جريمتها؟ كان ذلك يوم الجمعة، أي يوماً مثالياً لأن يذهب إلى سيفيلي ويلتمس الأخبار. لم

يعرف أي خيار يريد: أن يتحقق حلمه أم لا. فإن كان حلمه يعكس الحقيقة فعلاً، فهل مثل حادثة واقعة وقعت في الماضي أم ستقع في المستقبل؟

* * *

قبل أن ينزل الإمام من المحراب في المسجد، خاطب حشد المصلين بقوله:

"الليلة الماضية، تعرض أخونا سليمان، الذي اعتدنا على رؤيته بيننا كل يوم جمعة، لنوبة قلبية، وهو الآن في حالة غيبوبة. من فضلكم، ادعوا لأخينا المحبوب سليمان. إنني أقول لكم دائماً إن الخمر أم الخبائث. ومع ذلك، فمن المؤكد أنه ليس من حقنا أن نحكم على أخينا المحبوب لا سمح الله. إن المحاسبة على كل من الأعمال الصالحة والذنوب تتم بين الله وعباده. فلحظة إهمال، كما ترون، أخذت أخانا المؤمن إلى حافة الموت لا قدر الله. كل ما يمكننا القيام به الآن هو أن ندعو الله أن يغفر ذنوب أخينا العزيز. أتمنى لكم جميعاً جمعة مباركة. وفي غضون ذلك، هناك صديق عزيز آخر، وهو صاحب محلات آكان ورئيس فريق سيفيلي لكرة القدم، السيد محمد، سيعمل على تجديد نافورة باحة المسجد كما تعلمون. ما زلنا نتوقع منكم أن تساعدوا بكل ما تقدرون عليه. سنقوم جميعاً بتجديد هذه النافورة التي ورثناها عن أسلافنا. سيقوم المؤذن محسن ونائب رئيس البلدية السيد توفيق بإعطائكم إيصالات مقابل مساهماتكم عند مدخل المسجد. من فضلكم، لا تنسوا أن تأخذوا الإيصالات"

بينما غطى صوت الحشد على كلمات الإمام الأخيرة، ظلت الكلمات ترن في أذني عيسى، ووجد صعوبة في التخلص منها. فلزم

مكان جلوسه بعد أن غادر الجميع المسجد وهو لا يزال يفكر وعيناه مركزتان على الأرض ويتساءل إن كانت تلك مجرد مصادفة. عندما وجد الإمام أن عيسى لم يغادر، اقترب منه بحرص.

"آمل أن كل شيء على ما يرام إن شاء الله، يا أخ عيسى

"آه، نعم... نعم... انتظرت الحشد ليغادر وحسب. إنك تعرف أنني أمشي على مهل. وأنا واثق من أن كل شخص لديه مكان يريد الإسراع بالذهاب إليه"

"تفكير سليم. لنذهب ونتناول الغداء معاً إذاً. لقد ضربت الموجة الحارة بشدة هذا العام، أليس كذلك؟ يقولون إننا سنعاني من شح في المياه هذا الصيف. ليكن الله في عوننا. كل هذا بسبب طمع البلاد الكبرى. آمل أن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم"

"إن الطقس في المقبرة أبرد بعض الشيء"

"إنني واثق من هذا. فهي تقع على التلة كما أنها مليئة بالأشجار. لم تعد لدينا أشجار هنا. إنهم يدمرون هذه الأرض الجميلة أمام عيوننا. فلا أشجار ولا ماء باق"

"نعم... نعم..."

في تلك الأثناء، فكّر عيسى في طريقة يبدأ بها المحادثة. ولو لم ينشغل باله بالحلم الذي راوده الليلة الفائتة وبما حدث في البلدة، لحدث الإمام عن ارتفاع درجة حرارة الأرض. فمحطات الراديو لم تعد تتحدث عن أي شيء آخر منذ بداية فصل الربيع على كل حال. فقد أخذت تسرد إحصائيات من كافة أنحاء العالم وتتحدث عما يمكن القيام به على الصعيد الشخصي. ولو لم يكن عيسى مهتماً أكثر بموضوع آخر، لوجد لديه الكثير ليقوله، ولكن مسائل اليوم والليلة الفائتة شغلت باله أكثر من كل شيء آخر. فقد تلهف لأن يعرف ما

يعرفه الإمام عن الحادث. فجلسا بجوار إحدى الطاولات الخارجية في أحد المطاعم. لم يشغّل أحد مكيف الهواء في الداخل بالرغم من الحرارة والإعلان المعلق على النافذة الذي كتب عليه المحل مكيف بما أنه لا يزال بضعة أيام تفصلهم عن البداية الرسمية لفصل الصيف، لذا فقد عاملوا الجو على أنه فصل الربيع.

"حسناً إذاً، يا أخ عيسى، ما أخبارك؟"

"ليس الكثير، يا حاج. لا شيء جديد"

"لم لا تأتي كثيراً إلى الجوار؟ ألا تصاب بالملل هناك وحدك؟"

"كلا، إنني بخير

"ولكن إن احتجت شيئاً، فستخبرني

"شكراً لك، يا حاج. تحدثت قبل قليل عن شخص يدعى سليمان، يا حاج..."

"نعم... نعم... هذا مؤسف"

"لماذا؟ ما الذي جرى؟"

"أصيب بالسكتة. لا أظن أنه سيتعافى، فهو في حالة غيبوبة على ما أعتقد"

"كيف حدث هذا؟"

نظر الإمام حوله ليتأكد من أن أحداً لا يسمعه وانحنى فوق الطاولة وقال هامساً:

"أظن أن هناك شيئاً آخر. أعني، ليسامحني الله، ولكنني أظن أن شيئاً آخر قد حدث"

"مثل ماذا؟"

"حسناً، لقد نقلوه إلى المستشفى الليلة الماضية بعد منتصف الليل. وصباح اليوم، ذهب بعض الناس ليتحدثوا إلى زوجته"

"ما السبب كما تظن؟"

"حسناً، سمعت هذا من الجار المجاور لهم، وقد يكون كذباً، ولكنهم من الشرطة. يقولون إنهم سمعوا صوت ضرب، ولكنني لا أعرف أي نوع من الضرب"

"ضرب من؟"

"لست أدري، ولكنني واثق من أن الأمور ستتوضح لاحقاً. إن كان هناك شيء ما جرى، فسنعرف به. ليسامحها الله إن كان هذا صحيحاً أو إن ألحقت به مكروهاً. لا يمكن أن نعرف. فالله وحده العالم"

"هل لديه أطفال؟"

"نعم، ثلاثة"

الآن، بات عيسى واثقاً من صحة الحلم الذي راوده، وهذا يعني أنه رآه أثناء حدوثه. وحتى لو أراد المساعدة، فلم يعد بوسعه ذلك. كيف يمكنه أن يساعد على كل حال؟ من سيصدقه إن باح بما يعرفه؟ لا أحد. ماذا عن الحلم الذي راوده عن حامد؟ لم يسمع خبراً عنه منذ بعض الوقت. أيعقل أنه واقع في المتاعب؟ أم هل رأى المستقبل؟ أم أنه رأى ذلك الحلم لأنه لطالما توقع وقوع حادث من ذلك النوع لحامد. ألم يفكر في ذلك الاحتمال بين الحين والآخر؟ إن مات حامد في ذلك اليوم، فلم يكن عيسى ليعرف على الإطلاق. فمن أين له أن يعرف؟ كم ينبغي أن يمر من الأيام والأشهر قبل أن يدرك أن هناك مشكلة ما؟ حاول أن يتخلص من تلك الفكرة. فليست هناك طريقة تساعد الإنسان على الهرب مما سيحدث في حياته. أيقن أنه من الأفضل أن يفكر في طريقة يؤول بها تلك الأحلام. ترى هل حاولت أن تخبره شيئاً ما؟ هل توجب عليه أن يفعل شيئاً ما؟ قاطع

صوت الإمام أفكاره:

"لا أظن أنه سيعيش كثيراً"

"من؟"

"سليمان"

أدرك عيسى أنه لن يعيش طويلاً ليس لأنه رأى ذلك في الحلم، ولكن لأن صوتاً في أعماقه قال له ذلك.

20

عندما استيقظ دنيز، اكتشف أن أمه قد استيقظت قبله، وتناولت فطورها، وجلست لتقلب صفحات الصحيفة بجانب النافذة وهي تشرب قهوتها. وبالرغم من أنه لم يمضِ أكثر من أسبوع على وصولها، فقد أسست لنفسها نظاماً خاصاً بها في الشقة. وبمعنى آخر، فقد عملت على تكييف المكان حسب مزاجها. ولم يعد دنيز يستطيع العثور على أي شيء يبحث عنه بعد الآن، ولهذا السبب فقد كاد يصل إلى حافة الانهيار العصبي عدة مرات، ولكنه نجح في كبح جماح غضبه. وبالإضافة لكل شيء آخر، فقد توجب عليه أن يتظاهر بأنه يدرس لبضع ساعات في اليوم بينما أثبتت أمه براعتها في إضفاء المزيد من جو الكآبة على المكان، عندما حاولت أن تتصرف بهدوء شديد لئلا تزعجه وهو يدرس. وبينما هو يفكر في كل شيء باستثناء مسائل الرياضيات التي أمامه، لم تفعل السيدة سوزان شيئاً سوى زيادة حدة غضب ابنها وهي تقلِّب صفحات الصحيفة أو الكتاب بهدوء شديد. ترى هل خالجته هذه المشاعر تجاه أمه دائماً؟ لم يعرف منذ متى بدأت تخالجه مشاعر الكراهية تلك نحوها. هل أزعجه وجودها من قبل هكذا؟ سيطرت تلك الأفكار على عقله معظم الوقت وهو يتظاهر أنه يدفن نفسه بين الكتب. وضاق صدره بذلك الانتباه المبالغ به الذي أغدقته عليه والأسلوب التي اعتادت فيه أن تضع الدواء في فمه وتجيب عن أسئلته المنفعلة بلهجة شديدة الهدوء أو تهدأ من أجوبته المنفعلة بأسئلتها المفصلة. أما وقت الليل، فقد شكّل

مشكلة أخرى يجب التعامل معها. ما الذي أرادت أن تبرهن عليه عندما بدأت تضع شراشف على الأريكة في غرفة المعيشة وتنام عليها كل ليلة ثم تستيقظ وهي تفرك عنقها كل صباح؟ أنها أم صالحة؟ وأنها تهتم بمصلحة ابنها أكثر من أي شيء آخر؟ أكثر من راحتها؟ أم أنها حاولت أن ترسل له رسالة تقول إنها مراعية لشعوره بما فيه الكفاية بحيث إنها لا تريد أن تقلب حياته رأساً على عقب وتقتحم خصوصية غرفته. شعر أن حياته انقلبت رأساً على عقب منذ اللحظة التي دخلت فيها إلى البيت. فقد كانت تستغرق في النوم كل ليلة في الساعة الحادية عشرة بينما يتوجب عليه هو أن يدخل إلى غرفته. ولطالما ثار استياؤه من الطريقة التي كانت تغفو فيها ويسقط رأسها أمامها بعد خمس دقائق على قولها: "لا تقلق، يا حبي، فعلاً، فأنا لا أشعر بالنعاس على الإطلاق" من ناحية أخرى، فلم تعرف السيدة سوزان ما تفعله غير ذلك لئلا تزعج ابنها الذي اعتبر كل ما تقوله وتفعله خطأ حتى كاد أن يطلب منها ألا تتنفس. حاولت أن تلتزم الصمت وتمتنع عن التعبير عن رأيها قدر المستطاع حيال ما يجري حولها. باتت تعاني من ألم مبرح في ظهرها وعنقها، ولكنها اعتبرت صحة وراحة ابنها أكثر أهمية من راحتها وصحتها. لطالما نجحت في توفير حياة مريحة لدنيز منذ اليوم الذي ولد فيه. وصممت ألا تغير هذا الأسلوب الآن. فحتى وهو طفل رضيع، وضعت له برنامجاً غاية في التنظيم لنومه وتغذيته. وقررت ألا تدع هذا النظام يتعطل الآن بعد كل تلك السنوات. فقد أدركت أنه لا يستطيع أن ينام في أي مكان سوى سريره وأنه حتى لا يستطيع تغيير وسادته. ولهذا السبب، لم تكن تحب أن تزور الأقارب في المدن الأخرى أثناء طفولته وعانت من وقت عصيب في ترتيب الرحلات بين الدول. لا شك أن دنيز كان

ولداً مطيعاً، ولكنها وجدت صعوبة في التعامل مع مبادئه. ومع ذلك، فقد قررت السيدة سوزان أن تغوص في أعماق أخطاء شخصيته الآن بعد أن عرفت أخيراً ما يجب عليها فعله. فتلك المشكلة، التي لم تكتشفها من قبل أو آثرت حتى ألا تلاحظها، شكّلت السبب الرئيس لكل مشاكله. اعتزمت ألا تغادر اسطنبول قبل أن تحلها وأن تتحكم بنفسها بكل طريقة ممكنة وتمتنع عن الانجرار إلى أي مشادة مع ابنها. قبل قليل فقط، قرأت في الصحيفة كيف يبكي الناس على فقدان أطفالهم. فقد ذكر أحد المقالات أن عائلة ما لم تتحدث إلى ابنها لمدة عشرة أيام. فاختفى ولم يعد أحد يعرف مكانه وكأنه تلاشى من على سطح الأرض. وبدؤوا يعطون أمه أدوية مهدئة واحداً تلو الآخر. ففكرت السيدة سوزان في نفسها: "أترين؟ ينبغي على المرء ألا يترك أولاده من دون مراقبة مهما بلغوا من العمر. فإن مر أسبوع ولم يتصل بك ولدك، عليك أن تتصلي به أنت" فالأمومة شكّلت من وجهة نظرها واجباً مستمراً ومحاسبة دائمة للنفس. واعتبرت نفسها مسؤولة عن طفلها من اللحظة التي ولد فيها وحتى موتها. فلا يمكن للأم أن تقول أبداً: "لقد أصبح كبيراً بما فيه الكفاية الآن وبات بوسعه أن يعتني بنفسه"

بينما هي تفكر في تلك الأفكار، دخل ابنها إلى غرفة المعيشة وجفناه مثقلان بالنعاس. فحاولت جاهدة ألا تثير غضبه.

"صباح الخير، يا حبي

"صباح الخير

"لقد اعتدت في طفولتك أن تناديني يا ماما. فكنت أنا أقول يا حبي وأنت تقول يا ماما. ولم تكن لتتركني وحدي ولو للحظة"

"أمي..."

"حسناً... حسناً... إنني أمازحك وحسب. أحب أن أداعبك وأعبث معك"

"هل يفترض أن يكون هذا مضحكاً؟ هل يجب أن نضحك؟"

"حسناً، يا حبي. لم أقل شيئاً. هل تريد أن تتناول الفطور؟"

"لست جائعاً بعد"

"ولكن، مع ذلك يجب أن تأكل شيئاً قبل أن تبدأ الدراسة. لدي بعض الجبن الجيد. هل تريد أن أعد لك شطيرة جبن؟"

"نعم، يا أمي، أعديها. ينبغي أن آكل قبل أن أبدأ الدراسة"

"بالطبع. حسناً، تعال اجلس هنا. فقد حان الوقت لأنتقل إلى الكنبة على كل حال"

قبل أن تخرج من غرفة المعيشة وتدخل إلى المطبخ وفنجان القهوة والصحيفة في يدها، قال دنيز: "هل يمكنك أن تعطيني الصحيفة، يا أمي؟"

"تفضل، يا عزيزي. اقرأها، ولكن لا تشعر بالإحباط، اتفقنا؟ توجد فيها بعض القصص الكئيبة. لا شيء يسير على ما يرام في هذا العالم. أتعرف لو أنني فكّرت في هذه الطريقة التي أفكر فيها الآن قبل سنوات، لكنت أعدت التفكير قبل أن آتي بك إلى هذه الحياة. إلى أين سيؤدي هذا العالم؟ يقولون إن هذا الصيف سيكون الأشد حرارة منذ خمسين سنة. إن درجات الحرارة فوق المعدل. كتب أحد الصحفيين عن جزيرة لابالما، وهو مقال مثير للاهتمام. يقول علماء الجيولوجيا إن لابالما ستغرق بشكل مؤكد يوماً ما، ولكن السؤال هو متى سيحدث هذا؟ ضمت يديها إلى بعضهما البعض وأمالتهما جانباً قليلاً ثم واصلت كلامها قائلة: "إن لابالما جزيرة تقع على الشكل التالي، أي على جزأين، وهي عبارة عن قطعتي أرض

شكّلت الشلالات شرخاً بينهما. يقولون إن هذا الشرخ سيكبر في يوم ما وستصبح المسافة بين الجزيرتين زلقة وسيغرق السد الذي في الأعلى في المحيط. لا يعرفون متى سيحدث هذا. فربما يحدث غداً وربما بعد مئة سنة، ولكن ما الذي سيحدث عندما يغرق ذلك الجزء؟ ستتغير كل خريطة شواطئ البحر المتوسط وحتى العالم، أتدرك ذلك؟ لو أنني أعرف أن العالم سيصبح مكاناً خطيراً إلى هذا الحد، لما أنجبتك. لقد اختفى شاب للتو، ألم تعرف ذلك؟ هذا خبر سيئ آخر بالنسبة إليك. إن والديه مفجوعان. كما أن معدلات الجريمة في ارتفاع"

عندما انتهت أمه من ذكر آخر جملة قالتها، تحركت حنجرة دنيز من الأعلى إلى الأسفل بشكل ملحوظ. ففتح الصحيفة بغضب وهو يعرف أين سينظر؛ في الصفحة الثالثة، حيث تنشر كل الأخبار الرخيصة والسيئة. ظل صوت السيدة سوزان مسموعاً من المطبخ وهي تسرد حقائق عن الجزيرة. فبحسب قولها، فالمكان الوحيد الذي لا ينبغي على المرء الذهاب إليه في إجازة هو لابالما. نعم، ذلك هو المكان الوحيد الذي لم يعد ينبغي عليهما الذهاب إليه.

* * *

"أوكان ألكان، الذي اختفى قبل أربعة أيام، كان طالباً في الكلية، ولكن لا توجد أي معلومات عن مكان تواجد ابن المحامي المشهور آيدين ألكان، وهو من أبرز المحامين في أنقرة. أعلن الوالدان أنهما تحدثا إلى ابنهما، الذي كان يدرس في اسطنبول ويعيش فيها، قبل عشرة أيام على اختفائه. ووفقاً لإفادتهما، لم يتمكنا من الوصول إلى أوكان عندما اتصلا به قبل أربعة أيام. فاتصلا بالشرطة عندما لم يسمعا أي خبر منه في الأيام التي تلت. يدرس أوكان ألكان في

السنة الأخيرة في جامعة ميمار سنان. قال ألكان الأب، الذي يعرف عنه خدمته لنواب في الحكومة، إنه سيبذل كل ما في طاقته لينجح التحقيق في العثور على نجله"

عجز دنيز عن استكمال قراءة بقية المقال عندما بدأت يداه ترتعشان، وتشكلت غصة في حلقه وهو يتساءل إن حانت بداية النهاية. فحتى هذا اليوم، تملكه خوف مصطنع لا أساس له. ومع ذلك، فقد بات الآن مدركاً أن الشرطة باتت متورطة بالموضوع وآن أوان الرعب. سر كثيراً لأنه لم يرد على مكالمة لطفي الأخيرة. فقد كانت الشرطة على الأرجح تلاحقه بعد أن ورطت لطفي في العملية على حد سواء. قفز دنيز على قدميه فجأة عندما خطرت بباله فكرة مفاجئة وبدأ يذرع الغرفة ويداه على خصره. كيف حدث أنه لم يفكّر في هذا من قبل؟ ماذا إن تتبعوا الإشارات من هاتفه الخليوي؟ أليس من الممكن لهم أن يعثروا عليه بتلك الطريقة؟ لم لا؟ توجب عليه التخلص من الهاتف بأسرع وقت ممكن. ماذا يسعه أن يقول لأمه عندما تسأله عنه؟ ربما يقول لها إنه ضاع أو سرق. إلى أين سيقول لها إنه ذاهب؟ إلى الكلية ربما. ماذا سيفعل في الخارج لبضع ساعات في الوقت غير المعتاد للخروج؟ بعد قليل، وجد أمه تلاحقه بنظرها وفي يدها طبق ومنديل عند باب غرفة الجلوس، ثم قالت: "هل أنت بخير، يا بني؟"

أخذ دنيز نفساً عميقاً وشعر أن بوسعه أن يمشي في أية لحظة إلى أمه ويخنقها. اصمتي للحظة واحدة فقط. ألا يمكنني أن أحظى بدقيقة أفكر فيها في هذا البيت؟ تثرثرين طوال الوقت. إنها في كل مكان تلك المرأة! بدت عينا السيدة سوزان مفعمتين بالقلق وكأنها قرأت أفكاره. وكادت أن تظن أن ابنها فقد صوابه. مشى دنيز نحوها

وسحب الطبق من يدها وألقى به على الطاولة. ودون أن يتفوه بكلمة واحدة، توجه إلى غرفته وارتدى ملابسه وفتح الباب وهو يتمتم شيئاً لنفسه.

"إلى أين أنت ذاهب؟"

"تنقصني بعض الملاحظات. سأذهب إلى الكلية لأحضرها"

"لم تأكل شيئاً. يجب أن تأكل. على الأقل، خذ الشطيرة معك وكلها على الطريق"

عندما انتزع دنيز الشطيرة، لم ينتبه ليده الأخرى التي شدها على شكل قبضة على جنبه. إلى جانب كل شيء آخر يشغله، شعر أن الشيء الوحيد الذي يريد القيام به الآن هو التخلص من أمه. وأدرك أن لكمة واحدة يمكن لها أن تتولى أمرها. أما الباقي، فقد بدا سهلاً. لم يكن من الصعب كسر عنقها. إذ من الواضح أنها لم تكن ستصمت على كل حال. وعندما استفاق دنيز من تلك الأفكار الشريرة، لم يعرف كم من الوقت مضى عليه وهو واقف هناك، ولكنه استطاع أن يرى الخوف في عيني أمه. وللمرة الأولى، لمصلحتها هي، لم تسأل السيدة سوزان دنيز عن سبب احمرار وجهه وضيق عينيه بل أغلقت الباب خلفه بصمت.

* * *

قادته خطواته إلى بشكطاش من دون أن يدري. ربما فكر في أنه إن ألقى بهاتفه في النهر، فسيشعر بالراحة كالمجرم الذي يلقي بمسدسه في الماء وأن الكابوس سينتهي عند ذلك الحد، وهكذا لن يخشى شيئاً بعد الآن ظناً منه أنه لم يترك أي أثر يدل عليه. بعد أن تخلص من الهاتف وألقى به في أعماق النهر، جلس في المقهى بجانب الماء وطلب لنفسه فنجاناً من القهوة واستمتع بالهدوء لجلوسه

لوحده للمرة الأولى منذ وقت طويل. لم يكن شخصاً يشكك بأفعاله بعد أن يقوم بها. فلم يسأل نفسه من أين أتى ذلك الغضب الذي تملكه أو إن أراد فعلاً قتل أمه. فقد أيقن أنه مهما وصل به غضبه، فلا يمكن أن يلحق بها الأذى. وحتى لو أراد أن يؤذيها، فلم يكن يستطيع ذلك. فقد ظلت أمه تشكل بالنسبة إليه عادة سيئة أو إدماناً لا يستطيع الإقلاع عنه.

بعد أن تملَّك السيدة سوزان خوف شديد من نظرات عيني دنيز، أخذت الهاتف حالما غادر وطلبت الرقم الذي أعطاها إياه الدكتور إيرول.

"صباح الخير، مكتب أورهان بسمان"

"صباح الخير. سوزان كيستلي تتحدث إليك. هل يمكنني التحدث إلى السيد بسمان من فضلك؟"

"لم يصل بعد، يا سيدتي. هل يمكنني مساعدتك؟"

"في الواقع، أريد أن آخذ موعداً"

"بالطبع. دعيني أحدد لكِ الوقت المناسب. انتظري لحظة من فضلك... حسناً، يوم الخميس القادم عند الساعة الثالثة مساء هناك موعد مفتوح. هل يناسبك هذا الموعد؟"

"أليس لديك موعد أبكر؟"

"كلا، لسوء الحظ، يا سيدتي

"حسن إذاً"

"ما اسمك مرة أخرى، من فضلك؟"

"سوزان كيستلي. حسناً، إن الموعد ليس لي بل لابني

"هل يمكن أن تعطيني اسمه إذاً؟"

"دنيز كيستلي

"كم عمره؟"

"21 عاماً"

"حسناً، السيد كيستلي. هل يمكنك أن تطلبي من ابنك الحضور قبل الموعد بخمس عشرة دقيقة؟ إذ سيتوجب عليه أن يملأ بعض الوثائق"

"بكل تأكيد"

"حسناً، طاب يومك"

"أرجو المعذرة. لدي سؤال آخر إن لم تمانعي

"بالطبع، تفضلي

"في الواقع، أريد أن أتحدث إلى السيد بسمان قبل أن يقابله ابني لأنني أود أن أعطيه بعض المعلومات"

"لا أظن أن هذا ضروري، يا سيدة، كيستلي، فالسيد بسمان ملتزم بالخصوصية والسرية في علاقته بالمرضى"

"كلا، دعيني أشرح لك، يا آنسة. سيكون من الأفضل بالفعل لو تمكنت من التحدث إلى السيد بسمان قبل الجلسة. فأنا أظن أن لدي وضعاً خاصاً هنا. بالإضافة لذلك، هل يمكنك إخباره أنني حصلت على رقم هاتفه من الدكتور إيرول؟"

"الدكتور إيرول؟"

"نعم، الدكتور إيرول كارغوز"

"هل تريدينني أن أخبره أنك حصلت على الرقم من الدكتور إيرول كارغوز؟"

"من فضلك. إنني أقدِّر لك صنيعك إن سمحت لي بالتحدث إليه أولاً"

"كما قلت لك، لا أظن أنه من الضروري أن تفعلي هذا. فالسيد

بسمان رجل ملتزم بمبادئه"

"أصغي إلي، يا آنسة. إن ابني يبلغ الحادية والعشرين من عمره فقط وهذه أول مرة يزور فيها عالماً نفسياً"

"تقصدين معالجاً نفسياً، يا سيدتي

"نعم، معالج نفسي. على كل حال، فسوف يخوض ابني هذه التجربة للمرة الأولى في حياته وأظن أنه من المفيد أن أعطي بعض المعلومات المسبقة للسيد بسمان"

"هذه وظيفة السيد بسمان، يا سيدتي. إن علاقته بمرضاه سرية للغاية. فحتى أفراد العائلة لا يسمح لهم بالتدخل. وبالإضافة لذلك، فابنك قد تخطى الثامنة عشرة من عمره، أي إنه رجل ناضج. ولهذا السبب، ليس بحاجة إلى تدخل من أحد أبويه في علاجه"

عندما أغلقت السيدة سوزان الخط، تملكها شعور بأن مطرقة ثقيلة ضربت رأسها. لماذا أصبح الجميع صعبي المراس بهذا الشكل؟ ماذا يعني أن ابنها راشد ويتجاوز الثامنة عشرة؟ من الواضح أن تلك المرأة لم يكن لديها طفل ولا تعرف أن على الأم أن تحمي ولدها مهما بلغ عمره. لم يخامر السيدة سوزان شك في أن المعلومات التي أرادت أن تعطيها للسيد بسمان مفيدة. فمن يمكن له أن يعرف ابنها بشكل أفضل وأقرب منها؟ أخذت نفساً عميقاً لتسترخي وعندما فعلت ذلك، داهمت رائحة جديدة أنفها. إنها رائحة الموت.

في تلك اللحظة بالذات، أجفلت من سماع صوت إغلاق الباب. فقد عاد دنيز في وقت أبكر مما توقعت وهو يبدو أكثر هدوءاً بكثير. ترى هل هذا توقيت مناسب لتخبره به عن الموعد؟ أم أنها سترى النظرة الجامحة نفسها في عينيه مرة أخرى؟

"عدت مبكراً يا حبي

"لقد سرق أحدهم هاتفي وأنا في الطريق. وبما أنني لم أتمكن من الاتصال بصديقي عندما وصلت إلى هناك، فقد عدت أدراجي

"آه، يا إلهي! حقاً؟ هل أنت بخير؟ إذاً، دعنا نذهب ونشتري لك هاتفاً جديداً اليوم. يجب أن يكون لديك هاتف"

جلس دنيز على الأريكة وهو يهمس قائلاً: "بالطبع، يجب أن يكون لدي هاتف" وشغل التلفزيون وهو يتمنى أن يتوقف عقله عن العمل ولو للحظة واحدة.

21

بعد أن أدخل حامد الأسماء التي تبدأ بحرف الياء، نظر إلى ساعته ووجدها تتجاوز العاشرة والنصف بقليل. فقال في نفسه: "حان وقت الذهاب" ذكره صوت القرقرة الصادر من معدته بجوعه. ولم يكن قد أكل أي طعام منذ بضع ساعات. فقد قضى غضبه على أي شهية لديه للأكل، ولكنه شعر أنه يجب أن يدخل أي شيء إلى معدته. أحدث إدخال أرقام الهواتف إلى هاتفه الجديد تأثيراً علاجياً عليه. فقد تذكر العديد من الأسماء من جديد واستعاد بعض الذكريات السارة والبغيضة في آن معاً. وهكذا، فقد أمضى ثلاث ساعات مليئة بالشاعرية. أدرك أن بعض أصحاب هذه الأرقام لم يعودوا على قيد الحياة. فشطب تلك الأسماء بالقلم. وبعد ذلك، أدرك أنه لم يعد يقابل أصحاب بعض الأسماء منذ وقت طويل. فوضع ملاحظة تذكره أن يبذل بعض الجهد في سبيل معاودة الاتصال بهم. لم يتحدث إلى لطفي منذ بعض الوقت أيضاً، ولكنه أيقن أن أموره تسير على ما يرام لأنه لم يتلقَّ منه أي اتصال. ومع ذلك، فقد قرر أن يتصل به في اليوم التالي ويتفقد أموره. تعجب من شدة نشاط ذلك الشاب وهمته. فقد استطاع أن يؤمن لبيته كل ما يحتاج إليه ربما أكثر من كثير من الناس ويعتني عناية جيدة بأمه، كما أنه حقق بعض الإنجازات الجيدة والصفقات المربحة، وهذا أمر جيد من دون شك، ولكنه لم يمنع نفسه من التفكير في أنه يتصرف بحماقة وتهور وحماسة زائدة للعمل. ومع ذلك، فقد أدرك حامد أنه سيتعلم درسه بمرور الوقت.

ألم يتعلموا جميعهم تفادي ارتكاب الأخطاء بالطريقة نفسها؟

دخل إلى المطبخ، وفتح البراد. فلم يجد فيه إلا بعض الطعام المغلف أعدته له الخادمة التي اعتادت أن تنظف له البيت وتعد الطعام مرتين في الشهر، ولكن مضى على ذلك الطعام خمسة عشر يوماً على الأقل. فلا بد أنه فسد على الأرجح. فترك مهمة التخلص منه للخادمة. إذ إنه لم يشعر برغبة بشم رائحة سيئة فوق كل شيء آخر تلك الليلة. فأخرج بودنغ الأرز الذي رماه في الثلاجة قبل قليل وبدأ يأكله بشهية كبيرة. كان ذلك الطبق من بين حلواه المفضلة التي يعدها ذلك المطعم بمهارة كبيرة. فكلما تناول طعامه هناك، حرصوا على أن يقدموا له بعض بودنغ الأرز مقابل سخائه بالإكرامية. تناول حامد طعامه وهو واقف في وسط المطبخ. ترى هل أعدوا هذا الطبق بأنفسهم أم أنهم طلبوه من مكان آخر؟ قال حامد لنفسه: "سأسألهم في المرة القادمة التي أذهب فيها إلى هناك" ولم يكن كسر الذراع في نظره يعني قلباً مفطوراً.

* * *

"أهلاً بك، يا أخ حامد"

"شكراً لك. هل سكيب هنا؟"

"إنه بانتظارك في الداخل

"شكراً لك"

عندما دخل حامد إلى الغرفة، ملأت رائحة عطر الليمون الثقيل أنفه كالعادة. فقد كان خالد سيليكبوكن يملك زجاجة من عطر الليمون المركز التقليدي تحوي على نسبة 85 بالمئة من الكحول بين يديه. وبعد أن يفرك يديه ببعض العطر، اعتاد أن يمسح ما تبقى منه على يديه على بعض خصلات الشعر المتبقية المسرّحة بعناية

على رأسه الأصلع. فإن زاره ضيف، وقف خلف مكتبه وانحنى قليلاً وأفرغ معظم الزجاجة بين راحتي يدي الضيف فور وصوله وهو يثني على فوائدها. فإن هم الضيف أن يرحل، فتح درجاً من أدراج مكتبه وأخرج زجاجة صغيرة من العطر وقدّمها للضيف كهدية وهو ينصحه باستخدامها.

اعتاد حامد كلما جلس مقابل خالد أن يفتح يديه بالضبط كطفل صغير أنهى حل واجبه المنزلي وينتظر الرائحة القوية. كانت كنية خالد، وهي سيليكبوكن، تعني لاوي الحديد. وعلى مرّ السنوات، أصبحت كنية خالد عبارة عن صفة توضع أمام اسمه أي: لاوي الحديد خالد. فقد اشتهر بين جميع من يعرفونه أنه رجل ذو بأس وقوة شديدين. واعتاد أن يلعب المصارعة مع الرجال الذين يعملون لديه بين الحين والآخر. وبالرغم من كبر سنه، إلا أنه لطالما غلبهم وهزمهم. شكّلت تلك القوة الأسطورية التي تمتع بها أهمية ضخمة بالنسبة إلى مهنته وساعدته أن يصبح ما هو عليه في حين أنه لم يكن يملك قبل بضع سنوات إلا مقهى صغيراً فقط. وكان والد خالد، موسى سيليكبوكن، أيضاً رجلاً يشرّف اسم عائلته. فقد اشتهر بين الناس بطوله الفارع الذي يبلغ مائة وثمانين سنتمتراً وجسده الضخم وخصره النحيل بالرغم من أنه مجرد سائق شاحنة يعود أصله إلى مدينة بورسا. كان أول شيء يفزع المتنمرين الذين اعتاد أن يصادفهم هو جزمته الشهيرة التي يصل طولها إلى ركبتيه والتي لم يخلعها قط. فأصبح جميع سكان حيه يحترمونه ويهابونه في آن معاً. وإن أتى بعض رجال العصابات من الأحياء الأخرى إلى حيهم، سارع موسى قبل غيره إلى التدخل ومعالجة الموقف. وقد تحدثت أخت موسى، أي عمة خالد، واسمها مينا، كيف تخلى أخوها عن قيادة الشاحنات

وفتح مقهاه الخاص الذي ورثه خالد منه بعد وفاته، على الشكل التالي:

"في تلك الليلة، جلست بانتظار عودة أخي من رحلة طويلة بين المدن. تأخر الوقت وبدأ النعاس يثقل جفوني، ولكن لا يسعني القول إنني غفوت بالفعل. فقد ظلت أذني ترهفان السمع إلى الطريق كما اعتدت أن أفعل كلما سهرت بانتظار أخي العزيز. وعلى كل حال، أظن أن الساعة كانت تشير إلى الواحدة أو الثانية بعد منتصف الليل عندما سمعت صوته وهو يركن الشاحنة أمام المنزل. فنهضت على الفور لأحيي أخي وفي الوقت عينه لأعد له شيئاً ليأكله. فتحت له الباب ورأيت البخار المتصاعد من الشاحنة يغطي الباحة برمتها وكأنه ضباب كثيف. يا لها من ليلة! بدا القمر أشبه بطبق مستدير في السماء يشرق من خلفه. رأيت ظل أخي يمتد حتى أطول منه. خبط باب الشاحنة بقوة وتقدم نحو البيت. كيف يسعني أن أصف تلك اللحظة؟ رأيته أشبه ببطل من القصص الخيالية وهو ينتعل جزمته كعادته. وعندما وصل إلى الباب أخيراً لاحظت وجود دماء على يده. فصحت قائلة: "يدك، يا أخي! إنها تنزف!" فقال: "كلا، إنها لا تنزف، ولكنني طعنت ليلى جمعت بينه وبين ليلى علاقة... حسناً، لا بد أنك تفهم قصدي. وكانت تعمل راقصة، ولكنها كانت امرأة فائقة الجمال. لا أعرف لماذا طعنها أخي. فعل ذلك أمام الناس من دون أن يخشى القبض عليه. عندما أوينا إلى فراشنا تلك الليلة، عجزت عن النوم. من أين لي أن أنام؟ هذا مستحيل. رحت أفكّر في ما سيحدث لأخي. في اليوم التالي عندما استيقظنا، حضرت له الفطور. وعندما أوشكنا أن ننتهي، وصلت الشرطة وألقت القبض عليه. أمضى بعض الوقت في السجن بالطبع. وتعرف ماذا؟ شاركه في الزنزانة شاعر من

أشهر شعراء تركيا على مر الزمان. اعتدت أن أزوره مع ابن عمك مالك الذي لم يتجاوز السادسة أو السابعة في ذلك الوقت. فكنا نهرِّب لأخي ولذلك الشاعر المشهور بعض الحشيش مخفياً داخل قميص مالك. وبعد ذلك، تم إطلاق سراح أخي، ولكنه توقف عن قيادة الشاحنة. وبعد ذلك، فتح المقهى. ليبعد الله عنه سوء الحظ"

لم تستطع مينا أن تحمل نفسها على قول كلمة "والدك" عندما حدثت خالداً عن أبيه لأن موسى كان والده بالتبني. فقد عثر موسى على خالد في الشارع وهو في الخامسة من العمر بعد بضع سنوات على خروجه من السجن وفتحه للمقهى. وجده مهجوراً وملطخاً بالقاذورات فأخذته الشفقة بحاله. وبما أنه أيقن أنه لن يتزوج وينجب أطفالاً من صلبه، فقد قرر أن يأخذ هذا الطفل تحت جناحيه وأحبه وكأنه من لحمه ودمه. نشأ خالد في المقهى وهو يساعد أباه ويحفظ كل حركة يقوم بها عن ظهر قلب وكل كلمة يتفوه بها ومنح أباه حباً واحتراماً لا حدود لهما. وشعر بالفخر عندما لاحظ مقدار الحب والاحترام الذي أبداه له الآخرون. لم يتورط موسى في عالم الجريمة مطلقاً. فالجريمة الوحيدة التي ارتكبها حدثت بدافع من الحب. ولم يكن أكثر من مجرد رجل فظ، ولكن بطريقة جيدة، يحمي الطيبين ويعادي الأشرار. عندما توفي بعد سنوات، ترك كل شيء يملكه لخالد. وكان خالد عاملاً مجتهداً، فعمل على تطوير المكان حتى أصبح ملتقى لكل المدراء ذوي الأهمية الكبرى. وبما أنه تعلم جيداً أسلوب الرجل الفظ من والده، فلم يستغرق وقتاً طويلاً ليجذب بعض الانتباه من الكبار. وفي غضون وقت قصير، أصبح أهم اسم في بورسا إلى أن انطلق منها إلى اسطنبول. والآن، بات يمسك بخيوط هذه المدينة الكبيرة ويستطيع أن يفعل كل ما يريد. وأصبح الجميع

ينتظرون سماع أوامره كالجنود. فلم يكن أي شيء يخرج من بين شفتيه مجرد طلبات بل أوامر يجب تنفيذها. لم يتزوج خالد لاوي الحديد كأبيه بالضبط إما لأنه لم يعثر على المرأة المناسبة أو الوقت المناسب. وعندما أدرك أنه تقدم في السن، أراد أن يحذو حذو أبيه في كرمه وسخائه ويغير قدر طفل صغير. وكان مصطفى، وهو الشاب الذي استقبل حامداً عند الباب في وقت سابق وأدخله إلى مكتب خالد، ابن خالد بالتبني. وكان يعشق أباه ويتطلع لسماع أي طلب منه لكي يتمكن من أن يثبت له أنه يستحق حبه. فأغدق عليه خالد كل ما يشتهي من سيارات وفيلات وأراضٍ. وفوق كل شيء، فقد منحه تاريخ عائلة أسطوري من الصعب العثور عليه.

"أهلاً بك، يا أخ حامد. هل أنت بخير إن شاء الله"

"الحمد لله، يا أخ خالد. إنني بخير. وأنت أيضاً تبدو على ما يرام"

"إنني على ما يرام. الطقس حار بعض الشيء فقط، ولكن هذا العطر يصنع العجائب. هل تريد المزيد منه؟"

"شكراً لك، يا أخي. أعتقد أن ما أعطيتني إياه كافٍ"

"الآن، يا حامد. إن السبب الذي دفعني لاستدعائك إلى هنا هذه المرة هو أن هذه المهمة أكثر دقة وتفصيلاً من غيرها بقليل. وبالإضافة لذلك، فأنا لا أحظى بفرصة رؤيتك. إننا نفتقد وجودك هنا"

"شكراً لك، يا أخي. إنني في خدمتك"

"حسناً، ما الذي كنت أقوله؟ إن المهمة مختلفة هذه المرة. والآن، هل تعرف سايمون؟"

"من، يا أخي؟"

"سـايمون. إنه طبيب أسـنان. لقد عمل طبيب أسـنان للنخبة هنا في اسـطنبول. وبعد ذلك، تورط ببعض الأعمال غير المشـروعة هنا ثـم انتقـل إلى سـايل. فسـاعده بعض الأصدقاء من الأغبيـاء التافهين وأنقذوه من ورطته، ولكن ذلك التافه لم يتعلم الدرس. فقد بدأ يعمل بإقـراض المـال، فأسـاء هذا إلى بعض أصدقائنـا. ذلك التافه اللعين! من يظن نفسـه ذلك السـافل؟ أرسـلنا له بعض الرسـائل. وطلبنا منه أن يتوخى الحذر، ولكنه لم يصغِ إلينا. والآن، بدأ هذا الوضع يقض مضجعي. بالإضافـة إلـى ذلك، يجـب علينا أن نقدم مثـالاً حياً أمام الناس. سـأعطيك عنوان بيته. أقدر لك صنيعك إن توليت أمره. هل يمكنك أن تحضر لي أسنانه؟"

"أسنانه؟"

"نعم، أسنانه"

"الاثنين وثلاثين سناً"

"كل ما يحوي فمه من أسنان. هل يشكل ذلك مشكلة؟"

"لا مشكلة، يا أخي

"حسناً. بالتوفيق إذاً"

"شكراً لك"

"هناك شيء آخر أيضاً"

"بكل تأكيد"

"ابن أختك... رآه أحدهم مع مفتش شرطة ذات يوم في مكان ما في باكيركوي"

"لطفي؟"

"نعم، عنه أتحدث"

"شكراً لك، يا أخي

"هل تريد شيئاً مني؟"

"أريد أن تظل سالماً"

"شكراً، يا أخي، وأنت أيضاً"

طلب حامد رقم لطفي حالما خرج من عند خالد، ولكنه قرر في اللحظة الأخيرة ألا يتصل به. لم يسر بالكلام الذي سمعه على الإطلاق ليس لأنه ظن أن لطفي متورط بشيء خطير بالفعل، ولكنه اعتبر أنه من الأفضل ألا يترك حذره في مهب الريح. لم يغب عن ذهنه تهور ذلك الفتى وسعيه للوصول إلى أهداف كبيرة قبل أن يتقن كل قواعد المهنة. ففضل أن يذهب إلى بيته بدلاً من أن يتصل به. نظر إلى الساعة ووجدها تشير إلى الثانية عشرة تقريباً، وهذا بالطبع وقت متأخر بالنسبة إلى زيارة منزلية، ولكنه لم يعتد أن يؤجل عمل اليوم إلى الغد. لم يكن العبور إلى الجانب الآسيوي في هذا الوقت المتأخر من الليل سيتطلب منه أكثر من خمس عشرة دقيقة. فركب سيارته واستمتع بالقيادة بسرعة لمرة واحدة من دون ازدحام السير. كم بدت جميلة تلك المدينة في ليلة كهذه؟ ليالي أول الصيف ونسماتها العذبة تلك كانت لطيفة جداً لدرجة تجعل المرء ينسى كل همومه أو بالأحرى يكاد ينساها فقط. فالمشكلات التي واجهها حامد لم تكن لتنتهي قط ولم يكن ليسمح لنفسه بنسيانها. سأل نفسه قائلاً: "من أين أتت مسألة الأسنان الآن؟ كيف سأقتلع أسنانه؟" وضع يده على فكه من دون أن يدرك ذلك. منذ طفولته، لازمته المعاناة من آلام الأسنان. إلى أن قام صديقه وطبيب أسنانه كاظم باقتلاع كل شيء لديه في فمه وتركيب طقم جديد له قبل عامين، اعتاد حامد أن يتلوى من الألم ثلاث مرات في الشهر. فكان يتقلب ويتلوى في سريره ويتجرع كميات كبيرة من الشراب ليخدر الألم ثم يتعامل مع

آثاره في اليوم التالي. لم ينجح أي علاج طبي بالنسبة إليه. فلم تسبب له مسكنات الألم التي تعاطاها إلا الدوار وضبابية الرؤية. وبالرغم من أنه لم يعانِ من ألم الأسنان ولو لمرة واحدة خلال العامين الماضيين، فكلما علق شيء بين أسنانه، راح ينتظر بنفاد صبر عودة الألم وهو يضع يده على خده.

ساعده اطلاعه نوعاً ما على تلك المهنة على معرفة ما يجب عليه أن يستعمله ليقتلع الأسنان. فقد رأى كاظم يستخدم أداة تشبه الكماشة، ولكن المسألة المهمة تكمن في معرفة المكان الذي يمكنه منه الحصول على تلك الأداة. من يبيع أدوات أطباء الأسنان؟ وأين؟ في إيمينونو؟ أم في سيسلي؟ وإن توجب عليه أن يقتلع كل سن على حدة، كم من الوقت ستتطلب المهمة؟ خمس دقائق؟ عشر دقائق؟ فكّر في أنه سيحتاج ثلاث ساعات على الأقل. قال حامد في نفسه: "إن اشتريت كماشة إضافية وأعطيت عيسى مزيداً من المال، فعندئذ لن أضيع الكثير من الوقت. الآن، تلك فكرة جيدة" عندما دخل ميسيديكوي وانعطف إلى جادة الجسر، هاله الازدحام الكبير الذي وجده ممتداً أمامه. لو أنه استخدم الطريق الآخر بدلاً من هذا، وذهب إلى بشكطاش ثم حاول أن يصل إلى الجسر ربما لما توجب عليه أن يعلق في هذا الزحام اللعين، ولكن فات الأوان على تغيير رأيه الآن ولم يعد يملك شيئاً سوى الانتظار. صاح قائلاً: "لقد قضي على اسطنبول. انتهى أمرها. لم تعد هذه الطرقات تستوعب هذا العدد الكبير من السيارات في هذه المدينة. وحتى لو بنوا جسراً خامساً، فلن يفلح هذا. كيف تحدث أزمة مرورية على الجسر في الساعة الثانية عشرة منتصف الليل؟ إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس؟ ومن أين يأتون؟" في ظل ظروف أخرى، ربما توجب عليه أن يذهب

لمقابلة لطفي في اليوم التالي. إذ لم يكن من اللطيف أن يوقظ آيز في ذلك الوقت المتأخر. شغل الراديو وراح يقلب المحطات لبعض الوقت. فوجد أحد البرامج الحوارية الليلية يتحدث عن رحلة سفاري إلى الهند. سرد المتحدث قصته بصوت سلس ولطيف ولكن شديد الثبات. فقال إنه لم يستطع أن يحدد مدى استعداده عندما ذهب للمرة الأولى للصيد، ولكنه تمنى طوال حياته أن يذهب لصيد غزلان الرنة. لم يجد حامد ما يفعله سوى الإصغاء إلى القصة ليقتل الوقت. بدأ راوي القصة رحلته في وقت مبكر من الصباح برفقة بضعة صيادين متمرسين وبضعة أشخاص منِ سكان الهند الأصليين. بعد عدة ساعات من المشي، اختار أفراد المجموعة مكاناً ما وانتظروا فيه بصمت. وهكذا، فعندما التزم الجميع الهدوء، ازدادت أصوات الغابة من حولهم حيوية. شعر الرجل بالإثارة عندما بدأ يسمع حركات نقار خشب وكل حيوان زاحف وكل حشرة. وشعر أنه تغلغل عميقاً في قلب الأرض. وبعد انتظار طويل، سمعوا أخيراً صوت طقطقة وشاهدوا غزال رنة ضخماً يمشي ببطء من بعيد. فأشار إليه المتمرسون بإيماءة برؤوسهم أن الوقت قد حان الآن لأن يرفع بندقيته. فرفعها الرجل وضيق إحدى عينيه ونظر من خلال الثقب بالعين الأخرى. فرأى الحيوان عن كثب وفتن لرؤية شكل قرونه ولمعة وبره. التفت الغزال إلى البندقية فجأة ونظر إليها بشكل مباشر من دون أن يحرك ساكناً. فحبس الرجل أنفاسه، وشعر بالعرق يتصبب تحت قبعته ويسيل نحو جفني عينيه. لم تهتز يداه قيد أنملة، وأدرك أنه إن ضغط على الزناد فسيصيبه بين عينيه. فقال أحد الحراس له بهدوء: "الآن" فبدأ يسحب إصبع سبابته نحو الزناد، ولكنه لم يعد الآن واثقاً إن كان حقاً يريد أن يفعل ذلك. أخيراً، حانت اللحظة التي حلم بها طوال حياته

وشعر أن العالم بأسره ينتظره ملفوفاً بملاءة الصمت. فسأله صوت داخلي: "لماذا؟ لماذا أريد أن أقتل هذا المخلوق المدهش؟ لماذا أريد أن أنهي حياة هذا الشيء الجميل الذي يعيش في الأرض؟" أعاد دفع سبابته إلى الأمام. فالتفت الغزال إلى الجهة الأخرى ومشى خطوتين ثم التفت إلى الرجل ثانية وحدق باتجاهه وكأن لسان حاله يقول إنه يقف بانتظاره لأنه لا يعرف ما سيفعل بحياته إن لم يمت في ذلك اليوم. لمس أحد السكان الأصليين قدمه بلطف. فالتفت ليرى ما يريد قوله. فأشار الرجل الآخر إلى الجهة المقابلة قرب الغزال. وهناك رأى نمراً يتأهب للهجوم على الغزال كما ينتظر هو اللحظة المناسبة لاقتناص الفريسة. فوجَّه راوي القصة بندقيته إلى النمر هذه المرة وضغط على الزناد من دون تردد هذه المرة للحظة واحدة. لم يستطع أن يطلق النار على النمر مجدداً، ولكن الصوت نبه الغزال فجرى مبتعداً. وضع الرجل البندقية أرضاً وخلع قبعته ونظر أمامه ويداه على ركبتيه. لم يستطع أن يستوعب ما جرى إلا بعد أن عادوا إلى المخيم. فقد أظهرت له تلك التجربة كيف تتخذ الحياة اتجاهات متعددة ودوافع مختلفة. سأل مقدم البرنامج الذي بدا صوته شديد الشبه بصوت راوي القصة: "هل تريد أن تخرج للصيد مرة أخرى؟" فقال الرجل: "كلا" ما كنت أبحث عنه هو شيء آخر استطعت فهمه في ما بعد. إنه التحضير والمشي والانتظار. عندما سنحت لي الفرصة لأن أصغي لعواطفي في صمت الغابة المطبق، اكتشفت هويتي الحقيقية وما يمكنني أن أفعل وما لا يمكنني فعله. وعندما نظرت إلى عيني الغزال، أدركت أنني عاجز عن إيذائه" فسأل المذيع: "وماذا عن النمر؟" أجاب الرجل: "لقد اتخذت قراراً لحظياً خاصاً بذلك الموقف دون غيره. فلم أستطع أن أتحمل رؤية ذلك

المخلوق الرقيق يمزق إلى أشلاء أمام عيني، ولكنني لا أود أن أكرر ذلك مرة أخرى. إن هذا ربما فقط أشبه بمعرفة ما يجري في العالم والنظر إلى الجانب الآخر، ولكنني لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك. على الأقل، فإنني أختار ألا أشكل جزءاً منه. لقد أقلعت عن الصيد. ولم أعد أريد أن أخرج في رحلات صيد طوال حياتي. فبعد أن أدركت حقيقة العنف الذي ينطوي عليه الطقس الذي أحبه، توجب عليّ أن أقلع عنه إلى الأبد".

عندما انتهت القصة، كان حامد قد وصل إلى مخرج الجسر. وفجأة، تحسنت حركة المرور. فأطفأ الراديو وهو يقود سيارته عبر مخرج بيليرباي، وفتح النافذة ليدخل الهواء المنعش منها. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل. وهكذا، فقد وصل إلى هذا الجانب في وقت أبكر مما توقع. توجب عليه أن يعرف ما يجري مع لطفي. وبينما هو يقترب من بيتهما، فكّر في القصة التي سمعها لتوه، وقال لنفسه: "لقد توجب عليه أن يطلق النار على ذلك الغزال. نعم، توجب عليه ذلك"

* * *

نظر حامد إلى الشقة من بعيد، ولكنه لم يعثر على أي ضوء في غرفة المعيشة. فمشى إلى مؤخرة البناء ليتأكد من وجود أي حركة في الغرف الخلفية، ولكنه وجدها كلها غارقة في الظلام. وبعد أن تردد لبضع دقائق، رن جرس الباب من الطابق السفلي. ما الذي يسعه فعله؟ توجب عليهم أن يستيقظوا. مرت بضع دقائق، ولكن من دون أي رد. ومع ذلك، فلم يعرف أن آيز قفزت في سريرها من الخوف ولم يدرك أن الأمهات يفكّرن دائماً في أسوأ الاحتمالات في وقت متأخر من الليل. حدث ذلك بعد نصف ساعة أو خمس

وأربعين دقيقة فقط على إيواء آيز لفراشها. فنهضت بهلع عندما سمعت صوت رنين الجرس. ماذا يمكن أن يكون هناك؟ أيمكن أن يكون لطفي قد نسي مفاتيحه؟ بدت فكرة مستبعدة، ولكنها مع ذلك نظرت حولها على أمل العثور عليها لتثبت نظريتها لأنها لا تحب الاستسلام للحيرة. توجب عليها ربما أن تواجه الحقيقة التي تجاهلتها لسنوات. فقد توقعت أن تجد رجال الشرطة أو أن بعض رجال العصابات يبحثون عن ابنها عندما تفتح الباب. لطالما عرفت أن لطفي متورط ببعض الأعمال غير المشروعة، ولكنها لم تتمكن من أن تحدد الدرجة التي وصل إليها تورطه. وقالت: "إن تفاحة فاسدة واحدة تفسد بقية التفاحات" فهل وجد ذلك الفتى أي أمثلة جيدة من حوله؟ ذهبت إلى غرفة المعيشة وفتحت الستارة قليلاً على أمل ألا يراها أحد من الخارج. فلم تجد أحداً هناك بحسب ما استطاعت أن تتبين في الظلام. وقفت آيز في وسط الغرفة ويداها على فمها وحاولت أن تفكر. من أين أتى هذا الآن؟ ما الذي يسعها أن تفعله؟ رن الجرس مجدداً. ففكرت: "بالطبع، دعني أتصل بلطفي. ولكن ماذا إن أصيب بالهلع وحضر إلى هنا على الفور ووجد الرجال بانتظاره في الخارج ليقبضوا عليه. سأتسبب بالقبض على ابني. كلا، هذا لا ينفع" وبدأت تدعو الله هامسة: "أرجو فقط ألا يأتي لطفي إلى البيت الآن وأن يمضي ليلته في مكان آخر ثم خطرت ببالها فكرة أخرى. لم لا تتصل بحامد؟ ألم يطلب منها أن تتصل بها إن احتاجت أي شيء؟ وبالإضافة إلى ذلك، فهي لم تتصل به من قبل قط، ولا حتى لمرة واحدة حتى الآن. فأسرعت إلى المدخل وطلبت رقم حامد من الهاتف الأرضي.

أشعل حامد سيجارة وهو ينتظر في الشارع. وخطر بباله أن أحداً

ربما ليس موجوداً في البيت أو أن آيز تنام نوماً ثقيلاً. فلو كان لطفي في البيت، لفتح الباب على الأرجح على الفور. قبل أن يرن جرس الباب مرة أخرى، بدأ هاتفه يرن. وكانت المتصلة هي آيز. "مرحباً، يا آيز؟" بدا صوتها على الجانب الآخر هامساً ومتهدجاً.

"مرحباً، يا أخ حامد. هذه أنا. هل يمكنك أن تسمعني؟"

"نعم"

"إنني آسفة، يا أخ حامد. أعرف أن الوقت متأخر، ولكن هناك شخص عند باب البيت. الوقت متأخر كما تعرف، وهذا ما أصابني بالذعر. لا أدري من بالباب ولطفي ليس بالبيت. لست واثقة من أنهم حضروا للقبض عليه. إنني آسفة، يا أخ حامد، ولكنني بحاجة إلى المساعدة"

"أنا من يقف عند الباب، يا آيز"

"أرجو المعذرة؟"

"انظري من النافذة. هذا أنا"

وضعت آيز السماعة على الطاولة واقتربت من النافذة ببطء. وعندما سحبت الستارة جانباً، رأت حامداً يتراجع إلى الوراء نحو منتصف الشارع لكي تتمكن من رؤيته وهو يمسك الهاتف بيده. فأسرعت نحو المدخل.

"إنني آسفة، يا أخ حامد. سأفتح الباب"

بينما هي تفتح الباب، شعرت آيز بقلق ينهش قلبها. إذ إنها لم تعتد على رؤية حامد في مثل ذلك الوقت من الليل. ترى ما الذي أتى به؟ لا بد أن مكروهاً ما قد وقع. فتلك الزيارة لم تبدُ طبيعية. وبالإضافة إلى ذلك، فبالرغم من أنها شعرت بالأمان لوجود حامد بسبب صلة القرابة التي تجمع بينهما، إلا أنها أدركت أنه من أكثر

الأشخاص إثارة للخوف من بين دائرة الأشخاص المحيطة بها. تمنت وحسب ألا يكون لطفي قد ارتكب أي حماقة. فحامد آخر الأشخاص الذين يجب على المرء أن يعبث معهم. لم تشهد آيز أي شيء قام به بأم عينها، ولكن ما سمعته عنه من الآخرين بدا كافياً. قبل أن يموت زوجها، اعتاد أن يحترم حامداً كثيراً. فإن زارهم حامد، طلب منها زوجها أن تعد كل شيء بشكل جميل بالرغم من أنه لم يكن من عادتها ألا تفعل ذلك. وبينما هي تصغي إلى صوت وقع خطواته وهو يصعد الدرج، انتبهت آيز أنها لا ترتدي سوى قميص نومها، لذا أسرعت إلى غرفتها وغطت نفسها بردائها. وبعد أن فتحت الباب، شبكت ذراعيها أمام بطنها ووقفت بانتظار دخول حامد.

"مرحباً، يا أخ حامد. تفضل بالدخول"

"مرحباً، يا آيز. إنني آسف لأنني أيقظتك في هذا الوقت من الليل. آمل أنني لم أرعبك كثيراً"

"لا بأس. ظننتك شخصاً آخر

"من قد يأتي في مثل هذا الوقت المتأخر؟"

"لا أدري. من الصعب بالفعل أن يكون لك ابن. فأنت لا تعرف ما يجري معه قط، ولا سيما لطفي. تعرف أنه أخرق بعض الشيء وربما غبي في بعض الأحيان"

"وكأنني لا أعرف هذا"

"هل تريد أن أقدم لك شيئاً؟ هل أنت جائع؟ أم تحب أن تشرب الشاي؟"

"كلا كلا. شكراً لك مع ذلك. أريد فقط كأساً من الماء"

لم تستطع آيز أن تدرك سبب حضوره إلى هناك عندما دخلت إلى المطبخ. ربما أضاع مفاتيح شقته ولم يكن لديه مكان يمضي

ليلته فيه. كيف يسعها أن تسأله؟ أم أنه لا ينبغي عليها أن تسأله على كل حال؟ ما الذي سيفعلانه مع ذلك؟ هل سيجلسان مقابل بعضهما البعض هكذا؟ أم أنه من الممكن أن يكون هناك سبب آخر لزيارته؟ هـل ارتكـب لطفـي أي خطـأ؟ هل حدث مكروه للطفـي؟ كادت آيز أن تفقـد وعيهـا بسـبب هـذه الفكـرة. فقد خشـيت أن يكـون هذا هو السبب. وتخيلت أن مكروهاً قد وقع للطفي فنقل إلى المستشفى أو مـات فعـرف حامـد بالخبر ولم يجد طريقة ينقل لها بها الخبر. لا بد أن هـذا هـو سـبب حضوره. امتلأت عيناهـا بالدموع على الفور وبدأ جسـدها يرتعش وكأنه يلتهب بالنار. فجرت إلى الغرفة وهي تمسـك كأس الماء بيدها وسألته بصوت متهدج:

"هل وقع مكروه للطفي؟"

"ماذا؟ كلا. يا إلهي!"

"أخبرني الحقيقة، يا أخ حامد. حباً بالله، أخبرني الحقيقة الآن! أتوسل إليك هل وقع أي مكروه للطفي؟"

"كلا، يا آيز. توقفي من فضلك. إنني آسف جداً. لم يحدث له مكروه. أقسم على قبر والدتي. إنني آسف جداً بالفعل. لقد أخفتك، صحيح؟ بالطبع في هذا الوقت المتأخر من الليل. كلا، مررت لأقابل لطفي ليس إلا. يجب أن نتحدث حول شيء ما. إنه حتى ليس مهماً بل مجرد شيء له علاقة بالعمل. لن يتسنى لي الوقت للتحدث إليه غداً، وهذا هو السبب"

جلسـت آيـز مقابـل حامـد ونظرت إلى عينيـه. ترى هل قال لها الحقيقة؟ نعم، لا بد أنه فعل ذلك. استعادت هدوءها شيئاً فشيئاً. فلم يكن هناك ما تخشاه. فقد قال لها إنهما سيتحدثان عن أمور العمل. وهذه المرة، تغير شـكل الخوف الذي تملّكها. ترى ما العمل الذي

يجب مناقشته في منتصف الليل؟ لم يعجبها ذلك على الإطلاق، ولكنها فكّرت في أنها ستعرف كل شيء عما قريب أياً يكن. واصلا الجلوس وهما يحدقان إلى بعضهما البعض بصمت. لم يكن لديهما قط أي شيء يتحدثان عنه. فقد تكون هذه في الواقع أطول محادثة أجرياها على الإطلاق. تملَّك القلق حامداً من طول الصمت وراح ينظر حوله. لقد أثار الرعب تلك المرأة حتى الموت. ففكر في نفسه: "حسناً، في الواقع، إنها لا تزال تبدو فتية ومفعمة بالحيوية" كانت آيز قد تزوجت في سن مبكر جداً وأنجبت ابنها وهي لا تزال صغيرة السن. فكانت تلك المرة الأولى التي يراها بها بذلك الشكل: أي شعرها منسدل وهي مرتدية قميص نومها. وبالرغم من أنها حاولت إخفاء مفاتنها، إلا أنها أخفقت في ذلك. وبينما هو ينظر إليها من وجهة نظر مختلفة في تلك الليلة، أدرك كم بدت جميلة وجذابة، ولكنه لم يلاحظ ذلك حتى من قبل. وفجأة، تملكه شعور غريب لم يعجبه. فلطالما اعتبرها بمثابة أخت له مهما حدث. والآن، راح يفكر بهذا الهراء في وقت متأخر من الليل. حاول أن يتخلص من تلك الأفكار، ولكن لم يكن هناك أي شيء يمكنه فعله في هدوء البيت.

"لم لا تعودين للنوم، يا آيز؟ سأنتظر لطفي وحدي"

"آه، كلا. سأنتظر معك"

أرادها حامد أن تغادر الغرفة في أسرع وقت ممكن. فتنحنح ليتخذ صوته نبرة أشد حزماً، وقال: "هيا، اذهبي للنوم، يا آيز. هيا" ربما بسبب البريق الذي رأته في عينيه، أطاعت أمره هذه المرة. ولكن هذا لا يعني أنها كانت ستنام عندما تستلقي. على العكس من ذلك، فقد كانت ستظل ساهرة على سريرها وعيناها مفتوحتان إلى أن يغادر حامد وستصغي إلى كل صوت في المكان وستخاف من سماع وقع

خطوات تقترب منها.

* * *

بعد أن عادت آيز إلى غرفتها، لزم حامد مكانه، وأخذ يتأمل بعض الصور الموضوعة على طاولة القهوة بجانب الأريكة التي جلس عليها. فرأى صورة لامرأة شابة جالسة وسط كرمة هي على الأرجح والدة آيز وصورة للطفي وهو في الثانية أو الثالثة من عمره وصورة في استديو التصوير لآيز وزوجها الراحل في يوم زفافهما. عندما أمعن النظر في الصورة، كأنه فوجئ بها ولاحظ مدى جمال تلك المرأة. تذكر يوم زفافها وكأنه حدث بالأمس. فقد كانت الليلة بكاملها مليئة بالإثارة انتهت بنقل أحد المدعوين إلى المستشفى. أقيم الزفاف في قاعة الحفلات المخصصة للجيش بما أن والد آيز كان ضابطاً برتبة رقيب. فجلس ضيوف العريس والعروس في جانبين متقابلين منفصلين عن بعضهم البعض. جلس حامد وبعض الشبان الآخرين من عائلة العروس عند إحدى الطاولات وراحوا يصفقون لنساء العائلات الكبار وهن يرقصن ويسخرون من الرجال وهم يحاولون الرقص. وراحت الفتيات الشابات من ناحية أخرى يرقصن في إيقاع جميل وهن ينظرن إلى أكثر الشبان وسامة بين مجموعة الشبان. ظل الاحتفال يسير على أكمل وجه إلى أن اقترب أحد الشبان الشجعان من عائلة العريس من إحدى الفتيات من عائلة العروس وطلب منها رقصة. وربما كان الأمر مضى بسلام لو لم يقع اختيار أحد الشبان من جانب العروس على تلك الفتاة بالذات. فهزت موجة من الاحتجاجات طاولة حامد بينما حاول أن يهدئ غضب صديقه ونصحه بحل المشكلة في الخارج. فقد أدرك أن زوج خالته يراقبه وأنه لا يسعه أن يرتكب أية أخطاء في تلك الليلة بل عليه أن يقوم

بمجرد انتظار نهاية الرقصة. خرجت المجموعة كلها إلى الخارج وأرسلت شخصاً للشاب الشجاع يحمل رسالة تحد مقتضبة: "إن كنت رجلاً حقيقياً، فاخرج إلينا" وبعد خمس دقائق، خرج الشاب تصحبه مجموعته. ولم يستغرق الأمر أكثر من ثلاث دقائق لينشب شجار بين المجموعتين. ولم تكن لديهم نية أن يفهموا بعضهم البعض عن طريق المحادثة بل عن طريق قتل بعضهم. بعد ثلاث أو أربع دقائق على نشوب العراك، فهم الجنود الذين يحرسون باب القاعة ما يجري. راح حامد يراقبهم بطرف عينه وهو يكيل اللكمات لأحد الشبان الخصوم. وعندما رأى الجنود يهرعون نحوهم، هرب بصحبة صديقين من أصدقائه إلى مؤخرة المقر العسكري. وعاودوا الدخول إلى الحديقة التي أقيمت فيها حفلة الزفاف بأن قفزوا من فوق السور وهم يتصببون عرقاً ويلهثون. توجهوا نحو باب الخدمة محاولين ألا يلفتوا الانتباه. لم يمض وقت طويل حتى عاد الجنود الذين أوقفوا الشجار في الخارج إلى الحديقة وجدّوا في البحث عن الشبان الثلاثة. وبينما راح الأطفال يجرون في كل أنحاء المكان، واصل المدعوون الرقص في وسط المسرح. وبعد أن دخل حامد إلى المطبخ، أعطى بعض المال للرجال الذين يعملون هناك، وقال لهم: "هل لديكم بعض ملابس الخدمة الموحدة؟" فأشار الشاب إلى خزانة بابها موارب قليلاً. فارتدوا الملابس وانفصلوا عن بعضهم البعض وعادوا إلى الحديقة محاولين الابتعاد عن الجنود الذين لم يريدوا أن يثيروا القلق بين الحضور وتظاهروا أنهم يجمعون الصحون الفارغة. حاول حامد أن يبقي رأسه منخفضاً وهو يقوم بعمله، ومع ذلك فقد كان من المستحيل ألا يلاحظ الحذاء الجلدي اللامع الذي ظهر على الأرض تحت أنظاره. وعندما رفع رأسه، رأى وجه زوج

خالته المفعم بخيبة الأمل ونظرة الاشمئزاز في عينيه. قال: "اخرج من هنا الآن!" "نعم، يا عمي   وفي تلك اللحظة، بدأت الحلقة الثانية من أحداث تلك الليلة. فقد سمع صوت صيحة من مركز المسرح. إذ بينما أخذ شقيق زوج خالته يرقص بحماس ويحاول أن يستعرض مهارته في الرقصة الرومانية عن طريق حشر كأس الشراب بين حزامه وجسده، انسكب الشراب البارد داخل سرواله. فلم يدرك أحد التعقيد الذي نجم عن ذلك، ولكن عندما انحنى الرجل ليخفف من الضرر قدر المستطاع، انكسر الكأس وجرح بطنه. فشكلت هذه الحادثة بالنسبة إلى حامد الفرصة الأفضل لينال السماح من زوج خالته تلك الليلة، لذا تصرف بسرعة وخلع الزي الموحد وأسعف شقيق زوج خالته في سيارته إلى المستشفى. ترى هل لاحظت آيز ما جرى تلك الليلة أم أن انشغالها بسعادتها منعها من أن تلاحظ ذلك كله؟ بعد ذلك، بات الناس يتحدثون عنهم كأنهم أساطير بسبب هروبهم الرائع من الجنود، ولكنه لم يعرف إن وصلت تلك القصة إلى مسامع آيز.

رأى حامد صوراً أخرى على طاولة القهوة. وعندما تحرك ليأخذ واحدة منها، سمع صوت فتح الباب واستطاع أن يرى المدخل من مكان جلوسه. فدخل لطفي من دون أن يعرف ما ينتظره ورمى مفاتيحه في الطبق على المشجب وعلق سترته وداس على أخمص فردتي حذائه ليخلعهما ثم التفت إلى غرفة المعيشة وهو يهم بأن يسأل أمه: "لماذا أنت مستيقظة حتى هذه الساعة، يا أمي؟" وعندئذ، لاحظ وجود خاله.

"خالي؟"

"مرحباً، يا لطفي

وبالرغم من أنه قال لنفسه ألا شيء يستدعي الخوف، فقد غص

لطفي بريقه. ترى ما الذي أتى بخاله إلى هنا وأين ذهبت أمه؟ التفت بقلق نحو الجهة الأخرى من الممر حيث تقع غرف النوم. لم يعرف مما يخشى بالضبط. ترى هل تملَّكه خوف من أن يكون مكروه ما قد أصاب أمه، أو أن يكون خاله قد ألحق الأذى بأمه؟ أم أن القلق أصابه من مكروه قد يصيبه هو؟ في تلك اللحظة، رأى أمه واقفة عند باب غرفة نومها. رفعت يدها له مشيرة لتقول له إنها على ما يرام. فزاد هذا حتى من حدة توتره. لم لم تتكلم؟ هل حدث مكروه؟ عادت آيز إلى غرفتها بهدوء وتركت الباب موارباً. فدخل لطفي إلى غرفة المعيشة.

"آمل أن كل شيء على ما يرام، يا خالي. هل حدث مكروه؟"

"كلا، دعنا نتكلم قليلاً"

"حسناً، هل أعدت لك أمي أي شيء؟ هل تريد أن تشرب شيئاً؟ يمكنني أن أعد بعض الشاي"

"كلا، لا أريد شيئاً. اجلس

أراد لطفي في الواقع أن يذهب إلى المطبخ ليكسب بعض الوقت. ما الذي يعقل أن يكون قد حدث؟ هل حدث مكروه فيما يتعلق بقضية دنيز؟

"نعم، يا خالي

"هل كل شيء على ما يرام؟"

"الحمد لله"

"هل أنت بحاجة إلى أي شيء؟"

"شكراً لك، يا خالي. لا أريد سوى سلامتك"

"حسناً. لقد قابلت صديقاً قديماً اليوم وقال لي إنه رآك مع أحد مفتشي الشرطة. ماذا يعني هذا؟"

"

"هل هذا صحيح؟"

"نعم

"حسناً، لماذا؟"

"لا شـيء مهـم، يـا خالي. قبل فترة من الزمـن، اعتقلني أولئك الناس وبحوزتي بعض الممنوعات، ولكنهم عندما رأوا أنه ليس لدي أي شـيء مهم، أطلقوا سـراحي ثم طلب مني المفتش أن أحضر له بعض المعلومات بين الحين والآخر

"هل تسخر مني، يا لطفي؟"

"كلا، يا خالي. أصدقك القول. لا شيء مهم"

"بمن وشيت، أيها الوغد؟"

كان لطفـي علـى درايـة تامـة بغضـب خالـه المتفجـر. فقـد رآه يستشيط غضباً عدة مرات، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي يصب فيها جام غضبه عليه. وجعل بروز ذلك العرق في جبينه مظهره يبدو حتـى أكثـر إثـارة للرعب. لـم يرتكب أي عمل خطير، ولكن كيف له أن يتمكـن مـن إقنـاع خالـه؟ ترى هل أصغت أمه إلى حديثهما؟ راح صوته يتهدج وهو يتكلم ثانية:

"أقسـم لك، يا خالي، إنه ليس هناك أي شـيء مهم. لقد نقلت لهـم بعـض الأخبـار كلهـا ليسـت لها أية أهمية حتـى الآن. هل كنت لأقـول لهـم أي شـيء مهـم أو خطيـر؟ هـل تعـرف عيـادة المسـاج تلـك التـي ظهـرت علـى التلفزيون ذات يوم؟ تلـك التي يذهب إليها المشاهير؟ أشياء من هذا القبيل

"رأيتهـا، أيهـا المعـاق اللعيـن! هل تملك أيـة فكرة عمن يملك تلـك العيـادة؟ هـل لديـك أية فكرة عما سـيحدث لك إن عرفوا أنك وشـيت بهم؟ وأنت تمشـي في الأنحاء وتقول إنك ابن أختي! كيف

تقترح أن أتعامل معهم إن عرفوا أن الواشي هو أنت؟"

لم يرغب حامد أن تسمع آيز أياً من هذا الكلام، لذا حاول أن يخفض صوته قدر الإمكان، ولكنه وجد صعوبة في ذلك. فقد شعر أن غضبه بدأ يتصاعد ويتفاقم، ولم يعجبه ذلك قط. إذ إنه أدرك تمام الإدراك ما يمكن أن يفعله عندما يصل إلى لحظة فقدان السيطرة.

"أصغ إلي يا لطفي! لا تعبث معي وإلا قضيت عليك. الآن فكر. هل أخبرت ذلك التافه أي شيء آخر؟"

"أقسم إنني لم أفعل، يا خالي. أقسم لك إنني لم أفعل. أفضل أن أقتل نفسي"

"أصغ إلي الآن. لا أريد أن أسمع شيئاً من هذا النوع مرة أخرى وإلا كسرت عظامك. دعني أخبرك أنني لن أتوقف عند هذا الحد بل سأجعل حياتك جحيماً. أنت تعرف أننا قمنا بمهمة ما معاً، صحيح؟ إن سمعتك تذكر اسمي في أي مكان، فسأقضي عليك"

عندما كفَّ حامد عن الكلام، ظل إصبع سبابته مرفوعاً في الهواء بالقرب من وجه لطفي. فهم لطفي خاله كل الفهم وأيقن أنه يعني كل كلمة قالها، ولكنه لم يدرك من قبل أنه مرتبط بقنبلة بحبله السري. لم يكن يعتزم أن يخبر المفتش أكثر مما قاله، ولكنه أدرك الآن أن هذا القدر بحد ذاته شكل تهديداً لحياته. وحتى لو أقنع خاله الآن، فهل يمكن للمياه أن تعود إلى مجاريها بينهما بعد هذه الحادثة؟ هل سيشعر بالأمان مرة أخرى قط؟ أم أنه سيتفقد جلوس خاله في غرفة المعيشة بانتظاره كلما دخل إلى البيت من ذلك الوقت فصاعداً؟

جلست آيز في سريرها محاولة أن تسمع ما يقولانه. لسوء الحظ، لم تستطع أن تسمع إلا عندما رفع حامد صوته، ولكنها لم تفهم شيئاً مما قاله. وكانت العبارات "حياتك جحيم و"سأقضي

عليـك" مـن بيـن الكلمـات التـي سـمعتها، ولكنها كانـت كفيلة لأن تجعلها تخشى على حياتها وحياة وحيدها.

سمعت لطفي يأخذ نفساً عميقاً عندما غادر حامد، ويجر قدميه إلى غرفة نومه. ترى ما الذي ينتظرهما في المستقبل؟ هل يجب عليها أن تخشـى على حياتهما؟ فكّرت في كل الاحتمالات ونظرها مثبت على السقف بعد فترة طويلة تاهت فيها في التفكير ثم استطاعت أن تغط في النوم مرة أخرى.

22

عندما فتح لطفي الصحيفة في اليوم التالي شعر أن شخصاً لكمه في معدته بالضبط كما شعر دنيز في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم. طـوال الليلـة الفائتـة بعـد مغادرة خاله، جافاه النـوم، وظل يتقلب في سـريره محـاولاً أن يكتشـف أفضـل طريقة ليعيد الميـاه إلى مجاريها بينهما. رفع المسـجد أذان الفجر ولطفي لا يزال مسـتيقظاً فدعا الله لمعرفته أن القليل من الناس يدعون في هذا الوقت من الليل، وهذا يجعل دعاءهم مستجاباً أكثر من غيرهم. وبعد أن طلع الفجر، تمكن أخيراً من إغماض عينيه وهو لا يدري شيئاً عن الخبر المزعج الذي سيراه فـي الصبـاح. فحالما فتح الصفحة الثالثة مـن الصحيفة، وجد ذلـك المقـال الـذي يتحدث عن الشـاب المختفي. وقـرأ فيه أن والد الشـاب محـامٍ مهـم فـي أنقـرة وأنه أقسـم إنه سيكتشـف مصيـر ابنه مهمـا كلفـه الأمـر. ظلت عينا لطفي تبحثان عن هذا الخبر منذ بعض الوقـت، ولكـن بمـا أن شـيئاً لم يظهـر حتى تلك اللحظـة، فقد خيل إليـه أن القضيـة أغلقـت قبـل حتـى أن تفتـح. كان قد سـأل دنيز عن معرفتـه بـأوكان فـي ليلة الحادثة. فقال له إنهما التقيا تلك الليلة فقط في المقهى ثم دعاه أوكان لاحتسـاء كأس من الشـراب معه في بيته وقبل دنيز العرض. وبعد ذلك؟ لم يعرف ما الذي حدث بعد ذلك. لا بد أن شيئاً حدث ودفع دنيز لطعن ذلك الشاب. بحسب قول دنيز، فلم يرهما أحد وهما يدخلان البناء، وقد أقسم على ذلك. وقال إنه

واثق من أنهما لم يتكلما مع أحد آخر في المقهى وأن أحداً لم يرهما وهما يغادران معاً. وعندما جمع لطفي كل هذه المعلومات، لم يجد فيها أي شيء يدعو للقلق. فقد كانت عملية نظيفة تماماً. وبالرغم من كونها أول عملية له من هذا النوع، فقد تم كل شيء فيها بمنتهى السلاسة. ولم يكن مبلغ المال الذي قبضه سيئاً أيضاً. فقد احتفظ بمعظم المبلغ باستثناء النسبة البسيطة التي أعطاها لخاله. ومع ذلك، فقد أحدث هذا الخبر المفاجئ تغييراً في المعادلة. تساءل إن كان دنيز قد رآه. لم يستطع إلا أن يقلق حيال رد فعله. فإن أصغى إلى نصيحته وحافظ على هدوئه، بقي كل شيء على ما يرام، ولكن فكرة اعتماد مصيرهما على حالة دنيز العقلية أرعبته. والأسوأ من كل شيء هو أنه لم تكن لديه أي فكرة عما سيبدو عليه رد فعل خاله حيال هذا التطور الجديد.

شعر لطفي أنه أشبه برصاصة في ماسورة بندقية لا يدري إلى أين سيتم إطلاقه ومن سيضغط على الزناد. توجب عليه أن يتصل بدنيز مرة أخرى، ويتحدث إليه، ويطلب منه ألا يصاب بالهلع. بالطبع، لم يعرف أن الهاتف الذي حاول أن يتصل به غارق في أعماق مضيق البوسفور. وبالإضافة إلى ذلك، فقد سبق وقرأ خاله المقال واتخذ قراره.

* * *

لم يفاجأ حامد بالخبر الذي قرأه في الصحيفة على الإطلاق. فقد أدرك أن الوضع سيبدو شديد الغرابة إن لم يكن لدى ذلك الشاب أي شخص يعرفه على وجه الأرض وإن مضى ما حدث من دون أن يلاحظه أحد. تملّكه الفضول مع ذلك ليعرف مدى حسن

الطالـع الـذي يتمتـع بـه لطفي، ولكن طالعه لم يبدُ سـعيداً إلى الحد الذي تخيله في ذلك الوقت. لم يجد حامد أي شيء يثير العجب في مقال يتحدث عن شاب مفقود في الصفحة الثالثة في الصحيفة، ولكن الجـزء الوحيـد الـذي قضَّ مضجعه هو حقيقة أن والد الشـاب يعمل محامياً وأنه بدا متشـوقاً جداً لحل القضية. ومع ذلك، فهو لم يشـعر بأي تهديد، بل شعر بالرضى لأنه أجرى تلك المحادثة مع لطفي في الليلة الفائتة، وأدرك أن الرسالة قد وصلت إلى قلب ذلك الشاب وأنه بات أكثر أماناً من أي وقت مضى في عمله. إذ لم يكن أحد يستطيع أن يعرف قط أنه متورط في العملية لأنه لم يقابل دنيز على الإطلاق.

فكّـر فـي أن يتصـل بابـن أخته مرة أخرى ربمـا ليحذره مرة أخيرة ثم غيَّر رأيه، وقال في نفسه: "لا يمكنكم أن تحملوا لطفي على قول أي شـيء عني. يجب عليكم أن تقتلوه لتجبروه على الكلام، ولكن كلا لـن يتكلـم حتـى لو فعلتم ذلك. ولا آبـه للباقي. والآن، دعوني أفكر في مسـألة الأسـنان تلك. ما الذي سـأفعله؟" هذا هو التعليق الوحيد الذي أدلى به حول موضوع المقال. تحسس لثته مرة أخرى وضغط بأصابعه على خديه ليتأكد من أنه سـليم من أي آلام أسـنان محتملة. وفكر في نفسه: "لا يمكنني أن أذهب وحسب إلى متجر بيع الأدوات الخاصة بالأسنان وأطلب ما أحتاجه. الأفضل هو أن أذهب إلى عيادة الدكتور كاظم اليوم. لم أقابله منذ وقت طويل. وهذا يوم جميل لأن أزور فيه صديقاً قديماً. ربما قد ينصحني بطبيب عيون أيضاً، وهذا ما أنا بحاجة شـديدة إليه. وفي الوقت نفسـه، ستتسـنى لي الفرصة للنظر إلى كماشة خلع الأسنان. أتساءل إن كان يسعني أن أستخدم كماشة عاديـة" ذهـب إلـى الحمـام مدفوعـاً بالفضـول، وعثـر على صندوق

العدة الذي لم يلمسه منذ وقت طويل قابعاً في أعماق خزانة الحمام. وتفحص الكماشة لبضع دقائق وهو يقلِّبها في يده. وقال: "ترى هل تتسع هذه الكماشة في الفم؟ قد أتمكن من استخدامها في المقدمة ولكن ليس في الخلف. بالإضافة إلى ذلك، فسوف يكون الرجل ميتاً وعضلاته متصلبة. سيتوجب عليّ أن أحشر شيئاً بين أسنانه لأبقي فمه مفتوحاً، وهذا سيسهل العملية أكثر حاول أن يدخل الكماشة في فمه وهو واقف أمام المرآة، ولكنه استسلم على الفور. وقال: "من المستحيل أن تعمل هذه. يجب عليّ أن أحصل على كماشة طبيب حقيقية بل اثنتين منهما، واحدة لعيسى

رد رأسه مرة أخرى إلى الوراء بعيداً عن معصمه ليرى الوقت. لم يكن كاظم من أولئك الأصدقاء الذي يجب على المرء أن يتصل بهم قبل أن يزورهم. ففكّر في نفسه: "إن التقيت به في الوقت المناسب، تمكنا من أن نخرج لتناول الغداء معاً. مضى وقت طويل منذ آخر مرة قابلته فيها"

* * *

"السلام عليكم، يا أخي. كيف الأحوال؟"

"أهلاً! لا بأس... لا بأس... ماذا عنك أنت؟"

"الحمد لله. كل شيء على ما يرام. مررت بالقرب من هنا، فقلت لِمَ لا أزور كاظماً اليوم. يسرني أنني وجدتك هنا. هل تناولت غداءك؟"

"كلا، ليس بعد. لنخرج من هنا. انتظر. متى موعدي التالي؟ الساعة الثالثة. هذا جيد. لنذهب إذاً. هل تحتاج إلى القيام بأي شيء بالنسبة إلى أسنانك. سألقي نظرة سريعة عليها إن شئت"

"كلا، كلا، إنني بخير

"هل تعاني من أي ألم؟"

"كلا"

"إنني واثق من أنك بحاجة إلى تنظيف بالخيط. لنقم بذلك"

"كلا، إنني جاد. لا تقم بذلك. فأنا لا أحب التنظيف بالخيط"

"هيا، لا تقل هذا. إنه مهم جداً"

بينما راح كاظم يتحدث عن أهمية تنظيف الأسنان بالخيط، اقترب حامد من الصينية الموجودة بجانب كرسي المريض فرأى عليها أداة رفيعة وطويلة لها خطاف في آخرها وأخرى نحيفة وطويلة لها مرآة وبضع أدوات أخرى لم يستطع أن يحدد الغرض منها.

"أي أداة من هذه تستخدم لخلع السن؟"

"تقصد استئصال السن. تلك التي في أقصى اليمين"

"أي واحدة؟"

"انظر إلى أقصى اليمين، كلا ليس يمينك بل يميني أنا. هناك، أتراها؟ هذه هي

"ماذا تدعى؟"

"كُلاّب سنِّي

تأملها حامد بعناية وهو يمسك بها دون أن يسأل صديقه. فمن الواضح أن مسألة التعقيم والصحة لم تخطر بباله. وقال في نفسه: "حسناً، كُلاّب سنِّي إذاً. جيد جداً. من الجيد أننا لسنا بحاجة إلى تخدير ثم أعاد وضع الأداة على الصينية. وحالما فعل ذلك، تحرك نحو الباب.

"إلى أين تريد الذهاب، يا صديقي؟"

"هنالك مكان لطيف جداً عند ناصية الشارع يقدم طبق المصقعة. ستفقد صوابك منها. لم أتناول في حياتي طعاماً لذيذاً بهذا الشكل. أنت تحب المصقعة، أليس كذلك؟"

"ما هي المصقعة؟"

"هيا، كيف لا تعرف المصقعة؟ إنها عبارة عن طبق الباذنجان مع لحم البقر المفروم. ولكنك بالطبع رجل أعزب، من أين لك أن تعرف؟ تعال لتناول العشاء ذات يوم في البيت لدي، وسوف تطبخ لك زوجتي. إنها طاهية ماهرة جداً، أؤكد لك هذا. كيف بقيت أعزب طوال كل تلك السنوات، لست أفهم. ألا زلت ليست لديك أية نية للزواج؟"

"لقد أصبحت كبيراً في السن، عن أي زواج تتحدث؟"

"لست مسناً. وبالإضافة إلى ذلك، ما علاقة الأمر بالسن؟ إن كنت معجباً بامرأة ما... فأنت لا تزال شاباً. يمكنك حتى أن تنجب أطفالاً"

"هيا، لا تكن سخيفاً. سيسألني الناس إن كانوا أحفادي"

"لقد فقدت الأمل فعلاً، أليس كذلك؟ على كل حال، هذا لا يهم. فإن ظهرت امرأة في حياتك، فقد تعيد النظر في الأمر

"لا تقلق بشأني، ولكن أخبرني إلى من يجب أن أذهب لأفحص عيني

"لماذا؟ إنك بحاجة إلى نظارة للقراءة، أليس كذلك؟"

"بالضبط. يرن هاتفي، ولا يمكنني أن أرى من المتصل"

"لست بحاجة إلى طبيب من أجل ذلك. اذهب إلى أي صيدلية واشتر نظارة قراءة جاهزة. جرِّب وجد الأنسب لك. هذا كل ما في

الأمر

"حقاً؟ بهذه السهولة؟"

"بالطبع. اشتر وانطلق"

"من الجيد أن أعرف هذا"

* * *

"مساء الخير

"كيف يمكنني مساعدتك؟"

"أريد كُلاّبين سنيين"

"هل عيادتك مسجلة هنا؟"

"كلا، ليست مسجلة"

"هل تود أن تسجلها؟"

"كلا"

"ولكنك ستوفر بهذه الطريقة. إن اشتريت كل أدواتك السنية منا، تمكنت من الدفع بالتقسيط أو بالشيكات المصرفية. لدينا كل شيء من أصغر أداة وحتى كرسي العيادة"

"كلا، لا بأس بذلك. لست بحاجة إلى أي شيء آخر. أريد كماشتين فقط"

"تقصد كُلاّبين سنيين"

"نعم"

"أي نوع من الكُلابات تريد؟ ها هي القائمة. يوجد لدينا هذه التشريحية التي تستعمل للأسنان العلوية وتلك الأخرى لأضراس العقل"

"أيهما أفضل؟"

"لا يوجد شـيء من هذا القبيل. هذا يعتمد على حاجتك أنت. حسناً، أنت بحاجة إليها جميعها بالطبع، ولكنني أعني إن كان لديك بعضها من قبل، فعندئذ يمكنك أن تشـتري ما تحتاج إليه. كم مضى على فتح عيادتك؟"

"افتتحناها للتو. إنها ليست لي بل لأختي

"أين تقع؟"

"في الجانب الآسيوي"

"آه؟ جيد. أين بالضبط؟"

"في كاديكوي"

"فـي جـادة بغـداد؟ إن افتتحتموهـا هناك، فسـتجنون الكثير من المـال. نحـن نعمـل بهذا المجال منذ وقـت طويل. افتتح والدي هذا المتجر. ونحن الآن نبيع لنحو 85 بالمئة من السوق. ونعرف كل شيء عن المهنة. ونقدم صفقات ممتازة. والآن، أصبحنا نصمم حتى غرف الانتظار في العيادات ونحضر مجلات سنية من البلاد الأجنبية. يسرنا أن تتعامل معنا في كل ما تحتاج له"

"شكراً لك، ولكنني الآن بحاجة فقط إلى كلابين سنيين"

"بكل تأكيد، يا سيدي. أي واحد تريد؟"

"ذلك الذي يستخدم للأضراس

"إن أردت أن تأخذ رأيي، أظن أنه ينبغي عليك أن تسأل أختك لتعـرف مـا الـذي تحتاج إليه. فهذا على قدر كبير من الأهمية. أعني، إننـي لسـت طبيـب أسـنان، ولكن إن توجب علـي ذلك يمكنني على الأرجـح أن أسـتأصل سـناً. فقـد عملـت فـي هذا المجـال منذ وقت طويل"

"إنني واثق بأنك تستطيع ذلك. أظن أنها قالت إنها تريد الكلاب الخاص بالأضراس. ذلك هو. وإن لم تكن تريده، فسأعيده إليك"

* * *

انطلق حامد إلى سيفيلي ومعه كلابان لاستئصال الأضراس في جيب سترته. وفي الأحوال الطبيعية، كان يقوم بمجرد الاتصال بعيسى وإخطاره بالموعد الذي سيحضر فيه الجثة، وذلك باختصار شديد، ولكنه هذه المرة توجب عليه أن يتكلم معه حول هذا التفصيل الصغير. فقد كانت المهمة ستتطلب منهما وقتاً أطول مما تتطلب في العادة. وهكذا، فقد اعتبر اختيار مكان في خلفية المقبرة خياراً أكثر راحة أو بالأحرى أكثر أماناً، وبهذه الطريقة يمكنهما أن يعملا لساعات أطول بشكل مريح.

أراد أن يصل إلى المقبرة قبل أن تغلق أبوابها ليبدو وكأنه زائر عادي. وشكّلت تلك فرصة جيدة لأن يزور بيراك أيضاً، فهو لم يفعل ذلك منذ مدة، وتملكه شيء من الشعور بالذنب. توقف أمام بائع الورود في بيليرباي قبل أن يقود سيارته متجهاً إلى سيفيلي، واشترى باقة جميلة كبيرة من زهور القرنفل. ترى هل عرف أنها تعني الحب والعاطفة؟ على الأرجح لا. لقد أصاب كاظم كبد الحقيقة. فقد أمضى حامد حياته كلها وحده من دون حب. عندما جلس في بيت آيز في الليلة الفائتة، شعر بدفء المرأة حتى على الكراسي والجدران رغم الظلام والسكون والفراغ في الليل. ومنذ ذلك الحين، ظل يتخيل وجه آيز وملامحها وشعرها المنسدل على كتفيها، ولكن عندما وجد أن عقله لا يتمتع بالقوة الكافية لأن يتجنب تلك الأفكار، راح يلوح بيديه ليطردها عنه.

كانت سيارته هي السيارة الوحيدة التي توقفت أمام المقبرة، وهذا يعني أنها على الأرجح فارغة. دخل وهو يمسك الباقة بيده، وهذا ما جعله يبدو أشبه بأرمل شاب سيئ الحظ ولكنه حسن المظهر. لم يعثر على عيسى في أي مكان. ففكر في نفسه: "سيظهر عما قريب" فتقدم نحو قبر سمية إيريكول ووضع الزهور عليه ثم دس يديه الفارغتين في جيبيه ونظر إلى القبر بجفنين مثقلين. لم تعد عيناه تمتلآن بالدموع بعد الآن. حاول أن يتمسك بآخر قطرات الحزن الذي بدأ يتلاشى في أعماقه وهو مدرك أن هذه آخر آثار إنسانيته وأنها عندما تختفي فسوف يعاني من خواء كامل. وبينما هو يسمع خطوات من خلفه، التفت خلفه متوقعاً أن يجد عيسى، ولكنه بدلاً من ذلك وجد امرأة في منتصف العمر وأخرى شابة ينظران إليه بنظرات مفعمة بالارتباك.

"أليس هذا قبر سمية إيريكول؟"

"أرجو المعذرة؟"

"أظن أنك أتيت إلى القبر الخطأ، يا سيدي. هذا قبر والدتي سمية إيريكول"

نظر حامد إلى القبر متظاهراً أنه مصاب بالحيرة.

"آه، نعم. أظن أن هذا القبر الخطأ. إنني بغاية الأسف. ظننت أنه هنا"

"لا بأس. لم يحدث أي ضرر. فنحن أيضاً لا نأتي إلى هنا كثيراً، ولكنني أتيت وابنتي اليوم من إزمير. مضى وقت طويل، لهذا السبب يبدو القبر في حالة فوضى عارمة. على كل حال، فسأتصل بالحارس وأطلب منه أن يرتبه قليلاً"

بعد أن أخذ الزهور التي وضعها لتوه، نظر حامد حوله ثم ذهب

في أحد الاتجاهات وبدأ يمشي. وبينما هو يتفقد الأسماء على قبور النساء، استطاع سماع الهمس من الأم وابنتها. فقد قالت الشابة لأمها: "إنه ربما لا يجيد القراءة. هذا هو السبب" أخذ حامد نفساً عميقاً. فقد كان من السهل أن يظنه الناس أمياً لأن المدينة كلها مليئة بهم. عثر لنفسه على مكان آخر ووضع فيه زهوره. وعندما نظر إليهما، وجد أنهما لا تزالان تتابعانه ببصرهما. فأومأ برأسه نحوهما مشيراً إلى أنه عثر على المكان الصحيح. شعرت المرأتان بالراحة لسير كل شيء على ما يرام كما يفترض فأشارتا إلى عيسى ليأتي إليهما.

بعد أن انتهى من قبر سمية إيريكول، انتظر عيسى لأن يشير إليه حامد ثم ذهب إليه عندما فعل ذلك كبقية الزوار. ولم يتوان عن إحضار دلو من الماء معه في حال وجود أية عيون تراقبهما في الأنحاء ولم ينتبها لها. بدأ حامد يخبر عيسى عن المهمة بينما هو يتظاهر أنه يعطيه أوامر حول القبر الذي لم تكن لديهما أية فكرة عن صاحبه.

"حسناً، كما قلت لك، أعرض عليك هذا المبلغ مقابل هذه المهمة، ولكن هناك مشكلة"

"ما هي؟"

"يجب علينا أن نخلع أسنان الرجل

"أسنان الجثة؟"

"نعم"

"لا سمح الله، يا أخي. أعني أن تدفن رجلاً هو شيء ممكن، ولكن اقتلاع أسنانه شيء آخر كلياً"

"لماذا؟ ما الفرق؟ سيكون الرجل ميتاً أصلاً. ما الذي يهمك في

الأمر؟ إن الذنب ليس ذنبك. في الواقع، أنت تقوم هنا بعمل جليل، أؤكد لك هذا. فأنت لا تترك جثة إنسان تتعفن في مكان ما بل تدفنها دفناً يليق بها. وبالإضافة إلى ذلك، فأنت تجني مبلغاً محترماً"

"نعم، ولكن... كيف سنفعل هذا؟"

"لقد اهتممت بالأمر. لا تقلق. اشتريت، ما هو اسمها، كُلابين"

"ماذا؟"

"كلابات سنية. يستخدمونها لاقتلاع الأسنان"

"لا أعرف شيئاً عن الموضوع. فأنا لست طبيب أسنان"

"هيا، هل يتطلب الأمر طبيب أسنان لفعل هذا؟ سيكون الرجل ميتاً، أؤكد لك. ولن يصرخ أو يتحرك. اقتلع أسنانه بكل سهولة، وانتهى الأمر

"يا إلهي! لست أدري. يبدو هذا غريباً"

"غريب جداً. كيف تريد المبلغ؟"

"أعرف... ولكن... متى؟"

"لست أدري بالضبط. سأعلمك عندما يحين الوقت. اعثر على مكان في الخلفية"

"سألقي نظرة على المكان. أين يمكن أن يكون؟ سأعثر على شيء ما. إذاً، فأنت لا تعرف متى الموعد"

"كلا، لا أعرف، ولكنني سأعلمك"

"حسناً. هل من شيء آخر؟"

"كلا"

"أخ حامد...

"نعم؟"

"توخَّ الحذر في هذه الأيام، اتفقنا؟"

"ماذا تعني؟"

"توخَّ الحذر وحسب. هناك شعور يراودني

"شعور؟ ماذا، هل أصبحت وسيطاً روحانياً الآن؟"

"هيا، لست وسيطاً روحانياً أو شيئاً من هذا القبيل، ولكن توخَّ الحذر"

"لماذا؟ ما الشعور الذي يراودك؟"

"رأيت حلماً. ولم يكن حلماً لطيفاً جداً"

"لا تقلق بهذا الشأن. لا بد أنك أصبت بالبرد وأنت نائم، إنني واثق بهذا"

* * *

أخذ حامد يحوم حول البيت في ظلمة الليل محاولاً ألا يصدر أي ضجة. فلم يلاحظ وجود أحد في الحديقة. ورأى بعض الأضواء صادرة من النوافذ، ولكنه لم يكن واثقاً أين يمكنه أن يجد سايمون. راحت بضع حشرات من تلك التي تظهر فقط في ليالي الصيف تطير في الأنحاء. فلو رآه أحدهم يحاول أن يبعدها مشيراً بيديه، لظن أنه فقد صوابه. قد تمنح هذه البيئة المليئة بالخضرة والهدوء السلام للناس، ولكنها لم تساعد إلا في زيادة انفعال حامد. ولطالما شكّل هذا الوضع كابوساً بالنسبة إليه، فهو لم يحب الطبيعة البتة ولم يعرف ما يمكنه أن يفعل إن ترك فيها وحده. فربما كان سيصاب بطفح جلدي ويعيش على أمل العودة إلى شوارع المدينة المكتظة بالناس. والآن، جعلته حشرة خضراء تقفز حوله بلا كلل يصاب بالانفعال. فخطر بباله أن يقتل هذه الحشرة الصغيرة المزعجة قبل

أن يقتل سايمون، ولكنه لم يجد ذلك مهمة سهلة لأنها لم تتوقف في مكان واحد لأكثر من ثانية. مشى إلى مؤخرة البيت في الشرفة وأمسك بالمسدس تحت إبطه وثنى ساقيه وتسلل عبر باب الشبك بصمت كشرطي في أحد الأفلام يشارك في مداهمة للشرطة. وضع يده على الزناد وعيناه تترقبان لأي حركة غير متوقعة، وبدأ يتنقل من غرفة إلى أخرى محاولاً أن يلتزم الهدوء قدر المستطاع. لم يسمع أي صوت في البيت. فلم يعرف إن كان ينبغي لهذا أن يشجعه أم أن يبعث الخوف في نفسه. أيعقل أن ينتبه سايمون له فيختبئ في مكان ما خلف أحد الأبواب المغلقة؟ لم يعد هناك سوى باب أخير ينتظره مواربا وهو الباب الوحيد الذي لم يدخل منه بعد. رأى شعاع ضوء يتسرب منه. فأيقن أنه لا يمكن لسايمون أن يكون في أي مكان آخر سوى هذا. وقف حامد هناك بلا حراك وسمح لنفسه ببضع ثوان ليفكر. هل توجب عليه أن يغادر أم أن يدخل الغرفة بحركة واحدة خاطفة؟ فجأة، خطر بباله أمر آخر. فربما هرب سايمون من النافذة في غرفته وأعلم شخصاً ما أو بلغ الشرطة بوجوده. بما أن الفكرة الأخيرة بدت منطقية تماماً، فقد دفع الباب بأطراف أصابعه. ومع ذلك، فلم يجد أي صوت أو حركة. وأكسبه هذا جرعة إضافية من الشجاعة. فدفع الباب مرة أخرى وفتحه ودخل وهو يوجه مسدسه نحو الطاولة التي تقبع مقابل الباب. ففاجأه مشهد رجل جالس بجانب الطاولة ومستند على الكرسي خلفه وهناك ثقب يبلغ قطره 8 ملم في رأسه. لا بد أن ذلك هو سايمون. تقدم نحو الطاولة بحركة بطيئة. ورغم أنه كان واثقاً بنسبة 90 بالمئة أن الرجل ميت، إلا أنه لم يتخل عن الشك بنسبة 10 بالمئة كما لم يتخل عن مسدسه. عندما

اقترب من الرجل، رأى الدم يتقاطر من مؤخرة رأسه. رفع نظره من الأرض بحركة غريزية ورأى النافذة خلف سايمون مفتوحة. فسرت رعشة مفاجئة في جسده. ترى هل يوجد شخص آخر يراه هناك؟ لم يستطع أن يرى الخارج بشكل واضح بسبب الضوء الساطع في الغرفة. فأخرج طرف قميصه من سرواله دون تردد وأطفأ الضوء بالاستعانة به. في اللحظة التي فعل فيها ذلك، شاهد ظلاً يتحرك من النافذة ولكنه لم يستطع أن يتأكد من ذلك. فمن الممكن أن يكون ذهنه قد حرك هذه التخيلات. اقترب من النافذة، وأمعن النظر، ونظر إلى الخارج عن كثب، ولكنه لم يجد أي شيء. فأغلق النافذة والستائر، وأشعل مصباح الطاولة مرة أخرى. توجب عليه أن يغير خطته برمتها. فلم تكن هناك وسيلة تساعده على نقل الرجل بالحالة التي هو فيها. وتبين له أن سايمون قد قتل قبل بضع ساعات لأن جثته تيبست، لذا توجب عليه أن يهتم بموضوع الأسنان في الشقة. وبما أنه ترك كلابي الأسنان في السيارة، فقد توجب عليه أن يذهب ويحضرهما من دون أن يراه أحد.

بالرغم من أن أقرب بيت كان يقع على بعد نحو سبعين قدماً، فلم يشعر أن ذلك سبب كاف يدعوه للتصرف بتهور. فغادر البيت ويده على المسدس وراح يتفقد أبواب كل الغرف بطرف عينه. لم يخطر بباله ولو للحظة أن هناك شخصاً آخر قد يود أن يقتل سايمون. ولم يكن هناك ما يساعده على معرفة ذلك على كل حال. فإن أراد أحد أن يقتل شخصاً ما، فهناك احتمال كبير بوجود آخرين راغبين بقتله. أخرج حامد أحد الكلابين من السيارة وكذلك القفازين اللذين اعتاد أن ينتعلهما في قدميه في كل موسم ليمشي على الثلج دون أن

يترك أي آثار. عاد إلى غرفة الرجل الميت. وبعد أن ارتدى القفازين، تفحص الرأس وكأنه طبيب باستخدام إبهاميه وسبابته وإصبعه الوسطى. فوجد الفم مغلقاً بإحكام، لذا أمسك فكه وهو يشعر بشيء من الأمل ليرى إن أمكن تحريكه، ولكنه لم يجد أية فرصة في ذلك. وبات على حافة الشعور بالانهزام أمام تغير الأحداث المفاجئ. فما حدث لم ينطبق مع أي من خططه السابقة. توجب عليه أن يجد طريقة ليفتح بها الفم مهما كلفه الأمر، ولكن كيف سيفعل ذلك؟ حاول أن يلجأ للقوة. فوضع إحدى يديه على الجزء العلوي واليد الأخرى على الجزء السفلي، ولكنه اكتشف أنها طريقة فاشلة بعد أن جرّب لبضع دقائق. أمسك سكين فتح الرسائل وحاول أن يعثر على مكان فارغ في فم سايمون ومرر أصابعه بين شفتيه. فعثر على ما يبحث عنه في مؤخرة الفم، ولكنه وجد أن مهمته ستكون أسهل لو استطاع أن يبقي شفتيه منفرجتين على الأقل. بحث حوله ليعثر على شيء يمكن أن يساعده ثم تذكر أن أفضل أداة يمكنه أن يستخدمها هي عود تنظيف الأسنان. فذهب إلى المطبخ، ولكنه لم يعثر على أي منها. ومع ذلك، فقد اكتشف أن أعواد الثقاب التي وجدها بجانب الموقد يمكن أن تساعد بالضبط مثل عيدان التنظيف. وهكذا، عاد إلى الغرفة ومعه علبة عيدان الثقاب. وعندما وضع عودين على جانبي الشفتين، تمكن من شق طريقه إلى الخلف بسهولة أكبر. وقام بحشر سكين الورق في الفتحة التي عثر عليها وحاول أن يفتلها. فبدا له أنها انفتحت قليلاً، ولكنه أدرك أن مهمته لن تنتهي بمرور ساعات إن استمر على هذا النحو. ماذا إن كسر الأسنان بدلاً من أن يخلعها؟ فكر أنه يمكنه أن يكسرها إن ضرب جذورها قرب اللثة باستخدام مطرقة. ومع ذلك،

فقد خطر بباله أن هناك تعقيداً يتلخص في إخراجها من الفم. إذ بدا له من الواضح أن الأسنان ستسقط إلى الداخل وليس إلى الخارج. من أين أتت هذه المهمة المتعلقة بالأسنان؟ ألا يكفي أن يقتل الرجل؟ والآن، خيل إليه أن وضع بعض الزيت على اللثة قد يساعده. ترى هل سيسهل هذا العملية؟ فالزيت ينجح مع كل شيء، أليس كذلك؟ عاد إلى المطبخ. وبعد قليل، عاد إلى الغرفة وبحوزته هذه المرة زجاجة صغيرة من زيت الزيتون. وضع بعض الزيت على الأسنان ثم حاول أن يفتحها بواسطة سكين فتح الرسائل مرة أخرى، ولكن لم يفلح ذلك. فبدأ الفزع يسيطر تدريجياً على عقله. فقد توجب عليه أن يعود وبحوزته تلك الأسنان، ولا مجال لشيء آخر. أولاً، لم يكن بوسعه أن يخبر خالد لاوي الحديد أنه عثر على الرجل ميتاً لأنه لا يمكن أن يتخيل شكل رد فعله ولأنه لا بد أن اللوم سيوجه إليه في نهاية المطاف إن علم رئيسه أن شخصاً ما قد تصرف قبله. وبالإضافة لذلك، فإن حصل على الأسنان وأحضرها للاوي الحديد حتى لو ظهر أحدهم وقال إنه هو من قتل سايمون، فلن تكون تلك إلا كذبة مفضوحة لأنه لا بد أن يسأل خالد قائلاً: "إذاً، كيف حصلنا على الأسنان؟" ولهذا السبب، ومن كل النواحي، فقد توجب عليه أن ينفذ المهمة. بهذه العزيمة المؤقتة، دفع بقوة على سكين الورق مرة أخرى فخيل إليه أنه انفتح بعض الشيء. في تلك اللحظة، أدرك للمرة الأولى الرائحة المريعة التي تصاعدت من الرجل. بدت رائحة عالقة بين الحياة والآخرة تشبه رائحة مقود العجلة البارد الذي يتذوق الطفل طعمه عندما يأكل تفاحته بيديه غير المغسولتين؛ رائحة تجعل مهووسة بالنظافة تتقيأ عندما تدخل إلى حمام عمومي خلال رحلة

بين المدن؛ رائحة تذكر المرء بالذباب وبحرارة الصيف الخانقة والشوارع الخلفية للمدن الكبيرة أو ربما تشبه كل ذلك مجتمعاً. ضغط حامد بقمة قفازه الذي لطخته بضع قطرات من الدم على أنفه وكأنه راكب لعربة يجرها حصان عدم الخزي. خلع قفازه وأخرج منديلاً من جيبه الداخلي وغطى أنفه به وربط طرفيه في الخلف. فأظهر هذا الانحناء البسيط في أنفه. حفزته الفتحة الصغيرة التي تمكن من فتحها، ولكن لم تمض سوى ساعة من الزمن وهو لا يزال في البداية. فتح فمه وأغلقه محاولاً أن يفهم كيف تعمل آلية الفكين. فوضع يديه على فكيه ليدرك الحركة بشكل أوضح. بالطبع، لا بد أن عضلات الخد تيبست كلياً، ولهذا السبب لم يستطع أن يحركها. بدأ يدلِّك العضلات على أمل أن يتمكن من تطريتها بعض الشيء. ومع ذلك، فقد ظلت صلبة كالحجارة بين يديه. ولم يبد أن هذا سيشكل أية مساعدة. والآن، بات واثقاً من أن ليلة طويلة بانتظاره وأنه سيتوجب عليه على الأرجح أن يعمل حتى الفجر وذلك فقط إن تمكن من فتح الفم. خطرت بباله فكرة أخرى. فتوجه إلى المطبخ وأحضر معه سكيناً حادة. خلع سترته بعناية، ورفع كميه، وغرز طرف السكين في الجلد بشكل أفقي ثم قطع العضلة بأكبر عمق ممكن وهو يمط الجلد بالاستعانة بإبهامه وسبابته. فسقط الجزء الأيسر من فك سايمون قليلاً. فشق الجانب الآخر وهو مسرور وفخور بالإنجاز الذي حققه. وعندما انتهى، وجد قفازيه ملطخين بالدماء التي نزفت من تحت الجلد. وفاحت من فم الرجل رائحة مريعة وغير محتملة. فحاول ألا يتقيأ قبل أن يصل إلى الحمام ثم تقيأ في المغسلة. ولم ينزع قفازيه بل انتزعهما انتزاعاً ثم غسل وجهه بمياه باردة كالثلج.

لـم يكـن المـاء البارد هو ما أعاده إلى وعيه بل عقرب السـاعات في ساعته. وبالرغم من أنه عرف أنهما سيتسخان مرة أخرى، فقد غسل القفازيـن ووضـع المنديـل على أنفه واسـتأنف عمله. وبدا اسـتئصال الأسـنان، الذي لطالما اعتبره عملاً صعباً جداً من قبل، بالنسـبة إليه الآن مهمة في غاية السـهولة. فوضع الكيس الذي أحضره معه على حضن الرجل وأمسـك أحد الأسـنان بالكلاب وسـحب السن بكل ما أوتي من قوه ثم اكتشف أنه لا يجب عليه أن يستعمل كل تلك القوة. فقد اتضح أن العملية أسهل مما تصور. وانتهت بقية العملية بسلاسة تامة في غضون سـاعة واحدة بسـبب الثقة التي اكتسـبها حامد. ترك الرجل كما هو ونظف نفسه في الحمام وعاد إلى السيارة بكيس مليء بالأسـنان. واتصل بعيسـى حالما شـغل سـيارته وأخبره أن العملية قد ألغيت. وبينما حامد يقود السـيارة عائداً إلى اسـطنبول بأقصى سـرعة ممكنـة، أغلـق عيسـى الحفرة التي حفرها مسـبقاً وهـو يفكر أن إلغاء العمل هو على الأرجح السـبب في الحلم الذي رآه وأن كل شـيء الآن بات على ما يرام.

23

لم يبارح دنيز شقته طوال الأيام الثلاثة الفائتة بل جلس متسمراً أمام التلفزيون وهو مرتد بيجامته ولحيته طويلة وصوت أمه يتردد في رأسه. ظل يقلِّب قنوات الأخبار ويفتح أذنيه لكل شيء قد يثير اهتمامه، ولكنه لم يستطع أن يجد ما يبحث عنه. واعتاد أن ينقب كل يوم في الصحيفة عندما تحضرها أمه التي فقدت الأمل في إقناع ابنها بالخروج من البيت بل أصبحت تجمعها وترميها بعد أن ينتهي من البحث فيها. وبالرغم من أن والد أوكان أقسم أنه سيحل القضية، فحتى ذلك الوقت لم يصدر منه أي شيء. ومع ذلك، فلم يزل دنيز لا يصدق أن هذه أخبار جيدة. فقد أيقن أن رجال الشرطة دخلوا إلى بيت أوكان وجمعوا كل البصمات والأدلة الأخرى، وفي نهاية المطاف عثروا على قطعة الورق التي تركها وعثروا على لطفي وأن لطفي أخبرهم على الأرجح كل ما يعرفه. فلم يعد يتوجب عليهم فعل شيء الآن سوى الذهاب إلى كليته ومعرفة كنيته ثم الحضور إلى هنا حيث يجلس بانتظارهم، ولكن السؤال الوحيد هو ما الذي أخرهم إلى هذا الوقت؟ ظل يحلل هذه الأمور مرة تلو أخرى حتى شعر بالتعب معظم الوقت ووجد نفسه يعاني من كوابيس معقدة يستيقظ في تسعين بالمئة منها في اللحظة التي توضع الأصفاد في يديه. فإن استيقظ من نومه، بدأ بطرح الأسئلة نفسها مراراً وتكراراً. لم تكن حياته فقط، بل كذلك عقله يعاني من حالة أشبه بالحلقة المفرغة. ولم يسهل وجود أمه في البيت من حقيقة وضعه. فقد شعر

أن جسـده أشـبه بكرة نارية يعجز أن يبردها مهما فعل. ولولا وجود السـيدة سـوزان هناك، لمزق كل ثيابه ولف جسـده بأكمله بمناشـف مبللة. ومع ذلك، فقد رفضت السـيدة سـوزان أن تدعه وشـأنه وباتت تخشـى حتـى أن تذهـب إلـى السـوق ناهيك عن أن تعـود إلى أنقرة وتتركـه بتلـك الحالـة. لم تكن هناك نهايـة لعنادها. لم لا نذهب إلى المقهـى لتنـاول كـوب من الشـاي؟ لم لا نذهب ونشـتري لك بنطال جينـز جديـد مـن السـوق؟ لـم لا تتحـدث إلي؟ لم لا نذهـب لزيارة الخالـة آيليـن؟ شـعر دنيـز مع كل كلمـة من كلامها بجسـده يتصلب أكثر من ذي قبل. أما الذهاب إلى الطبيب النفسـي من جهة أخرى، فقد فرض عليه كأمر وليس كطلب. فقد توجب على دنيز أن يذهب إلى موعده معه في ذلك اليوم عند الساعة الثالثة عصراً مهما حدث. وأصرت السيدة سوزان أن ترافقه بنفسها شخصياً وتنتظر في الخارج إلى أن ينتهي. بمرور الدقائق، ازداد دنيز توتراً أكثر فأكثر ثم رمق أمه بإحدى نظراته المخيفة، ولكنه نهض بإذعان كما ينهض الإنسان الآلي عندما حان وقت المغادرة.

عندما وصلا إلى عيادة الطبيب، بدا التوتر بين السكرتيرة والسيدة سوزان والذي تسببت به المكالمة الهاتفية التي جرت بينهما واضحاً للعيان. فانتفخ منخرا دنيز من شـدة الغيظ بسـبب تدخل أمه باختياره فـي الأجوبـة التـي توجب عليه أن يملأ بها الاسـتمارة. وخبط أصابع أمـه التـي وضعتها على ذراع الكرسـي بجانبـه بمرفق يده متظاهراً أن ذلك حدث بالخطأ ثم اعتذر لها. لاحظت السـكرتيرة كل حركة قام بها الاثنان وازداد انزعاجها من تلك الأم المتطفلة أكثر من ذي قبل. من ناحية أخرى، فلم تظهر السيدة سوزان أي تمييز لهذا الكره وظنت فعلاً أن ابنها خبط أصابعها بالصدفة وسـامحته وهي لا تزال تحاول

أن تبدو خدومة. ولم تكن لها سوى نية واحدة لذلك اليوم وهي أن تدخل وتتحدث إلى الطبيب قبل أن يدخل دنيز إليه.

بعد أن قدم دنيز الاستمارة للسكرتيرة، عاد إلى الكرسي بجانب أمه وانتظر.

"بإمكانك أن تذهبي الآن، يا أمي

"ماذا؟ لماذا؟"

"حسناً، ها قد أتينا. إنك لا تظنين أنني سأغادر إن ذهبت، أليس كذلك؟ يمكنك أن تذهبي إلى البيت"

"كلا، لا أظن أن هذه فكرة جيدة. قد يحتاج الطبيب لأن يسألني عن شيء ما"

"عن ماذا سيسألك، يا أمي؟"

"لست أدري. على كل حال، فأنا أعرفك أفضل من الجميع. وقد أستطيع أن أنوره في بعض المسائل

"أي مسائل؟"

"لست أدري. عن طفولتك أو ربما عن أشياء لا يمكنك أن تتذكرها"

"حسناً، انتظري إذاً"

بعد بضع دقائق، قالت السكرتيرة لدنيز إن الطبيب بانتظاره. وعندما نهض عن كرسيه، بدا على السيدة سوزان الفزع. فنهضت بدورها وهي تنظر إلى باب غرفة السيد بسمان وتساءلت لِمَ لَمْ يخرج ليقابلهما. بينما همّ دنيز بالدخول إلى الغرفة، بدأت تستجوب السكرتيرة.

"ألن تعطي الطبيب تلك الاستمارة؟ إن لم تكوني ستعطينه إياها، فلم طلبت منه أن يملأها إذاً؟"

"لقد سبق وأعطيته إياها، يا سيدتي
"كيف حدث هذا؟ لم أرَ أي شيء. لم يخرج هو إلى هنا ولم تدخلي أنت إليه"
"لقد أرسلتها بالإيميل
"ماذا؟"
"لقد سبق وأرسلت الاستمارة للطبيب عن طريق الإنترنت. إنها على الأرجح لديه الآن على سطح المكتب"
جلست السيدة سوزان على كرسيها وهي مصدومة، وتمتمت لنفسها بتذمر: "هذا لا يصدق. إلى أين سيؤدي بنا هذا العالم؟"

* * *

دخل دنيز وهو مفعم بالتوتر. فقد توقع أن يجد غرفة مظلمة فيها سرير طويل وكرسي بجانبه، ولكن الغرفة بدت مختلفة تماماً عن تلك التي اعتاد رؤيتها في الرسوم الهزلية. فقد وجدها مضيئة ومليئة بالنباتات الزينية والزهور كما رأى كنبتين حمراوين موضوعتين مقابل بعضهما، ولكن كلاً منهما بدت الآن شاغرة. انتظره الطبيب أمام مكتبه ثم أشار إليه إلى الكرسي ذي التصميم الجيد المريح. لم يغب عن ذهن دنيز حقيقة أنه وقع لتوه على اتفاق الالتزام بالسرية بينه وبين الطبيب. ولهذا السبب، لم يتوقع شرحاً في هذا الصدد.
"أرجو معذرتك للحظة، يا سيد كيستيلي. هناك توقيع ناقص في إحدى استماراتك. لقد أعلمت السكرتيرة للتو. وسوف تحضر نسخة جديدة في الحال. وبعد أن توقعها، يمكننا أن نبدأ الجلسة. هل تفضل أن أناديك بالسيد كيستيلي أم باسمك الأول؟"
"لا بأس بأن تدعوني دنيز"
انفعلت السيدة سوزان حتى أكثر من ذي قبل عندما شاهدت

السكرتيرة تنهض وتدخل إلى غرفة الطبيب وبحوزتها بعض الأوراق. ترى ما الذي اعتزموا جميعاً فعله من دون أن يخبروها أي شيء؟ لا بد أن شيئاً ما يحدث، ولكن تم استبعادها نوعاً ما عنه.

وحالما عادت السكرتيرة، سألتها قائلة: "ماذا حدث؟"

"كان هناك نقص في إحدى الاستمارات فقمنا بتصحيحه"

"ما الناقص؟"

"لا شيء مهم، يا سيدتي. لقد اهتممنا بالأمر

"ماذا تقصدين بقولك إن شيئاً ليس مهماً؟ هل طلبت من ابني أن يوقع شيئاً جديداً؟ أريد أن أراه"

"كلا، يا سيدتي. لم نطلب منه أن يوقع شيئاً جديداً. لقد نسي وحسب أن يوقع إحدى الاستمارات التي ملأها. هذا كل ما في الأمر

"أي واحدة؟"

"إحدى الاستمارات. أصغي إلي، يا سيدتي. إنني جِدُّ آسفة، ولكن لدي بالفعل الكثير من العمل لأقوم به. قلت لك إنه مجرد إجراء روتيني. أرجو المعذرة من فضلك"

في غضون ذلك، انتقل الطبيب ودنيز إلى المقعدين الأحمرين. انتظره دنيز لأن يمسك بالدفتر، ولهذا السبب لم يستطع أن يركز، ولكن تبين له بعد قليل أن الجلسة خالية من تدوين الملاحظات.

"إنني لا أدون الملاحظات"

"كيف ستتذكر ما أقوله لك لاحقاً؟"

"إنني أحلل ما تقوله لي بشكل فوري في عقلي ثم أسجل آرائي حياله على شريط بعد أن تغادر. فالنتيجة التي أتوصل إليها أهم مما تقوله لي. وبما أن كل شيء تقوله لي يظل حاضراً في ذهني بعد أن

تغادر، فليست هناك أية مشكلة على الإطلاق"

"فهمت"

جلس دنيز والطبيب مقابل بعضهما البعض ملتزمين الصمت لبعض الوقت وكل منهما يسند ذراعيه على كرسيه. ركّز الطبيب نظره على دنيز بينما حاول دنيز أن يتجنب نظراته. لم يعرف ما يجب عليه أن يقوله. فقد ظن أن الطبيب سيطرح عليه أسئلة، ولكن هذا لم يحدث أيضاً. غيَّر وضعية جلوسه على الكرسي، وبينما هو يفعل ذلك، تذكر أوكان فجأة. ترى هل تضمن اتفاق السرية الذي وقعه جريمة القتل التي ارتكبها؟ إن أخبر الطبيب كل شيء الآن، فهل سيحتفظ بالمعلومة لنفسه أم أنه سيتصل بالشرطة؟ للمرة الأولى خلال الدقائق العشر التي جلساها معاً، ركّز دنيز نظره على الطبيب الآن وكأنه باح له بالسر للتو وهو ينتظر رد فعله. أما الطبيب الذي لم تكن لديه أية فكرة عما يدور بذهن مريضه الجديد، فقد جلس ساكناً وهو يواصل النظر إليه. ما هي فكرته الأولى عن ذلك الشاب؟ بدا من الواضح له أنه فتى فضولي. فقد طرح عليه أول سؤال خطر بباله من دون تردد. وحقيقة أنه ظل يغير وضعيته دلت على عدم شعوره بالأمان، ولكنه أبقى الجزء العلوي من جسده منتصباً، وهذا يعني الغرور الكامن خلف عدم الشعور بالأمان. كما أنه غطى يدي الكرسي بأصابعه، وهذا يدل على التوتر وكأنه يخفي سراً ما. حسناً، تلك هي وظيفته، أي أن يكتشف السر الذي يحتفظ به دنيز لنفسه.

"لماذا أنت هنا؟"

"لأن أمي هي من تريد ذلك"

أتى الرد سريعاً وواضحاً. ولم يخف وراءه أي معنى آخر. فقد سبق وأخبرته السكرتيرة عن مطالب الوالدة وردود أفعالها.

"لماذا تظن أنها تريدك أن تخضع للعلاج؟"

"لست أدري"

"هل تظن أمك أنك تعاني من مشكلة؟"

"أظن ذلك"

"لو كانت لديك مشكلة، فماذا يمكن أن تكون؟"

"لست أدري"

"هل تظن أنت أنك تعاني من مشكلة؟"

"لست أدري"

لم يجب بالنفي عن السؤال الأخير، ومن هنا وجد الطبيب مدخلاً له. لم ينكر دنيز إمكان معاناته من مشكلة ما، وهذا شكّل معلومة مساعدة، ولكنه لم يستطع أن يحدد ماهيتها. فكّر الطبيب في نفسه: "أحسنت. هذا هو اتجاهنا" في بقية الجلسة، طرح الطبيب على دنيز أسئلة بسيطة عادية مثل: أين يدرس؟ هل يحب ما يدرس؟ هل ذلك بالفعل ما يريد أن يصبح عليه في المستقبل؟ فلم يتردد دنيز في الإجابة عن تلك الأسئلة بل أعطى أكثر الأجوبة وضوحاً قدر الإمكان. فلم يجد السيد بسمان الأجوبة التي حصل عليها مثيرة للاهتمام بحد ذاتها، ولكن الطريقة التي استوعب فيها دنيز الأسئلة وأجاب عليها بدت في نظره ساحرة. فقد بدا أسلوب الفتى في الإجابة أشبه بأسلوب الإنسان الآلي، فهي لم تحتو على معلومات إضافية أو تنقص أي شيء. لم يذكر أية تفاصيل على الإطلاق بل قدم إجابات بسيطة ومباشرة، وذلك أسلوب يمكن رؤيته فقط لدى المحامين وصفة يريد الكثير من الناس اكتسابها ولكنهم لا يستطيعون ذلك. اعتبر الطبيب تلك ناحية يجب عليه أن يبذل نحوها المزيد من الملاحظة وأن يحلل الأسباب التي أدت إليها. وقرر أن يسجل

هذه الملاحظات على الشريط حالما يغادر دنيز. وبعد بضع جلسات فقط، كان سيعرف بأمر جلسات الاستجواب التي اعتاد الفتى وأمه أن يجرياها ثم يشعر بالفضول حيال تلك الأم التي أبدت الكثير من التلهف لمقابلته.

24

بعد مضي ثلاثة أيام فقط على تسليم حامد الأسنان لخالد لاوي الحديد، استيقظ حامد في وقت مبكر على صوت قرع الجرس. لم يعتد على الزيارات غير المتوقعة كتلك، لذا لم يخطر بباله أي زائر سوى لطفي. ففكر أن ذلك الأحمق سيعرض نفسه لعقاب شديد إن ارتكب حماقة ما وأتى للاختباء في بيته. توجه إلى الباب وهو يفرك وجهه وفتح الباب السفلي. وفي تلك اللحظة، رن جرس الباب مرة أخرى. وهكذا، فأياً يكن ذلك الزائر، فقد دخل إلى البناء وأصبح واقفاً أمام باب بيته الآن. نظر من خلال العين السحرية بالعين التي استطاع أن يفتحها أكثر من الأخرى ورأى رجلين من رجال خالد، وهما إبراهيم وإيرهان الأشقر، يقفان بانتظاره ليفتح الباب، وهذا بالطبع ليس خبراً ساراً. لم يكن ثمة مكان للهرب. وفات الأوان على التظاهر بأنه ليس في البيت. فاكتشف أنه مجبر بلا شك على فتح الباب، ولكن ماذا سيفعل بعد ذلك؟ والآن، دق الرجلان على الباب بأيديهما بشدة وكأنهما سيحطمانه. أدرك حامد أن إحضار مسدسه لن يغيِّر من الحقيقة شيئاً. فقد بدا ذلكما الرجلان مستعدين لأي رد فعل. وبالإضافة لذلك، فقد كانا اثنين وهو واحد. فتح حامد الباب. فدخل الرجلان من دون حتى أن ينتظرا دعوة منه.

"إن الأخ خالد بانتظارك"

لم يلقيا عليه أية تحية مع أنهما يعرفانه منذ سنوات. فشكّل هذا التصرف أكثر من سبب كاف ليجعل حامداً يدرك أن خطباً ما



قد وقع. فلا بد أن خالد لاوي الحديد قد استشاط غضباً بما يكفي لأن يرسل له رجلين ليحضراه إليه. هل ظن أنه لن يذهب لمقابلته إن استدعاه إليه؟ هل ظن خالد فعلاً أنه سيفعل ذلك؟ أدرك حامد ألا يوجد أي شيء يمكنه القيام به. هل ارتكب خطأ؟ ماذا يمكن أن يكون؟ عندما توجه إلى غرفة النوم وهو يقول: "سأرتدي ثيابي وأعود على الفور تبعه الرجلان، ولكن ما الذي خطر ببالهما: أنه سيهرب أو يقاوم بمسدسه؟ كان يدرك أكثر من أي شخص آخر أنه لا يستطيع أن يعامل خالداً بتلك الطريقة. فإن أراد الرئيس رؤيته، فقد توجب عليه أن يقابله. وإن ارتكب خطأ، توجب عليه أن يعمل على إصلاحه. وإن كان شيئاً من المستحيل إصلاحه، فهذا يعني أن أوان رحيله قد أزف وأنه لا يسعه أن يفعل شيئاً سوى ملاقاة مصيره بإذعان. ارتدى ملابسه أمام عيونهما ومشى وهما يتبعانه مغادراً شقته. ووجد شخصاً آخر بانتظاره في السيارة.

لم يشعر حامد بالفضول بهذا الشكل في حياته من قبل. وصلوا إلى مكتب لاوي الحديد في غضون وقت قصير ثم تمَّ اصطحابه إلى إحدى الغرف بعد أن مر ببضع نقاط أمنية.

"إنني في خدمتك، يا أخ خالد"

"اجلس من فضلك، يا حامد"

أصابه الصمت الذي ملأ الغرفة بالفزع، وكذلك فعلت رائحة العطر الذي لم يقدم له للمرة الأولى.

"إذاً، قل لي يا حامد. الأسنان التي أحضرتها لي... لمن هي؟"

"أرجو المعذرة؟"

"الأسنان... لمن هي تلك الأسنان؟"

"إنها لسايمون"

"إنها ليست له"

"أرجو المعذرة، يا أخي. لا أفهم. ماذا تقصد بأنها ليست أسنانه؟"

"ليست أسنان سايمون"

"أسنان من هي إذاً؟"

"هذا هو ما أريد معرفته"

أخذ خالد زجاجة عطر الليمون وفتح غطاءها. وبعد أن أفرغ نصف الزجاجة في راحتي يديه وضع العطر على وجهه وشم القطرات الأخيرة وأغمض عينيه. وعندما فتحهما مرة ثانية، ركّز نظره على حامد وحدق إليه لبعض الوقت.

"لقد شاهد أحدهم سايمون في سايل اليوم"

"ماذا؟"

عندما سمع حامد ما قاله خالد، بات عقله في حالة هياج واضطراب كامل وتسارعت الأفكار في ذهنه حتى كاد أن يشعر بالغثيان لشدة سرعتها. ورغم الفزع الذي شعر به، لم يظهر شعوره لخالد، ولكنه مع ذلك عجز عن الإشاحة بوجهه إلى الجهة الأخرى ليتجنب نظراته. كيف سيخبره أنه لم يقتل سايمون بنفسه؟ وأنه عثر عليه ميتاً في البيت ثم اقتلع أسنانه ولا سيما الآن عندما بات من الواضح أن القتيل ليس سايمون؟ أدرك أن هذا خطأ كبير من الصعب عليه إصلاحه. في الواقع، فلم يكن من الممكن إصلاحه. إذاً، من ذلك الرجل الذي عثر عليه؟ ألم يذهب إلى المكان الصحيح؟

"إن سايمون لا يزال يمشي في أنحاء سايل. أما الرجل الذي قتلته وأحضرت أسنانه، فهو شقيقه ياريل"

سكت حامد. فأضاف خالد قائلاً: "إن سايمون يعرف أن هناك

من سعى لقتله. ويعرف أيضاً من أرسله. والآن، ساعدنا بعض الناس على التفاوض، لذا سأرسل مبلغاً كبيراً من المال للرجال الذين يحمون ظهر سايمون. وبالإضافة لذلك، يجب عليّ أن أرسل أسنان القاتل. إننا نعرف بعضنا منذ وقت طويل جداً أنت وأنا. إنني معجب بك وأريد حمايتك، ولكن هذه القصة برمتها تكلفني كثيراً. والآن، إما أن تعثر على شخص يحل محلك أو أن تذهب بنفسك. ومن الآن فصاعداً، سنحمي ظهورنا من الخلف. إن المشكلة التي تسببت بها ضخمة. وعليك أن تحلها بنفسك"

بينما استمرت المحادثة، ازداد عبء القلق ثقلاً على قلب حامد. فقد شعر أنه محاصر من كل زاوية. فما عناه خالد بكلامه هو أنه لن يعاقب حامداً بل سيدع شخصاً آخر يتولى تلك المهمة على كل حال، وذلك السبب في أنه ظل على قيد الحياة ثم تمكن من مغادرة تلك الغرفة على قدميه من دون أن يتعرض لأذى. عندما غادر حامد مكتب خالد لاوي الحديد، بدأ يفكر كيف سيخلص نفسه من هذه الفوضى. توجب عليه أن يختفي ويتلاشى من الوجود. ما ذلك الذي تحدث عنه عيسى؟ أحقاً حلم بالمستقبل؟ لقد حذره وطلب منه أن يتوخى الحرص. كيف ارتكب ذلك الخطأ ولم يتأكد إن كان الرجل الذي وجده هو الرجل نفسه الذي يبحث عنه أم لا؟ في تلك الحالة، من قتل ياريل؟ على الأرجح شقيقه سايمون هو من فعل هذا. فقد شكل ذلك كله بلا شك جزءاً من خطة ما. إنهم قادرون على فعل أي شيء من أجل المال، أليس كذلك؟ ولكنه الآن لعب دور الأخرس وأراد أن يصطاد عصفورين بحجر واحد. فقال للناس إن أخاه تعرض للقتل والتشويه وجنى مبلغاً من المال من جراء ذلك. لقد تعرضوا بالفعل لخديعة كبيرة. أدرك حامد أن إطلاع خالد على

الحقيقة لن يغير أي شيء إن لم يزد الوضع سوءاً. لم يعبر خالد عن الأمر بكلمات محددة، ولكن بدا من الواضح أنه تخلى عن حامد بشكل نهائي. فقد بات وحده من الآن فصاعداً وتوجب عليه أن يتولى أموره بنفسه. ركب سيارته وهو يراقب ظهره وكأنه سيفعل ذلك إلى أن يموت وانطلق نحو سيفيلي من دون أن يدرك ذلك. وذهب إلى عيسى؛ الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يشعر بالأمان برفقته في الوقت الحاضر.

عندما دخل إلى المقبرة، وجد صديقه منهمكاً بالعمل كعادته. فشاهده هذه المرة يزرع صفاً من شجيرات السرو الصغيرة بعناية قصوى في حفر أعدها لها من قبل. لم ينتبه عيسى لوجود حامد في المقبرة إلا عندما نهض ليفتح صمام الماء ويسقي هذه الشجيرات الصغيرة للمرة الأولى. وقف حامد مستغرقاً بالتفكير وهو يضع أصابعه على صدغيه أمام قبر سمية إيريكول. تذكر عيسى الحلم الذي راوده مرة أخرى. فأيقن أن هناك خطباً ما. وخيل إليه إما أن حامداً يعاني من مشكلة أو أنه سيعاني من مشكلة ما. اقترب منه من خلفه بخوف. وعندما ناداه باسمه، التفت حامد إلى الخلف بحركة سريعة بعد أن عثرت يده بسرعة على أخمص مسدسه واستقر الخوف في عينيه اللتين بدتا شاردتين قبل لحظة. لا بد أنه تذكر مكان وجوده فقط عندما رأى عيسى وكأنه نسي للحظة أنه موجود في أكثر الأماكن التي يمكنه التواجد بها في اسطنبول أمناً. أما عيسى، من ناحية أخرى، فقد رفع يديه في حركة عفوية، وقال بخوف: "هذا أنا، يا أخ حامد" وهو يدرك أن عيني الرجل الآخر لم تعودا تريان أي شيء سوى روحه هو. فأنزل حامد مسدسه وهو يخفض عينيه.

"كنت محقاً، يا عيسى. أسأت التصرف كثيراً. ليس لدي مكان

أهرب إليه"

نظر عيسى حوله بارتباك وهو يدرك هذه المرة أن يديه إلى جنبيه بدأتا ترتعشان. فقال حامد: "ليس عليك أن تقلق. لا أحد يعرف أني هنا. لم يبدأ الأمر بعد. لا أعرف متى سيبدأ ومتى سيتوقف. والآن، أخبرني. ما الحلم الذي راودك؟"

شعر عيسى بمشقة في الإجابة عن هذا السؤال. فلطالما سمع من جدته في طفولته أنه يجب عليه ألا يروي حلمه لأحد. فإن حلمت جدته حلماً مزعجاً، أخذت قلقها إلى ضفة النهر على الرغم من ألم ساقيها وروت حلمها للماء لأن الماء يحمل الشر بعيداً. وإن كان الطقس مثلجاً ذلك اليوم، ولم تستطع أن تمشي، فتحت ستارة غرفتها ونظرت إلى السماء وقصت عليها الحلم هامسة لكي تذهب المتاعب والآلام إلى مكان آخر مع الغيوم. فعل عيسى الشيء نفسه بحلمه. ففي اليوم التالي روى الحلم للسماء بما أنه ليس ثمة جدول قريب منه. وهكذا، لم يود أن يكرره الآن. إذ إنه كان يثق أن هذا يزود فرص الفأل السيئ أكثر. فاقترب من حامد وجلس بجانبه.

"نسيته. أخبرني، ماذا حدث؟"

في الواقع، لم يود أن يعرف أي شيء ولا أن يقدم أية مساعدة. ومع ذلك، فقد ولد في الثالث والعشرين من شهر آذار في الساعة الخامسة والنصف عصراً. وبحسب خريطته الفلكية، فالطريقة التي يكتسب بها الحكمة تتطلب مساعدته للآخرين. في البداية، ظل حامد ملتزماً الصمت لبعض الوقت. فقد راح يفكر وعيناه مثبتتان على شاهد القبر ويداه مسندتان إلى ركبتيه بينما امتزج صوت تنفسه مع أصوات حفيف الأشجار وتناغم معها. انتظر عيسى بصبر وهو ملتزم الهدوء. وراح يتلفت حوله بين الحين والآخر ليتأكد من عدم

وجـود شـخص قـادم أو مغـادر. إذ إنـه لـم يرغـب بأن يـراه أحد مع حامد، ولهذا السـبب أرغم نفسـه على الجلوس على سـاقه القصيرة ليتمكن من النهوض بسـرعة في اللحظة التي يرى فيها أحداً. تسـاءل إن أخبر حامد أحداً عنه. ترى هل علم أحد بما فعله؟ لم تجل تلك الفكرة بخاطره من قبل لأن تلك كانت المرة الأولى التي يشعر فيها بخطـر المـوت يحـدق بـه. لقـد طمأنه حامـد منذ البدايـة أن أحداً لا يعرف بتعاملهما معاً وأنه لم يدوِّن اسـم عيسـى على هاتفه. وبما أن عيسى لم يدون سوى اسم حامد في قائمة الأسماء بهاتفه، فقد كان سيغلق الخط ويتخلص من الهاتف إن تلقى مكالمة من رقم غريب. نبَّأ حدس غريب عيسى أن هذا العمل سيصل إلى نهايته. فقد بدأت الدائـرة المحيطـة بحامـد تضيق. فكر عيسـى في المـال الذي يحتفظ بـه فـي حسـابه المصرفـي، وهو مبلـغ جم. فقد وفر كل قرش كسـبه وعـاش فـي تلـك الحجـرة الصغيرة مقتصراً في معيشـته على أبسـط الضروريات. وبالرغم من أنه اسـتمتع بالسـلام والسـكينة في المقبرة، إلا أنه لم يعد يريد أن يمضي الدهر هناك. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أيقن أن الطريقة الوحيدة التي تساعده على التخلص من الذنوب التي ساعد في ارتكابها هي الهروب وأنه سينال الغفران فقط إن انتقل إلى مكان آخر. وفوق كل شـيء، لم يكن طقس اسـطنبول الرطب يلائم سـاقه المؤلمـة التـي توقـع أن تـزداد حالتها سـوءاً عـن ذي قبل كلما تقدم في السن. فكّر في أن يغادر ذلك المكان متوجهاً إلى الجنوب ويسـتقر فـي قرية صغيرة تتمتـع بطقس جاف. تحدثت محطة الإذاعة ذات يوم عن مكان يدعى كوزبيلي، وهي قرية يونانية قديمة شـديدة القرب من إزمير كل ما فيها يشفي العليل؛ الطقس والماء وكل شيء. فأصبح حتى الأجانب ينتقلون إلى هناك ليستشفوا من أمراضهم. خطر

بباله أن يشتري في القرية بيتاً صغيراً. أليست قرية على كل حال؟ إلى أي حد قد تكون باهظة الثمن؟ لقد شاهد البحر للمرة الأولى في اسطنبول. فلم لا يتمكن من السباحة في كوزبيلي؟ لم يوقظه من أحلامه عن المستقبل القريب سوى صوت حامد عندما بدأ يقص عليه الأحداث ببطء ويحدثه كيف ذهب إلى سايل ودار حول البيت وعثر على الرجل ميتاً وحاول أن يقتلع أسنانه. شرح له كل التفاصيل ولم يترك أي شيء بما في ذلك كيفية شعوره. أصغى عيسى إلى ما أخبره إياه بفزع. للمرة الأولى، أدرك إلى أي حدّ يمكن لحامد أن يصل وراح يتخيل كل مشهد أكثر دموية وعنفاً بعشر مرات حتى كاد يشتم الرائحة العفنة التي وصفها له حامد ويرى الدم القرمزي أمام عينيه. وبعد أن روى حامد كل شيء بالتفصيل لعيسى، التفت ونظر إليه وكأنه يظن أن الكلمات الحكيمة التي ستصدر من فمه ستنقذه من ورطته. أما عيسى، من ناحية أخرى، فقد شغلت باله في تلك اللحظة أشياء كثيرة جيدة وسيئة في آن معاً. بداية، لماذا روى له حامد كل القصة وباح بكل شيء بالرغم من صرامته المعهودة في عدم منحه أية معلومات؟ ترى هل بات عيسى مرشحاً لديه ليقدمه على أنه من قام بالعمل؟ فكّر في نفسه: "ما الذي قد يتطلبه الأمر؟ إن أطلق علي النار الآن واقتلع أسناني، فلن يعرف أحد" لم يعجبه ذلك العمل منذ البداية ولا سيما منذ سمع بعملية اقتلاع الأسنان. وتذكر مرة أخرى الحلم الذي راوده وراح يفسره بالرغم من عدم رغبته بذلك. فقد أتى حامد إليه في الحلم. هل سبب حضوره هو أنه يريد أن يطلق النار عليه؟ نظر إلى حامد بخوف. فلم تعد المسألة إلا مسألة وقت حتى تراود حامداً تلك الأفكار نفسها ثم يتقدم نحوه ويضغط على الزناد. نهض عيسى وتراجع بضع خطوات إلى الوراء وهناك

شعور قوي بالخوف يهزه من الداخل. تحول اليأس في نظرات عيني حامد إلى تساؤل مفاجئ. فنظر إلى عيسى بحرص ونهض بسرعة وراح يحدق إليه بدوره. وفي تلك اللحظة، تمكن بفضل قوة غير معروفة وهبه إياها الله أن يقرأ أفكار عيسى ثم راح يحللها لبعض الوقت. وباتت نظراته أكثر حدة وامتدت يده وتحسست المسدس تحت ذراعه، ولكن بعد دقائق معدودة فقط، انبسطت أساريره كأن الشمس أشرقت فيها بعد مرور سحب عابرة وغادرته تلك الفكرة بسرعة كما أتت. وقال ببساطة: "إلى اللقاء" وأدار ظهره ورحل وهو يدرك أنه خلف الخوف وراءه كما لطالما فعل. أما عيسى من جهة أخرى، فلم يعد يقوى على الحراك من مكان وقوفه لبعض الوقت وهو ينظر إلى حامد. تبين له أن ذلك الرجل لن يؤذيه. فقد تبرأت كتفاه المنحدرتان من فظاعة أعماله الماضية.

* * *

عندما مر بمطعم البيتزا، رأى الفتى ينظر إليه من خلف الواجهة بعينين مفعمتين بالخوف. فتوقف واستدعاه بإيماءة قاسية بيده. فابتعد فتى آخر وموظف مسن من المكان. حاول الفتى أن يخفي ذراعه المجبرة ظناً منه أن ذلك سيمعن في استفزاز حامد. فكرر حامد إيماءة يده مطالباً إياه أن يقترب منه. فاقترب الفتى بخطوات قصيرة. وعندما وضع حامد يده في جيبه، تراجع الجزء العلوي من جسد الصبي بحركة لاإرادية وكأنه يستعد لضربة أخرى. ومع ذلك، فقد سحب حامد ورقة بخمسين ليرة تركية من محفظته وقدمها للفتى. مد الفتى يده بتردد نحو الورقة النقدية، ولكنه لم يستطع أن يقرر فيما إذا كان سيأخذها أم لا. فالتفت ونظر إلى الرجل الآخر الذي ظل واقفاً أمام مطعم البيتزا وانتظر إيماءة من رأسه تشجعه على تلقي المال،

وهكـذا انتهـى المطـاف بالمال في اليد الصغيـرة. وبالرغم من أنه لم يسـتطع أن يجبر نفسـه على شـكر الرجل العنيف، وبما أنه لم يعرف ما يفعل غير ذلك، إلا أن تمتم بكلمات مبهمة وعاد إلى الداخل. لم يود حامد أن يطيل ذلك المشهد العاطفي أكثر، لذا دخل مبناه مسرعاً بعد أن تعافى من الصدمة التي أصابته قبل أن يغادر المقبرة. والآن، لم يعد يفكر سوى في الشخص الذي يمكنه التضحية به. في الواقع، فقد قرر من سـيكون ذلك الشـخص، وأدرك منذ اللحظة التي طرح فيها ذلك السؤال على نفسه أنه دنيز؛ صديق لطفي.

25

نظر لطفي إلى الهاتف بعصبية وهو يرن. إذ إنه لم يسمع أي خبر من خاله منذ أجريا تلك المحادثة في الأسبوع الفائت. بالإضافة إلى ذلك، فلم يكن من عادته الاتصال به. وإن اتصل به لطفي، سأله عن أخباره واستفسر منه إن احتاج أي شيء، وإن استأذن منه لطفي أن يزوره، أذن له بزيارته بالضبط كما اعتاد أن يزورهم فقط إن دعته آيز للزيارة. ولهذا السبب، جعلت زيارته المفاجئة كلاً من لطفي ووالدته بغاية التوتر.

رد على الهاتف من دون أن يدري أي شيء عما قد يريده منه خاله، وقال: "مرحباً، يا خالي

"تعال إلى حديقة الشاي في غضون عشرين دقيقة"

"حسناً"

حسناً، ولكن لماذا؟ لماذا أراد أن يقابله هكذا فجأة؟ ما الذي أراده منه؟ هل يتعلق بالشيء نفسه؟ لم يقابله منذ بعض الوقت كما أنه لم يقابل المفتش بل أمضى معظم وقته في البيت أو في الجوار. وبينما هو يفكر في نظريات مختلفة عن أسباب هذا اللقاء، ظهرت أمه عند الباب. فنظرت إليه بعينين ملؤهما التساؤل. كان لطفي يتلقى الكثير من المكالمات الهاتفية في اليوم، ولكن كلما تلقى مكالمة لا تعجبه، ظهرت أمه عند الباب وطرحت عليه سؤالاً لا مفر منه.

"من المتصل؟"

"خالي حامد"

"لماذا اتصل بك؟"

"لست أدري"

"ألم يقل شيئاً؟"

"كلا"

"ماذا أراد إذاً؟"

"قلت لك إنني لا أعرف. سنلتقي في مكان ما"

خيمت الكآبة على ملامح آيز. وتشكّلت قطرات من العرق على جبهتها في ثوانٍ. وشعرت فجأة أنها ستموت من العطش أو ستصاب بنوبة قلبية. وعانت من صعوبة في التكلم مرة أخرى.

"أين ستلتقيان؟"

"في حديقة الشاي"

"أي حديقة؟"

"في بيليرباي"

"دعني أذهب معك"

"صحيح. يا لها من فكرة رائعة!"

بالرغم من أن لطفي تظاهر بأنه لا يوجد أي شيء يدعو للقلق لمجرد أن يهدئ من روع أمه، فقد تملّكه القلق في أعماقه حتى الموت. وأيقن أنه حتى لو ذهب كل الجيش التركي ناهيك عن أمه معه إلى حديقة الشاي، فما من شيء يمكنه أن ينقذه من مصيره. من الواضح أن خاله لم يكن سيشهر مسدسه ويطلق النار عليه بين الناس، ولكن إن طلب منه أن يركب معه في السيارة وأخذه إلى مكان ناء، فليس بوسعه أن يرفض. انتظر أمه لتغادر بهدوء. فلم يعد لديه متسع من الوقت وأراد أن يأخذ مسدس أبيه معه، ولكن آيز ظلت واقفة هناك وهي تتأمل ابنها بإمعان. لم يرغب بأن يطرد أمه في وقت قد

يكـون آخـر دقائـق يمضيانهـا معاً، لذا فتح لطفي بـاب الخزانة وأخذ ذلك التذكار الأخير المتبقي من أبيه. فركضت آيز إليه وألقت ذراعيها حوله، وقالت: "لا تذهب يا ابني الوحيد. لا تذهب يا ولدي"

"لا تقلقي، يا أمي. لا شيء مهم. إنني آخذه معي لأشعر بالأمان وحسب"

"لم يعجبني شكله في تلك الليلة، يا لطفي. لقد باع روحه. إن الشيء الوحيد الذي يثق به هو المال. إنه شرير"

"هيا، يا أمي"

"دعني أتحدث إليه. أعرف أنه يحبني، فهو قريبي على أية حال. ربما هناك ما يمكنني فعله له"

دفـع لطفـي أمه إلى الخلف عندما سـمع مـا قالته ورمقها بنظرة قاسـية. فقـد فهـم مـا عنتـه بكلامهـا حتى لـو أنكرت ذلـك في تلك اللحظة. كانت آيز امرأة شـريفة، وهذا ما جعلها تندم على الكلمات التـي قالتهـا وتحـاول أن تتجنـب نظرات ابنها. ولـم يعد يسـعها القيام بأي شيء سوى أن تستعد لصلاتها وأن تتوضأ كما أمرها النبي محمد صلى الله عليه وسـلم وتقرأ سـورة يس من المصحف. وعندما غادر لطفـي الشـقة، شـعر بتمتمـة الصلـوات من خلفه كما شـعر بخطوات الشيطان الماكرة على جسده.

* * *

عندما وصل لطفي إلى حديقة الشاي، وجد خاله جالساً بانتظاره يحـرك السـكر فـي الشـاي وهـو غـارق فـي التفكيـر. أدرك حامد أن المكالمة الهاتفية سـببت الفزع للطفي ولا سـيما بعد الحادثة الأخيرة التي وقعت بينهما، ولكن إما بسبب قسوة كامنة في نفسه أو لأن لديه أشـياء أكبـر ليفكـر بهـا، لذا فلم يقل شـيئاً ليوضح للطفـي أنه بأمان.

وعلى كل حال، فسرعان ما عرف لطفي الهدف من اللقاء وحل قبضة المسدس على خصره. وارتفعت أمواج الحب نحو خاله في داخله، وسخر من نفسه وهو يفكر كم من السهل أن يملأ المرء قلبه بالأفكار المحبطة. فقد اكتشف أن حامداً يسعى وراء شخص آخر ويحتاج مساعدته للوصول إليه. فلم يعد لطفي يشعر بدوره بالراحة لوجود دنيز بعد الآن. فقد اختفى ذلك الفتى، ولكنه لم يعرف إن كان ذلك شيئاً جيداً أم سيئاً. وبالرغم من أن مدة من الزمن مضت على جريمة القتل، ولم يظهر أي شيء يدل عليها سوى بعض المقالات في الصحف الرخيصة، فقد ظل يشعر بعدم الراحة ووجد أنه من الأفضل أن يختفي دنيز من الوجود. وبالإضافة إلى ذلك، فقد أيقن أن هذا سيعمل لصالح خاله وسيجعل علاقتهما تعود إلى سابق عهدها، وهكذا سرعان ما ستصلح كل الأخطاء وتصبح الأوضاع على ما يرام وسيرفع العبء عن كاهل الجميع.

"أين ذلك الفتى المدعو دنيز؟"

"إنني حقاً لا أعرف يا خالي

"ماذا تعني بأنك لا تعرف؟"

"لا أعرف. لم أستطع أن أستدل على مكان إقامته"

"لم تستطع؟ ماذا عن هاتفه؟"

"إنه لا يرد على الهاتف. تحدثت إلى أمه مرة واحدة. وردت عليّ. أظن أنه يعيش مع أمه"

"وماذا بعد؟"

"هذا كل شيء"

"إنه يعيش مع أمه، ولكنك لا تعرف أين. وماذا عن هاتفه؟"

"قلت لك لتوي، إنه لا يرد"

"لا يرد. وأنت تنتظر هنا كالغبي. تعرف يا لطفي أنك حتى أكثر غباء مما ظننت. ما الذي تعتمد عليه إلى هذا الحد؟ كيف لم تبق ذلك الشاب تحت السيطرة؟"

"حسناً، لم ينجم أي شيء عن الموضوع حتى الآن. طلبت منه أن يختفي، فربما ظن أنني أعني أن يختفي كلياً"

"كيف ستعثر على هذا الشاب الآن؟"

"كيف يسعني أن أعثر عليه، يا خالي؟"

"ماذا تعني؟ لطفي! هل تمزح معي؟"

"لا سمح الله، يا خالي

"حسناً، لست أدري. مهما يكن ما تفعل، اعثر عليه في أسرع وقت ممكن. أعطني عنوانه"

"حسناً"

"ماذا تعني كلمة حسناً هذه؟ الإجابة نفسها التي سمعتها منك على الهاتف. حسناً! هل أنت مغفل أو ما شابه؟"

افترق الاثنان وهما غارقان في التفكير. لم يعد لدى حامد الكثير من الوقت بالضبط كما يتبق لدى لطفي. لم يُبد خاله أي استعداد لمساعدته في العثور على دنيز. وبات العمل الذي ظل يؤجله حتى تلك اللحظة يشكل عبئاً ثقيلاً عليه. وشعر في أعماقه أنه توجب عليه أن يطارد دنيز من قبل ويعثر عليه، ولكنه تصرف كما يتصرف الهواة ولم يأخذ الأمر على محمل الجد كما ينبغي عليه. تصرف كمن تعلم قيادة السيارة لتوه وراح يقود سيارته بثقة زائدة بالنفس فصدم أول عمود كهرباء صادفه في طريقه. نعم، لقد مضى عليه وقت طويل في هذا العمل وتعرف إلى أصدقاء وأناس يحبونه كما أصبح حتى على علاقة ببعض رجال الشرطة، ولكنه اختار الطريق الخطأ. لم

يفعل ذلك وحسب، بل راح يرتكب خطأ تلو الآخر. والآن، وجد عاقبة كل شيء تعود عليه وحده. حتى الآن، ظل يهرب من كل تلك الأفكار ولم يستطع أن يجبر نفسه على الاعتراف. واعتقد، أو حتى تمنى، أنه إن تجاهل الحقائق فلن تزعجه. وبطريقة ما، فقد أرسل أمنياته إلى الكون، حسب العادة الشائعة في تلك الأيام، وتوقع منها أن تتحقق بمعجزة.

مهما حاول جاهداً أن يفكر، فلم يعرف من أين يبدأ رحلة بحثه عن دنيز، فهو لم يكن حتى يعرف شهرته. وحتى لو تمكن من معرفتها، وهذا ما يمكنه الحصول عليه من الكلية، ولكن ماذا بعد؟ أو ماذا يسعه أن يفعل إن لم يستطع ذلك؟ إلى أين سيذهب؟ أين يمكن لشاب مثل دنيز أن يعيش؟ في يسيلكوي؟ كاديكوي؟ كيهانغير؟ ثم فكّر في نفسه: "كلا، ليس كيهانغير فكّر في أنه لا يمكنه أن يجوب كافة أنحاء اسطنبول بحثاً عنه. ماذا سيحدث له إن لم يتمكن من العثور عليه؟ ماذا سيفعل به خاله حامد؟ كل شيء وأي شيء. ماذا إن عرَّفه إلى شخص آخر وقال له إنه دنيز؟ تسارعت أفكاره. والآن، شعر أنه سيصل إلى حل ما. فقد بدأ دماغه يعمل أخيراً. وفكّر في أنه إن تمكن من الوصول إلى البيت، واحتساء شراب ما، فقد يتمكن من تصفية ذهنه والتفكير بشكل أفضل حتى التوصل إلى حل معقول. في اللحظة التي أخذت فيها آيز تدعو ربها قائلة: "أرجوك يا الله أن ترسل إلي ابني سليماً معافى فتح الباب ودخل وهو مليء بالأمل. فقد تمكن من النجاة بنفسه لذلك اليوم والعودة إلى قلعته في نهاية المطاف. والآن، توجب عليه أن يفكّر في من يمكن أن يحل محل دنيز.

* * *

تأمل حامد لطفي بعناية وهو يبتعد وشعر أن هناك صفة حيال ذلك الشاب تجعله غير أهل للثقة؛ ربما الطريقة التي يمشي بها كالسلطعون أو سلوكه المتهور إلى حدٍّ كبير، وهذا ما لم يعجب حامداً. فقد بدا له واضحاً وضوح الشمس أن ذلك الفتى لن يتمكن من العثور على دنيز. وإن لم يضغط عليه حامد عندما اكتشف أنه لا يعرف مكان إقامة دنيز أو لا يمكنه العثور عليه، فقد أحجم عن ذلك العمل لأن هناك أسباباً منعته. أولاً: إنهما كانا في مكان عام. ثانياً: إنه غيَّر رأيه. فقد سبق وانتقل إلى الخطة البديلة بعد أن تلاشت آخر فتات الحب والشفقة التي تبقت لديه تجاه لطفي مع آخر كلمة "حسناً" قالها له. فإن توجب عليه أن يدفع ثمن الخطأ الذي ارتكبه، فقد تعين على لطفي أن يدفع ثمن خطئه بدوره. أدرك أنه لا مستقبل لذلك الفتى على كل حال وأنه لن يصمد لأكثر من خمس سنوات بإمكاناته الحالية. وإن لم يفعل حامد ذلك، فلا بد أن شخصاً آخر سيتولى أمره في وقت ما. وحتى لو لم يحدث شيء من هذا القبيل، فلم يخامره شك بأن رصاصة طائشة قد تقتله. فلطالما تصرف بغباء وبقلة عقل، وهذا ما أيقن حامد أنه سيجعله يواجه مصيره المحدد إن عاجلاً أم آجلاً. لطالما فهم حامد كيف يعمل هذا النوع من عقول الناس المغفلين. والآن، لم يغب عن انتباهه أن ابن أخته ذلك سيحاول أن يخدعه ويشير إلى أي شخص على أنه دنيز بدلاً منه. وأيقن أن لطفي لن يتصل به تلك الليلة. ومع ذلك، فقد توقع أن يتصل به في الليلة التالية أو صباح اليوم التالي ليخبره أنه عثر على الشاب، وبهذا تنتهي المهمة عند ذلك الحد.

هكذا، ففي هذا الجانب المظلم من حياة مدينة اسطنبول، خلافاً للآخرين الذين لا نعرفهم، هناك ثلاثة أشخاص سنراقبهم عن

كثب: دنيز ولطفي وحامد. وسيخبرنا الوقت فقط أيهم سيبقى وأيهم سيرحل. ترى هل يعرف عيسى الذي قوى علاقته بالعالم الآخر بقربه منه والذي زاره المستقبل في أحلامه ما سيحدث؟ هل ستنقذ صلاة أم حياة ولدها الشاب؟ عما قريب، ستظهر لنا الحياة الأجوبة عن كل تلك الأسئلة.

26

في كثير من الأوقات، اعتاد خالد لاوي الحديد أن يفكر في أبيه في حياته ويتلو صلاة على روحه ويتمنى أن يخبره مرة أخرى كم يشعر بالامتنان لكل شيء فعله من أجله. لم يظهر عدم الاحترام لأبيه ولم يتركه وحده ولو ليوم واحد وقام بواجبه كابن بقدر المستطاع. وحاول لاوي الحديد أن يشكر حسن طالعه الذي ساعده طوال حياته بأن أظهر الطيبة نفسها التي أظهرها والده له عندما كفله وهو يتيم. لم يعثر على مصطفى في الشارع كما عثر عليه والده، بل في ملجأ للأيتام. وهكذا، فلم تتبع الأمور المسار المقدر لها، بل المسار الذي وجهها فيه خالد. لم يزر الملجأ مرة واحدة وحسب بل عدة مرات. فراح يراقب الأطفال من بعيد محاولاً أن يختار أحدهم. ومع ذلك، فقد ظل لفترة عاجزاً عن الاختيار. وبالرغم من أنه حاول أن يتظاهر بأنه موجود هناك لسبب آخر غير التبني، فقد أظهر بعض الأطفال سلوكاً حسناً للغاية ليحبهم ذلك الرجل حسن الهندام بينما ابتعد البعض الآخر لأنهم أدركوا أنهم لا يستطيعون التأقلم مع أي عائلة أخرى غير عائلتهم الحقيقية.

في الواقع، لم يشعر خالد بالارتياح حيال اختيار الطفل بتلك الطريقة. فقد اعتقد أن الأمر لن ينجح لو لم يضع القدر يده فيه، ولكنه أصيب بالسأم من الانتظار لسنوات. فقد ازداد لهفة لسداد الدين لحظه السعيد. وفي المرة الأخيرة التي زار فيها الملجأ، رأى مصطفى. فلفت الصبي انتباهه وحده من بين المجموعة كلها بشعره

الأشقر الداكن القصير وعينيه العسليتين ولون بشرته الزيتوني وهو جالس بصمت في إحدى الزوايا. على عكس الأطفال الآخرين، لم يبذل جهداً ليحبه الناس أو ليكرهوه بل وقف هناك منتصب القامة وكأنه منعزل عن العالم ويداه على جنبيه ونظره مركز على خالد. لم يبد ممتعضاً أو غاضباً بل مصمماً فقط. فهذا هو ما رآه خالد لاوي الحديد فيه. وتلك هي الصفة الوحيدة التي لطالما أعجبته في الناس، إنها التصميم. لم يأبه قط للاجتهاد أو الفضيلة. من وجهة نظره، فلا يقوى أحد على مجابهة شخص مملوء بالتصميم. استدعى أحد الموظفين، وسأله لماذا لم ير ذلك الطفل من قبل في زياراته السابقة. هل وصل لتوه إلى الملجأ؟ ولكن قيل له إن مصطفى يقيم في الملجأ منذ نعومة أظفاره. ومع ذلك، فقبل ثلاثة أشهر حضر عمه الذي هاجر قبل مدة طويلة ليعمل عاملاً في فرنسا وعاش هناك لسنوات بشكل غير شرعي مما منعه من المغادرة. وعندما عرف عن ابن شقيقه المتوفى، أقسم أنه سينال حضانة الطفل حالما يصبح له الحق في العيش بفرنسا بشكل قانوني. وفي نهاية المطاف، تحققت أمنيته. فحالما تمكن من الحضور إلى تركيا، حضر إلى الملجأ على الفور وحصل على حضانة الطفل وأراد أن يأخذه إلى يوزغات ليزور بلدته الأصلية ربما للمرة الأخيرة قبل أن يعود إلى فرنسا. وفي طريق العودة، استغرق في النوم وهو يقود السيارة ذات الرخصة الفرنسية فاصطدمت بشاحنة، ولكن مصطفى نجا بمعجزة من السيارة المحطمة من دون أن يصاب بخدش واحد. ومع ذلك، فقد توفي عمه. ولهذا السبب، أعيد إلى الملجأ وهو يبكي حزناً على حرمانه من أبيه للمرة الثانية بعد أن عرف طعم العيش في كنف أحد الأبوين. وظلت النساء اللواتي تطوعن للعمل في الملجأ يتحدثن عن

حسن طالع مصطفى لنجاته من الحادث، ولكن أيضاً عن مدى سوء حظه لأنه من الأصعب على الأطفال الذين رأوا العالم الخارجي أن يعودوا إلى الملجأ. بالنسبة إلى مصطفى، كان هذا صحيحاً تماماً. في يوم زيارة الملجأ، وقف مصطفى في الزاوية وهو يحدق بذلك الرجل ذي البذلة البيضاء ويبذل جهده ليجعل دماغه يرسل كل الإشارات المحتملة ليلتقطها الرجل. أصغى خالد إلى القصة، وقرر أن هذا هو الطفل الذي يريد أن يتبناه، ولهذا تم الإسراع باتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً إلى أن نشأت بينهما علاقة وثيقة. فقد عامل خالد الطفل بالضبط كما عامله موسى، وتقبل المسافة التي تبقت بينهما كنتيجة طبيعية لكونهما ليسا أباً وابناً حقيقيين. فاتخذت علاقتهما طريقها في اتجاه الاحترام المتبادل. تحلى خالد بالصبر، وأدرك أنهما سيصبحان أقرب بمرور الوقت، وأيقن أن مصطفى سيصبح متعلقاً به أكثر، وسيكنّ له مشاعر الامتنان نفسها التي كان يكنها لموسى في الماضي. وأثبتت له الأيام أنه على حق. فقد ازداد مصطفى قرباً منه بمرور السنين، وأصبح صديقه المفضل، وكاتم أسراره الذي لا يمكن أن يفارق نظره. وورث كل الصفات التي يتمتع بها خالد، وأصبح يحاكي أسلوبه في المشي وحتى عند الغضب. وبات يثق بكلمة والده أكثر من أي شخص آخر بينما لم يعد خالد يضع ثقته بأحد سواه في العالم أجمع.

* * *

قبل أن يغلق مطعم المأكولات البحرية الذي ذهبا لتناول غدائهما فيه، غادر الأب والابن المكان وتوجها نحو سيارتهما. كان المطعم يقع في مكان ما خارج المدينة وسط المجهول. وعندما خرج الرجلان، لم يكن قد بقي فيه أحد. وبعد أن أكلا وشربا الكثير

وأمضيا وقتاً رائعاً معاً، جلس مصطفى في مقعد السائق وجلس خالد بجانبه. فقال لابنه: "توخَّ الحذر وَقُدِ السيارة ببطء. فقد أفرطت في الشرب. دعنا نبق بأمان" أصغى إلى والده وخفف السرعة، فهو لم يكن على عجلة من أمره على كل حال. وبعد أن قطعا ميلاً واحداً فقط، بدأ مصطفى يشعر بالغثيان، وقال إنه ربما أصيب بالتسمم وإنه يشعر برغبة في التقيؤ. فركن السيارة إلى اليمين. وقبل أن يذهب نحو الشجيرات ويبدأ بالتقيؤ، أشار إلى والده ليعتلي كرسي السائق، فهو لم يعد في حالة تسمح له بالقيادة. نهض خالد ومشى إلى الجهة الأخرى ليركب خلف المقود. وفي تلك الأثناء، جهز مصطفى المنديل الذي أخرجه من جيبه. وبينما هو يعدل كرسي القيادة والمرآة الخلفية لتناسب جسده الضخم، لم يدرك خالد أن ابنه راح يزحف على ركبتيه حول السيارة حتى وصل إلى جانبه. ولم ينتبه أيضاً للنافذة التي تعمد ابنه تركها مفتوحة. حاول أن يتبين شكله في الظلام. ترى هل تحسنت حاله؟ قبلَ أن يدرك ما يجري، مد مصطفى يده من النافذة وكتم أنفاس أبيه بالمنديل. كان خالد ذئباً شرساً لا يمكن أن يستسلم بسهولة رغم كبر سنه. فقبض على يدي مصطفى بكلتا يديه وحاول أن يتخلص من قبضته. ومع ذلك، فقد بدا ابنه مستعداً لهذا التصرف ربما ليس جسدياً ولكن عقلياً. ومهما حدث، فقد صمم ألا يفلته وأن يظل صامداً إلى أن يغمى على خالد. وعندما أدرك خالد لاوي الحديد أنه لن يتمكن من ثني معصم يد ابنه، بدأ يضغط على بوق السيارة. لم يستطع مصطفى أن يمنعه، ولكن ذلك لم يشكل أية أهمية على كل حال لأنه ما من أحد في الجوار. لم يعد خالد يقوى على المقاومة بعد الآن بسبب الضعف الذي أصابه بفعل الشراب. فاستسلم للرائحة التي أشبع بها المنديل وغاب عن

الوعي. وضع مصطفى قدم والده على دواسة الوقود ثم فتل المقود إلى اليمين وشغل المحرك. وهكذا، لم يتبق عليه أن يفعل سوى إنزال فرامل اليد والابتعاد عن السيارة بأسرع وقت ممكن. كانت هذه ميزة السيارات الأوتوماتيكية، فالحركة تنتقل حسب السرعة التي تصل إليها السيارة. هيأ نفسه للابتعاد بسرعة. فأنزل فرامل اليد وابتعد في الحال. وهكذا، فإن تم كل شيء كما خطط له، فقد كانت السيارة ستسقط من أعلى التل إلى اليسار. أدرك أن الوقت قد حان الآن ليرى إن كان سينال أي مساعدة من حظه. وبالفعل، نال مراده. فقد لقي خالد لاوي الحديد حتفه على يد الشخص الوحيد الذي وثق به أكثر من الجميع في أسعد ليلة أمضياها سوية. عاد مصطفى أدراجه مشياً على الأقدام بمساعدة مصباح كشاف صغير أحضره معه في جيبه. وركب السيارة التي ركنها في موقف السيارات في المطعم قبل عدة أيام وتوجه فيها إلى البيت وكأن شيئاً لم يكن. أما بقية المهمة، فقد تولاها ارتداء قناع الحزن. فكل ما تبقى عليه فعله هو أن يبكي ويتفجع ككل محبي خالد الآخرين. وبعد أن انتهى من الجنازة والتعازي وكل ما إلى هنالك، بدأ يسير أمور العمل بنفسه شخصياً. كانت لدى مصطفى رؤيا واسعة ومستقبل مشرق ينتظره وأساسات عفنة سيبني عليها إمبراطوريته الخاصة فيما بعد.

27

بالرغم من أن لحية دنيز النامية والكثة أزعجت السيدة سوزان، فقد باتت الآن على الأقل راضية لأنه بدأ يتواصل مع الطبيب. استطاعت أن تلاحظ أنه يعيش عالماً داخلياً مضطرباً وأنه يعاني من نوم مشتت. فقد رأته عدة مرات ينهض من سريره في الليل ويتفوه بعبارات لا معنى لها ويكرر بعض الأسماء. وكان يستيقظ في نهاية هذا النوم المعذب ويطالب أمه بأن تخبره بما قاله إن أتت لتتفقده. ومع ذلك، فقد عجزت السيدة سوزان عن فهم هذيان ابنها. فمهما حاولت جاهدة أن تتبين معانيه، فلم تستطع أن تفك شيفرته. أما دنيز، فقد قطع كل صلاته بالعالم الخارجي باستثناء الذهاب للعلاج. وظل ينقب في كل الصحف التي تأتي إلى البيت، ويمضي بقية وقته بانتظار الأخبار على كل محطة من محطات التلفزيون كل ساعة. وكان الشيء الوحيد الذي شكّل عزاء للسيدة سوزان هو المحادثة التي جرت بينها وبين المعالج لأنها تمكنت من عرض وجهة نظرها. فتوصلا إلى استنتاج وحيد، وهو أن دنيز يمر بحالة اكتئاب شديد. فنصحها الطبيب بأن تبتعد عن حياة ابنها في الوقت الحاضر وتكتفي بمراقبته في البيت. لم يكن يظن أن ابنها سيؤذي نفسه، ولكنه نصحها مع ذلك أن تبقى متيقظة. أيقن السيد بسمان أن دنيز يمر بأزمة هوية. عندما وصلا إلى هذا الجزء من الحديث، نظرا إلى بعضهما بحذر وكأنهما يحاولان أن يقررا من سيفتح هذا الموضوع الذي بدا واضحاً كالشمس بالنسبة لكليهما. أعرب السيد بسمان عن اعتقاده أن دنيز

بحاجة إلى أن ينقب عميقاً في أعماقه ويقطع علاقته بالعالم الخارجي أثناء بحثه عن هويته، وهذا أمر لا خطب فيه، وأنه ينبغي على السيدة سوزان ألا تلح عليه بل أن تكتفي بالانتظار إلى أن يتخطى هذه المرحلة. ومع ذلك، فقد بدا صعباً عليها أن تصغي بالفعل إلى ما يقوله أو على الأقل أن تطبق هذا الكلام في الحياة اليومية على الرغم من احترامها الكامل للآراء الطبية. بالنسبة إلى الأمر الأول، فقد ظنت أن دنيز بحاجة إلى استنشاق بعض الهواء النقي الضروري للتفكير الصافي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد اعتبرت أن ذهابه إلى المقهى أو ليتمشى في الأنحاء قد يرفع روحه المعنوية ويساعده على أن يدرك أن ما يعانيه ليس نهاية العالم. وبغض النظر عن كل شيء آخر، فقد قررت أنها ستفهم وضعه وتتقبله في كل الأحوال وتتولى المسؤولية لمواجهة العالم بالنيابة عنه. أليس ذلك مهماً؟ ومع ذلك، فإن فتحت فمها لتقول أي شيء، تحول دنيز الذي اعتاد أن يجلس ساكناً ومكتئباً على الأريكة إلى شخص شديد العدوانية، وانفجر غاضباً وافتعل شجاراً من لا شيء. في بعض الليالي، لم يكن النوم يجافي السيدة سوزان وحسب بسبب كوابيس ابنها بل أيضاً بسبب الشعار الذي اتبعته طوال حياتها: "من الأفضل السهر على التعرض للكوابيس وأصبحت تخشى أن يتحول الوميض في عيني دنيز إلى نار متأججة في الليل لأنه بات من العادي بالنسبة إليه أن يستسلم لنوبات الغضب.

ما لم تعرفه السيدة سوزان هو أنه على الرغم من أن شيئاً لم ينتج عن قضية أوكان، فذلك لم يبد سبباً كافياً لإقناع دنيز بأن كل شيء على ما يرام. فقد أقسم والد الشاب على أن يكتشف ما حدث لابنه، ولهذا السبب لم يعتقد دنيز أنه سيترك القضية تنتهي بتلك

السهولة. وأيقن الآن أن الشرطة لا تزال تحقق في القضية بهدوء وأن المسألة مسألة وقت فقط حتى يتم القبض عليه. بعد أن تخلص من الهاتف، لم يعد يسمع أي خبر من لطفي، وهذا يعني أنه كف عن محاولة البحث عنه، ولكنه وجد ذلك التصرف أيضاً غير طبيعي. فلماذا قد يوقف البحث عنه بعد شدة تلهفه للعثور عليه؟ تساءل عن مقدار ما تعرفه أمه عما يجري. لم يخامره شك في أنها تصغي إلى هذيانه ليلاً، ولكن مهما سألها عما قاله، ظلت مصرة أنها لم تستطع أن تفهم شيئاً منه. ترى هل سبق وأفشى السر أثناء نومه؟ حاول ألا ينام لوقت طويل في الليل إلى أن كاد يغمى عليه من شدة الإعياء. فأصبح معظم الوقت ينتظر أمه لتبدأ بالشخير بهدوء حتى يتمكن من إغماض عينيه، ولكنه عجز مع ذلك أن يتحكم بما يجري بعد نومه. على الأقل، فقد ظل على يقين من أن المعالج لم يكن يعرف أي شيء. في الواقع، لقد بات الطبيب الشخص الوحيد الذي يشعر بالراحة لوجوده معه. في أيام ذهابه لجلسة العلاج، كان يستقل سيارة أجرة في الذهاب وسيارة أخرى في العودة. لم تكتشف الشرطة مكان إقامته بعد، لذا فقد أيقن أنهم لم يعرفوا شيئاً عن ذهابه إلى عيادة الطبيب. ومع ذلك، فقد كان واقعياً بما يكفي لأن يعرف أن كل شيء قد يتغير بين ليلة وضحاها.

رفض أن يستبدل ملابسه بملابس أكثر أناقة عندما حان موعده لمقابلة الطبيب. فبماذا يهم ما يرتدي؟ شعر برغبة ملحة وقوية لأن يهاجم أمه عندما أخذت تقنعه بحلاقة لحيته أو تغيير ملابسه، ولكنه لم يجسر على إيذائها. ترى ما الذي تعرفه تلك المرأة؟ لديها نظرية حيال كل شيء، أليس كذلك؟

في ذلك اليوم، عندما دخل إلى عيادة الطبيب، اكتشف أخيراً

لماذا تولد لديه شعور بالتعاطف مع ذلك الرجل. فبالرغم من كونه طبيباً، إلا أنه أحب فيه عدم تطفله واقتصاره على أقل قدر ممكن من الكلام. وهكذا، شعر دنيز بوجود السيد بسمان أنه في حقل لا حدود له بوسعه أن يجري فيه إلى أبعد مسافة يمكن أن تحمله إليها قدماه. كان التعاطف الذي شعر به تجاه الطبيب متبادلاً. فقد سحر الشاب السيد بسمان أكثر من أي مريض آخر. فحتى تلك اللحظة، عمل على معالجة عدد من المريضات وتقصى عن ماضيهن حتى بدأ الملل يصيبه من شدة ما تشبه مشاكلهن وكآبتهن بعضها بعضاً. لم يلجأ إليه إلا عدد قليل جداً من المرضى الرجال، لذا لم يصادف شاباً مثيراً للاهتمام مثل دنيز. فقد بدت حالته أشبه بموضوع للبحث. ووجد فيه أفضل مثال على الشاب الذي يجد نفسه محشوراً بين عدة هويات ولا يعرف كيف يتعامل مع ميوله بعد أن سئم من محاولة الوصول إلى مستوى أمه المثالي، التي لطالما اعتبرها مثلاً أعلى له منذ طفولته، إلى أن حول الإعياء شعوره إلى كراهية. لم يكتفِ السيد بسمان بتسجيل هذه المعلومات على الشريط بل دوّن ملاحظات عنها ودفن رأسه في الكتب وتصفح الإنترنت لساعات ليعمل على هذا المشروع بتفصيل مرهق. كيف سيجعل هذا الشاب يكسر قوقعته؟ والأكثر أهمية هو كيف يجعله يتصالح مع هويته الجديدة؟ هل سيتمكن من التعامل مع الضغط الناجم عن المجتمع؟ هل سيتخطى الآخرين؟ لقد أدرك أن مدة هذا العلاج ستطول وتطول. في رأيه، يتطلّب علاج دنيز أن يستمر لبضع سنوات على الأقل إلى أن يتمكن من الوقوف على قدميه. لم يكترث إلى أي حدّ يصل انعزاله عن العالم وانطواؤه، فهو لم يعتبر هذه المرحلة طبيعية فحسب بل ضرورية. لم يعد هناك ما يثير اهتمام دنيز الآن. وعلى كل حال،

فقد أدرك أن على المرء أن يمتن دعائم عالمه الداخلي قبل أن ينفتح على العالم الخارجي بكل غرابته، وهذا هو ما قام به دنيز في تلك اللحظات ولكن بشكل لاشعوري.

لاحظ السيد بسمان منذ البداية حالة الشك التي يعاني منها الشاب، وهذا بالطبع نابع من الخوف من القبض عليه. فقد تملكته خشية من أن يرى العالم داخل أعماقه ويكتشفوا جوهر مشاعره. وظل يطرح أسئلة مبهمة عن مدى ما يعرفه الطبيب والسكرتيرة عنه، ولكن حركاته اللاإرادية هذه هي ما فضح توتره. وجد الطبيب أن ما يعاني منه دنيز مثال فريد من نوعه على اضطراب الهوية يمكن أن يستخدم في كتب علم النفس. فقد بدا كل شيء فيه واضحاً وضوح الشمس. ابتسم لنفسه قائلاً: "يا للفتى المسكين! لو أنه فقط يدرك كم أن وضعه واضح ويسترخي. سنعثر على طريقة ما ونتوصل إلى هذا. وفي نهاية المطاف، سننجح مهما استغرق الأمر من وقت. وعندئذ، سينعم دنيز بالسلام" شعر أيضاً بالرضى عن المستوى الذي وصل إليه. ولم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالفخر بالرغم من أنه قاوم تلك الرغبة الملحة. فقد نجح في التواصل مع مريض صعب في غضون وقت قصير وقطع مسافة طويلة في فترة بسيطة. وبات بوسعه الآن أن يتقاعد، وهذا شيء تطلع نحوه منذ زمن، بعد انتهائه من علاج دنيز. فكّر في أن يرحل إلى قريته التي تقع على ساحل البحر المتوسط في غضون عامين أو ثلاثة أعوام. ووضع لنفسه هدفاً بأن يختم مهنته الحافلة بهذا الإنجاز الطبي المُرضي. اتصلت به سكرتيرته وهو في غمرة أحلامه عن المكان الجميل على شاطئ البحر لتخبره أن دنيز قد وصل. فاتخذ مكانه استعداداً للجلسة الجديدة.

* * *

"على سبيل المثال، يحتاج الطيار إلى الكثير من المعدات ليسافر بالطائرة من هنا إلى الولايات المتحدة الأميركية، هذا ما أقوله"

"مثل ماذا؟"

"حسناً... كمبيوترات وخريطة لتحديد المسار ورادار وجهاز استقبال. يجب عليه أن يتلقى الإشارات من الأقمار الاصطناعية. ولا بد كذلك من وجود برج مراقبة"

"حسناً؟"

"السؤال الذي أريد أن أطرحه هو: عندما يكون هذا هو الحال بالنسبة إلى الطيارين، فكيف يستطيع الطائر أن يفعل ذلك؟ كيف يستطيع العثور على طريقه على سبيل المثال؟ لنقل إنه يريد أن يهاجر إلى الشرق، كيف يحدد بالضبط اتجاه الشرق واتجاه الغرب؟"

"حسناً، أظن أن الطيور تعتمد على الشمس والنجوم والعناصر الأخرى لتعثر على اتجاهها"

"نعم، ولكن ما أعنيه هو هل يتمتع الطائر بالإدراك نفسه الذي نتمتع به نحن؟ إن الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب. إذاً كيف يعرف الشمال والجنوب؟"

"إنني واثق من أنك تستطيع العثور على الأجوبة عن هذه الأسئلة في مكان ما. يمكنك العثور عليها في محرك البحث غوغل أو الذهاب إلى المكتبة"

"سبق وبحثت عنها. ولا أحد يعرف بالضبط"

"لماذا يهمك هذا الموضوع؟"

"هل أنت مهتم بأن تعرف الاتجاه أم بأن تثبت أن كل مخلوق له صفاته الخاصة؟"

سـر الطبيب لأن يجد الموضوع يصل بالضبط إلى حيث يريده أن يصـل مـن دون مجهـود، أي بمحـض الصدفـة تقريبـاً. فقـد كان الجواب عن كلا السؤالين سيزوده بالمفاتيح التي يحتاج إليها لعلاج مريضه. وأيقن أنه سيحدد الاتجاه الذي يسير فيه دنيز وفقاً للجواب الذي سيدلي به.

"إنني لست مهتماً بأي موضوع من أي نوع، ولكنني أشعر فقط بالفضول حيال معرفة الطيور لاتجاهها"

لم يدع السيد بسمان الموضوع يمر مرور الكرام. فقد اعتقد أن تلـك اللحظـة لحظـة مفصليـة في العلاج برمته. وقرر ألا يخسـر هذه الفرصة بعد أن اقترب منها بنفسه.

"فهمت. حسناً، كيف تعثر أنت على اتجاهك؟"

"ماذا تقصد؟"

"أعني ما سألته. عندما تمشي، كيف تعرف إلى أين ستذهب؟"

"إنني كائن بشري أستطيع التفكير أفضل من الطيور. وبالإضافة إلى ذلك، فأنا مستعد لاستخدام المعلومات المتوفرة لدي"

"حسناً، إذاً كيف تعثر على اتجاهك في الحياة؟"

"ماذا تعني مرة أخرى؟"

"كيـف تعـرف مـا تريده من هذه الحياة؟ كيف تصل إلى الهدف الذي تريد أن تصل إليه؟"

"ما هو الهدف الذي أريد أن أصل إليه؟"

"أنت أخبرني

"هل لديك توقعات من هذه الحياة؟ أي هدف تريد أن تحققه؟"

خيم الصمت عليهما. لم يتوقع الطبيب أن يكون من السهل سبر أغوار دنيز، ولكنه سر غاية السرور للتقدم الذي حققاه، وتشجع أكثر عندما وجد دنيز، الذي آثر أن يجلس من دون أن يتفوه بكلمة واحدة خلال الجلسة الأولى، يحول عالمه الخفي إلى أجزاء يمررها خلال أحداث العالم. وبالرغم من أنه لم يود أن يفعل ذلك، فقد ذكّر دنيز أن جلستهما وصلت إلى نهايتها. وبالرغم من عدم وجود أي مرضى آخرين بانتظاره، إلا أنه ظل يدرك أنه من المهم أن تظل علاقتهما ضمن إطارها المنضبط لئلا يخيفه بشدة الضغط عليه. وفوق كل شيء، فقد ساعده إنهاؤه للجلسة على التأكيد أنه لا يشعر بالفضول حيال أي شيء يخرج من فم مريضه. وكانت تلك المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك. فلطالما ذكره دنيز بانتهاء وقت الجلسة. مع ذلك، تغيرت أماكن خيوط اللعبة فأمسك بها السيد بسمان الآن بسعادة كما ينبغي عليه. فقد وجدها جلسة مرضية إلى حدٍّ كبير على كل حال. غادر دنيز المكان وهو يجر قدميه كما فعل عندما دخل. وكانت أمه، التي اعتادت أن تلاحظ كل شيء حول ابنها كمحللة نفسية وليس كأم، قد لفتت نظر الطبيب في وقت مبكر لكيفية مشي دنيز. فقد كان دنيز يجر قدميه طوال الوقت. ترى هل هذا جزء من أعراض الاكتئاب؟ فأجاب الطبيب أنه كذلك على الأرجح. لم يشكل دنيز حالة صعبة من وجهة نظر الطبيب بل أحجية يسهل جمع أجزائها. وبالرغم من الفترة الزمنية التي سيتطلبها الأمر ليسمع الحقيقة الكاملة منه، إلا أن السيد بسمان وجد في نفسه الثقة الكاملة في قدرته على معرفتها.

28

أحدث موت خالد لاوي الحديد تأثير القنبلة في عالم الجريمة المنظمة. فلطالما عرف الجميع شدة مقته لقيادة السيارات وأنه اعتاد أن يجعل ابنه أو أي شخص آخر يقود سيارته نيابة عنه. ولهذا السبب، لم يجد أحد القصة قابلة للتصديق، ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على النبش عن الحقيقة أو يشعر بضرورة العثور على الحقيقة لأنه ليس بوسعه تغييرها في كل الأحوال. أدرك الجميع أن كل شيء يملكه خالد: العقارات والمال والأعمال سيذهب إلى ابنه مصطفى. وكان مصطفى فرداً محترماً في العصابة لا يضمر أي عداء لأحد ويتحلى بقدرة تامة على القيام بنفسه بمتابعة العلاقات التي سلمها له والده.

إن كان هناك شخص واحد في العالم لن يشكك في موت لاوي الحديد أو الطريقة التي حدث بها ذلك، فذلك الشخص هو حامد. إذ تبين له أن مشكلته حلت وانتهت المسألة أخيراً. فقد قاله له لاوي الحديد إنه لن يخبر أحداً حتى ابنه مصطفى بالمشكلة التي حدثت بينهما إكراماً للأيام الخوالي. ولهذا السبب، فإن تمكن من النجاة من تلك المعضلة، فسيكونان الشخصين الوحيدين اللذين عرفا بالأمر برمته.

شعر حامد بعبء ثقيل ينزاح عن صدره. وبالرغم من أن رحيل صديقه القديم أتى مفاجئاً ومبكراً، فقد ناسبه تماماً. إذ لم يعد يتوجب عليه أن يجد أي شخص يحل مكان أحد بعد الآن، لذا اتصل بلطفي ليعلمه بذلك. وكان لطفي في تلك اللحظة، على عكس خاله، مشغولاً

بتحليل نظريات المؤامرة حول موت خالد. فرد على الهاتف من دون أي قلق على الإطلاق لأنه سبق وعثر على اسم لخاله. ومع ذلك، فقد قال له حامد ببساطة: "المهمة ألغيت" وأنهى المكالمة. نعم، لقد أنهى المكالمة، ولكن هذا لا يعني أنه نسي قراره بشأن لطفي. فقد تولد لديه شعور بأن لطفي سيرتكب خطأً ما إن عاجلاً أم آجلاً أو يفسد الأمور سواء في هذا الأمر أو غيره. أشعل لطفي سيجارة، وهو غافل عن الأفكار التي دارت برأس خاله، واستدعى أمه وقال لها: "أعدي لي بعض الشاي، يا أمي؟" ظلت آيز تنتظر سماع هذا الكلام منذ بعض الوقت. فعندما يطلب ابنها الشاي، فهذا يعني أن الأمور على ما يرام. ذهبت وهي تتمتم بسعادة ووضعت إبريق الشاي على الموقد وأعدت لابنها شطيرة الفانيليا المفضلة لديه والتي يصبح طعمها أشهى بكثير عندما تغمس بالشاي. وحمدت ربها أن المياه عادت إلى مجاريها من جديد.

لو لم يذهب حامد ليقابل عيسى ويصلح التوتر الذي نشأ بينهما في آخر مقابلة جمعتهما ويخبره أن مشاكله قد حلت، لما عرف عيسى أي شيء عن موت خالد. فقد ظل مقصياً عن أحداث ذلك العالم بقدر تورطه فيها، وهذا ما قد لا يتخيله الكثير من الناس. فلو أنهم عرفوا فقط عدد الناس الذين دفنهم حتى تلك اللحظة، ولو أدرك عالم الجريمة وجوده، لامتلأت بوابة مقبرة سيفيلي بسيارات فخمة من طراز بي أم دبليو ومرسيدس وشيريوكي وجيب ولما اصطف زعماء عصابات اسطنبول وحدهم بل زعماء البلاد كلها أمامه ليحصلوا على المعلومات. في الواقع، مهما بذلوا من جهد في استجوابه، فعيسى لم يتعرف قط إلى هوية الجثث التي دفنها. وبالرغم من المبالغ الكبيرة التي تمكن من أن يجنيها من وراء هذا العمل، فلم تتولد لديه النية

أن يتعلـم جوهـر تلـك المهنـة أو يعرف أي شـيء بخـلاف ما قاله له حامد خلال تلك اللحظات النادرة التي باح له فيها ببعض الأسـرار. لم يكن غبياً. فقد أيقن أنه إن نقب عميقاً لكشف النقاب عن أسرار لتمكن من بيعها لأناس آخرين بمبالغ ضخمة من المال، ولكنه فضّل أن يقتصـر علـى القليـل بدلاً من أن يخاطر بحياته. وخدمت لامبالاته تلـك مصلحـة حامـد أيضاً. فبالرغم من أنه شـعر بالحاجة إلى البوح بمكنونات قلبه في بعض الأوقات، وهو في أشد حالاته ضعفاً، فقد جعلته لامبالاة عيسى يغيِّر رأيه.

بعـد لقائـه الأخيـر مـع حامد، ارتدى عيسـى مـرة أخرى أفضل قميـص وبنطـال لديـه واسـتقل الحافلـة إلـى بيليربـي ثم قـام كعادته باستبدال المال والتوقيع لدى السيدة المهذبة الجالسة خلف المكتب وبدأ يبحث عن متجر لبيع القرطاسية في الشوارع الضيقة. دخل إلى المحـل الأول الـذي صادفـه وطلـب من البائع خريطـة. فقال له إنهم يبيعون الخرائط بكل تأكيد، لم لا؟ فطلاب الحي لا يحتاجون خريطة فقط ولكن أطلس العالم أيضاً. فهل يريد أن يشتري أطلس بدلاً من ذلك؟ كلا، بل خريطة تركيا فقط تكفيه. بالطبع، شعر الشاب بالفضول لسـماع ذلك الجواب. فما غرض ذلك الشـاب ذي السـاق القصيرة الذي يرتدي بنطالاً ضيقاً من الخريطة؟ بماذا يهمه ذلك؟ قدم عيسى أجوبة غير متعلقة بالموضوع عن تلك الأسـئلة، فهو بالطبع لم يكن سيخبره أنه يجني المال من دفن رجال ونساء لا يعرفهم وأنه ارتكب على الأرجح آلاف الذنوب ولكنه لم يكترث بالفعل لأن الحياة آثرت أن تعاقبـه عندمـا أبصـر نورها وأن الله سـيعوضه لأنه دفع ثمن ذنوبه بمعاناته في مستهل حياته وأنه لم ير البحر مطلقاً وأنه تعلم في قرية اسـمها كوزبيلي وقرر أن يشـتري بيتاً فيها ويسـتقر وأن مياه كوزبيلي

تشفي العليل وأنهم يعدون قهوة لذيذة هناك وأنه سيدفع ليرتين تركيتين ويرحل ولا يعود إلى الأبد. وعندما وضع الخريطة تحت إبطه وعاد أدراجه، وجد قبعة لباد على الارض. فانحنى والتقطها لأنها بدت جيدة ونظيفة. لم يرتد قبعة في حياته من قبل. وبدا لون القبعة البني مناسباً تماماً للون بنطاله، لذا اعتمرها وعاد إلى المقبرة. وعندما وصل، وجد حامداً يقف بانتظاره وهو ينظر حوله بتوتر في المكان نفسه الذي اعتاد أن يقف فيه، ولكنه هدأ عندما رأى عيسى يقترب منه وهو يعرج. ومع ذلك، فقد تقلصت عضلات عيسى عندما رآه. أليس ذلك حامد الذي لا يحب أن يأتي من دون أن يتصل به ولا يفضل أن يراهما أحد معاً. من حسن الحظ، لم يكن لدى حامد متسع من الوقت. فقد انتظر أكثر من اللازم. فقص عليه القصة برمتها بلمح البصر. وبالطبع، لم يتحدثا عما جرى بينهما من قبل وما لم يكن ينبغي أن يحدث بل تصرفا وكأن شيئاً لم يكن. لم يكن لديهما الوقت الكافي ولا المكان المناسب لاختيار الكلمات المنمقة للاعتذار. تفهم عيسى مغزى كلام حامد من دون تفسير ولم يشعر أنه بحاجة إلى سماع المزيد. لفت نظره التشابه بين الاسمين أيضاً: حامد وخالد. فحرف ونقطة فقط يغيران الاسم. يا لها من مصادفة! غادر حامد بعد أن ودع صديقه بسرعة بعد أن بات شعوره أفضل وأكثر استرخاء بشكل واضح. ومع ذلك، فهذا لم يغير من حقيقة أن عيسى ظل يتملكه الشعور الخانق نفسه. ترى هل عاد كل شيء إلى سابق عهده فعلاً؟ ترى أتلك هي المشكلة الحقيقية التي سببت له هذا القلق أم أن هناك شعوراً باطنياً وراء ذلك؟

* * *

بعد وفاة خالد، عادت حياة الجميع، سواء أدركوا ذلك أم لا،

إلـى حالتهـا الطبيعيـة. واطمأن حامد أنه قـد نجا من دفع ثمن باهظ. فأمضـى سـاعات طويلـة وهـو يقيِّم كيفيـة تعامله مع الأمـور، وأدرك أنـه تصـرف بقلـة خبرة في الآونة الأخيرة وارتكـب أخطاء عديدة لم يرتكبها من قبل. وظلت حادثة سايل تشغل باله. فذلك الرجل المدعو سايمون قبض المال من خالد بعد أن هدده بأن يحول المسألة كلها إلـى حـرب ثـم تخلى عن المجرم بعد موته، ولكن حامداً تسـاءل إن كان سيبدأ الآن بمضايقة مصطفى. ووجد أنه من الطبيعي بالنسبة إليه أن يطالب مصطفى بأن يحل المسـائل العالقة بينهما. لم يقتل حامد أي رجل لمتعته الشخصية طوال مهنته الطويلة بل قتلهم فقط من أجل المال ولم يستخدم مسدسه لإنهاء حياة أحد مهما وصلت حدة غضبه. وبالرغم من أن الكثير من الناس أثبتوا له أنهم يسـتحقون القتل، إلا أنـه لـم يفعـل ذلك. وعندما هدأ كل شـيء، فكّـر في أنه لم يعد يريد أن يتعرض لمشـكلة أخرى من ذلك الشـخص المدعو سـايمون. لم يخش أن يعرف أحد حقيقة طبيب الأسنان. ولكن ماذا لو كان حتى زعيـم كل أطبـاء الأسـنان؟ إذاً، لمـاذا كلف رجالاً بحماية ظهره؟ من هم؟ قال حامد لنفسه: "كيف بوسعهم أن يعرفوا إن قتلت سايمون؟" إن كان هناك من سيشك به، فأولئك هم رجال خالد الذين لا يمكن أن يبوحوا باسمه لأنهم يعرفون بعضهم منذ وقت طويل. وبالإضافة إلى ذلك، فقد خطر بباله أن تولي أمر سايمون كان ربما أمنية خالد الأخيرة. وبينما هو يمسـك كأس شـراب بيده، راح يقلب الفكرة في ذهنه في غرفة المعيشة فبدأت تعجبه أكثر فأكثر. وقرر أن يتولى تلك المهمـة فـي أقـرب وقت ممكن، ولكنه هـذه المرة صمم ألا يتصرف بشكل عبثي. فهذه المهمة لم تعد تحتمل ارتكاب خطأً آخر. فإن أراد أن يتم كل شيء بشكل نظيف، فقد توجب عليه أن يستجمع أفكاره

أولاً ثم يعد خطة محكمة. راجع الفكرة برمتها جيداً مرة أخرى قبل أن يتوصل إلى قرار نهائي. تساءل إن كانت فكرة جيدة أن يتحدث إلى مصطفى. لقد بات هو الرئيس الآن، ولكن حامداً تعرف إليه جيداً منذ نعومة أظفاره.

لطالما تعامل مصطفى مع حامد بكل الاحترام ونظر إليه بأشد الإعجاب، لذا لم يغب عنه مدى التأثير الذي يملكه على ذلك الشاب. نعم، لقد ارتكب خطأ في سايل، ولكن ذلك ليس تصرفاً غريباً. لم تواته الشجاعة الكافية لأن يشرح خطأه لخالد لأن أحداً لم يكن يشرح له أي شيء على الإطلاق. فقد كان هو من يتكلم بينما يصغي الآخرون، وهذا ما لطالما عرفه الجميع وتقبلوه. ومع ذلك، فقد أعطوه اسماً وعنواناً، لذا فمن الطبيعي تماماً بالنسبة إليه أن يظن أن الرجل الميت الذي عثر عليه هناك هو الضحية. سأل نفسه: "كيف يكون هذا خطئي أنا؟" فلو أنهم كلفوا أي شخص آخر بالمهمة، لارتكب الخطأ نفسه. فكّر أن يخبر مصطفى بهذا الآن ويعرض عليه أن ينهي المهمة المعلقة، فهو لم يتلق أجره عليها على كل حال ولم يكن ينوي أن يطلب أجراً. ولا بد أن مصطفى عرف أن والده أعطى سايمون بعض المال ليسكته. فخطر بباله أن يعيد له ذلك المبلغ أيضاً. والآن، شجعته هذه الفكرة أكثر على المضي قدماً في خطته. فقد كان مصطفى شاباً في مقتبل العمر وثمة فرصة كبيرة في أن يجده أقل تزمتاً وأشد سهولة في الإقناع من أبيه. قرر أن يصطحب لطفي معه وفكّر أن هذا سيساعده على الاستفادة من خدماته هناك ثم تولي أمره في طريق العودة. الآن، اتضحت الخطة بكل تفاصيلها ولم يتبق الكثير للقيام به سوى أن ينتظر طلوع الصباح وأن يحرص على أن تبدو خطته صحيحة في الصميم.

عندما استيقظ حامد في صباح اليوم التالي والسكينة تملؤه لمعرفته ما يريد أن يفعله، استيقظ عيسى في الوقت نفسه بعد أن راوده حلم وتمنى أن يكون تفسيره خيراً. فقد شاهد طوال الحلم صبياً لم يقابله في حياته قط. عثر عليه مدفوناً في هذه المقبرة. وكان له وجه جميل وجسد نحيل وصوت ناعم. سمع عيسى صوتاً وهو يمشي بين القبور في وقت متأخر من تلك الليلة في حلمه. وبدا كصوت شخص يقرع على الباب. نظر عيسى حوله إلا أنه عجز أن يحدد مصدر ذلك الصوت. وعندما التفت إلى اليمين ظناً منه أن الصوت صادر من ذلك الاتجاه، صدر الصوت هذه المرة من اليسار. وبعد أن بحث عنه لبعض الوقت، حاول أن يرهف سمعه جيداً هذه المرة ليحدد مكانه. فاكتشف أن الصوت قادم من مكان ما في مؤخرة المقبرة. فمشى نحو ذلك الاتجاه. وبات صوت القرع على الباب مسموعاً بشكل أوضح. ترى هل هناك شخص يريد منه أن يحفر قبراً؟ بينما هو واقف هناك حائراً لا يدري ما يفعل سمع صوته هو نفسه في أذنيه يقول له: "ادخل" كما اعتادت المعلمة سيما أن تدعو الطلاب للدخول إلى الصف. وعندما أدرك أنه هو من قال هذا الكلام، غطى فمه بيده. وفي تلك اللحظة، وقف صبي صغير من مكان استلقائه وهناك دم على بطنه ودموع في عينيه. حاول أن يخبره شيئاً ما، ولكن كلما حاول الكلام نزف الدم من جرحه أكثر. رأى عيسى الحلم نفسه مرة تلو أخرى طوال الليل. ربما حلم لدقيقة واحدة أو نحو ذلك، ولكنه شعر تلك المدة أشبه بالأبدية. وعندما استيقظ، لم تكن لديه أية فكرة عن هوية الطفل، ولكنه أدرك جيداً جداً أن أوان الرحيل قد حان. فقد شعر عيسى أنه متخم وعلى وشك الانفجار كأنه كوب ماء يملأ بالماء أكثر مما يستوعب أو بالون

ينفخ بالهواء فوق طاقته. ومع ذلك، فقد ظل هناك شيء آخر يمنعه. لم يعرف ما هو بالضبط، ولكنه شعر في قرارة نفسه أن هناك شيئاً واحداً لا يزال عليه أن يقوم به؛ مهمة ما. فقرر أن ينتظر إلى أن تأتي إليه تلك المهمة وأن يتحمل كل تلك الكوابيس التي سيراها وكل الأصوات التي ستناديه حتى ذلك الحين. وعندئذ، كان سيحفر حفرة كبيرة في عقله ويدفن سيفيلي فيها إلى الأبد.

29

لم يفاجأ مصطفى بأن يتلقى خبراً من حامد بل توقع في الحقيقة أن يـراه فـي أقـرب وقت. وكان خالد قد وفى بوعده وأثبت أنه رجل عند كلمته فلم يخبر ابنه عن الصفقة التي أجراها مع سايمون، ولذلك السبب، لم يعرف مصطفى أن حامداً بحاجة إلى شخص ليحل محله. لطالمـا عـرف خالـد مـا يقوله للناس وما لا يقولـه بالضبط كما اعتاد حامد أن يتوخى الحذر في ما يقوله وما لا يقوله عندما يتحدث مع شخص ما ويقدر مقدار المعلومات التي يعرفها عن الموضوع. بدت المحادثة التي أجراها حامد ومصطفى أشبه بلعبة الشطرنج، فقد أخذ كل منهما ينظر إلى عيني الآخر، ويحسـب ألف حسـاب لكل كلمة وهـو يخطـط للخطـوة التاليـة. تحدث حامد عن الأفـكار التي دارت بذهنـه باختصـار مـن دون أن يخلط الأمور ببعضها بوضوح أدهشـه، بينمـا التـزم مصطفـى الصمـت لبعـض الوقـت إلى أن قيل كل شـيء وتسجل في ذهنه. ظل السكون مخيماً على الغرفة، ولكن حامداً لم يتفوَّه بأي شيء غير ضروري أو نابع من الخوف. نظره حوله مستغلاً فتـرة الصمـت القصيرة. فوجد غرفـة الراحل لاوي الحديد خالية من أي مظهـر يـدل علـى الحزن كما اختفت منها أيضاً رائحة العطر. فقد كان أول قرار اتخذه مصطفى هو التخلص من العطر الذي تسبب في ابيضاض شاربه الفتي قبل الأوان إكراماً لوالده. شق الصوت الحازم لخليفـة لاوي الحديـد الهـواء الثقيـل الذي ملأ تلك الغرفة. فعبر عن إعجابه بما عرضه عليه حامد وعن رغبته في إنهاء المهمة لأنه سيجد

بتلك الطريقة الفرصة لأن يتباهى أمام الجميع بعد وفاة والده ولا سيما إن وجد من يتطوع ليتولى المسألة. وقال: "ولكننا لا نريد أن نظل مدينين لك، يا أخ حامد. بعد هذه المهمة، يمكنك أن تحظى بنسبتك. لطالما قال والدي، رحمه الله، إن الجميع يجب أن يأخذوا حصتهم بينما واصل مصطفى حديثه، أخذ حامد يفكر بينه وبين نفسه كيف تصرف هذا الشاب بالضبط كما توقع. فقد أثبت أنه فتي وديناميكي ومن السهل إقناعه. وهذه المرة، قرر أن يبدأ معه بداية جيدة. طلب مصطفى من حامد مع ذلك أن ينتظر وألا يقدم على أي عمل قبل أن يعطيه الضوء الأخضر.

ترك حامد مصطفى وهو مفعم بالمشاعر الإيجابية. وأدرك أنه اتخذ القرار الصائب. والآن، كل ما توجب عليه هو أن ينتظر منهم الإشارة في الوقت المناسب. وعندئذ، كان سيقوم بعمل جميل ونظيف. وفي الواقع، فقد شعر أنه بحاجة إلى بعض الوقت على كل حال لأنه قرر هذه المرة ألا يستعجل الأمور بل أن يعمل عليها بتروٍّ. من الواضح أن الشيطان يتدخل عندما يتم استعجال الأمور. شعر بالامتنان أنه حظي بفرصة جيدة وأنه لم يعد يتوجب عليه أن يراقب ظهره طوال حياته إن وضع حداً للمسألة إلى الأبد. فكّر في أن الوقت قد حان لأن يتقاعد ويسافر إلى تلك الأماكن البعيدة التي طالما حلم بها. لقد جمع مالاً يكفيه طوال حياته ولم يعد بحاجة إلى المزيد. تملكته خشية من أن يخسر كل شيء في النهاية بينما لا تزال فرصة الهروب متاحة أمامه الآن. قال لنفسه: "يجب على المرء أن يعرف متى يتوقف. يجب عليه أن يقول كفى اتصل بلطفي ليطلب منه أن يلتقيه في حديقة الشاي. فقد بات من الضروري أن يقابله ليخبره عن المهمة التي يفكر فيها. عندما اتصل حامد بلطفي، كان في

تلك الأثناء مع مفتش الشرطة. فاعتذر ورد على الهاتف. وبعد بضع دقائق من المكالمة، أغلق الخط وهو يقول: "كما تشاء، يا خالي"

"من هو خالك؟"

"ليس شخصاً مهماً. مجرد خال لي

"نعم، ولكن من هو. لماذا اتصل بك؟"

"إنه يريد شيئاً ما"

"ما هو؟"

"يريدنا أن نلتقي

"من هذا الرجل؟"

"ليس مهماً، يا حضرة المفتش. إنه مجرد رجل عادي"

"عادي؟ ماذا يعمل؟"

لم يستطع لطفي أن يفكر في اختراع مهنة لخاله في تلك اللحظة، فهو لم يكن يتمتع بسرعة البديهة على كل حال.

"فهمت. هل هو من يعطيك البضاعة؟"

"كلا... كلا... أقسم إنه لا يفعل هذا"

"حسناً، لا تصب بالفزع. كما تشاء. ولكنني واثق من أنه يريد القيام بشيء ما"

"كلا، على الأقل لا أعرف"

"حسناً، كما تشاء. من الواضح أنك لن تقول أي شيء. وبصراحة فأنا لا أشعر برغبة في تعذيبك اليوم. سنهتم بالأمر في وقت لاحق"

"كيف؟"

"هذا ليس من شأنك"

بالرغم من أنه ظن أن المفتش يمازحه فقط، إلا أن الكلام أثار

فزعـه. فقـد أراد أن يلتقـي بخالـه فـي تلـك اللحظة. ماذا إن أرسـلوا شـخصاً ليتبعه ثم عرف خاله بذلك؟ لم يكن ذلك سـينتهي على ما يـرام. فقـد سـبق وحذره، وطلب منـه أن يتوخى المزيد من الحرص. وبالإضافـة إلـى ذلـك، فمـا الـذي قاله عـن دنيز؟ "أنـت وحدك. إن تجرأت على فتح فمك، فسأقتلك" ولـم يكن ليتورع عن ذلك العمل. فكّـر لطفـي فـي الأمـر ملياً إن لـم يكن لثلاثة أيام ففـي اليوم الرابع. وظل القلق يقض مضجعه، وأدرك أن هذا الشـعور لن يبارحه طالما أن دنيـز لـم يختـفِ عـن وجـه الأرض بعـد. حاول أن يقنـع المفتش بتفهم قدر المسـتطاع أن خاله مجرد رجل عادي ليس على أي قدر من الأهمية ثم ترك المفتش وهو لا يزال غير واثق إن كان يمزح أو يتحدث بجدية وتوجه مباشرة إلى حديقة الشاي. أما مفتش الشرطة، من ناحية أخرى، فقد أجل المسألة لوقت آخر. من قد يمكن أن يكون خال ذلك الشاب الغبي على كل حال؟ إذ كما قال القدامى إن الولد يشبه خاله. فإن كان لطفي بهذه الشخصية التافهة، فلم يتوقع المفتش شيئاً أفضل من ذلك من الخال.

هكذا، فقد التقى حامد ولطفي بعيداً عن أي عيون قد تراقبهم. لـم يسـتغرق الأمـر وقتـاً طويـلاً حتـى أدرك لطفـي أنه سيشـارك في مهمـة علـى قـدر كبير من الخطورة. فتملكه شـعور بكل من الانفعال والخوف. وعندما أدرك أنه لن يجني أي مال لقاء ذلك لم يعد يشعر بالسعادة بقدر ما شعر في البداية ومع ذلك فقد ظل يعتبر ذلك صفقة كبرى. فقد أيقن أنه بحاجة إلى بداية من هذا النوع ليرتقي في عمله. بالطبع، لم يعرف أن خاله لم يطلعه على الحقيقة كاملة.

بعـد اللقـاء، انتظـر كل مـن حامـد ولطفـي المكالمـة الهاتفيـة الموعودة. وفي غضون ذلك، قام حامد ببحثه متنقلاً جيئة وعودة من

سايل كل يوم بسيارة مستأجرة جديدة مقابل خمس وستين ليرة تركية لئلا يلفت الانتباه. كانت تلك بلدة صغيرة، وفي ظل ظروف طبيعية من المستحيل ألا يلاحظه الناس بعد زيارتين، ولكن من حسن الحظ أن الوقت كان صيفاً. فخلال شهور الصيف، كان يأتي إلى سايل زوار وسياح كثر بعضهم يغرق في مياه البحر الأسود ذات المزاج المتقلب.

كرس لطفي نفسه للمكالمة الهاتفية التي وعده خاله بها. فلم يعد يخدم أحداً خارج نطاق مركز المدينة. لم يستطع أن يتنبأ بما ينتظره، ولكنه أبدى اهتماماً كثيراً لمعرفته. وفي أغلب الأحيان، أخذ يتخيل المشهد برمته ويؤلف رؤياه الخاصة للأحداث. ترى هل سيخبره خاله ما يفعله في حال الطوارئ أم أنه سيقرر بنفسه في ذلك؟ لم تكن لديه أي فكرة أن المهمة التي سينفذانها ليست لها أية قواعد أو أي منطق وأنها لعبة يفوز فيها الأكثر حزماً وهدوءاً وقسوة. ولم يكن لطفي يتمتع بأي من تلك الصفات. لم يطل انتظاره حتى تلقى المكالمة الهاتفية الموعودة. فقد طلب منه خاله أن يكون على استعداد في الساعة الثامنة مساء الليلة التالية لأنه سيحضر ويقله بسيارته. قال له من قبل إنهما سيذهبان إلى سايل، ولكن ذلك المكان لم يرق له قط منذ طفولته. فلطالما تملكته الخشية من البحر وأصابه الجو بالكآبة ووجد حتى الغيوم هناك أشد حلكة والناس الذين يعيشون فيها غرباء عن هذا الكوكب. كان يفضل محاربة تيار البوسفور المزدوج على السباحة في مياه تلك البلدة الوحشية. حاول أن يستعد معنوياً بانتظار حلول اليوم التالي. في تلك الأثناء، طلب حامد رقم عيسى ليعلمه أنه سيلاقيه في الليلة التالية ودار بينهما حديث مختصر. كان عيسى قد سبق ووضع خططه الخاصة. فالمهمة الأخيرة التي انتظرها طويلاً لم تظهر بعد، ولكن هاجساً في أعماقه نبأه أنه بات مستعداً للرحيل.

فقرر أن يتلقى آخر أتعاب له من حامد في الليلة التالية ويأخذ كل مدخراته ثم يرحل عند انبلاج الفجر دون أن يودع أحداً. اعتزم أن يستقل الحافلة في محطة حافلات هاريم حيث أتى إلى اسطنبول أول الأمر ويسافر إلى مكان مختلف. ورغم أنه قد عزّ على نفسه أن يغادر هذه الحجرة التي آوته لوقت طويل، فقد حاول أن يبقي أحلامه حيوية ومنوعة بأن راح يتخيل نفسه يسكن في حجرة أكبر منها. وجد فكرة الرحيل صعبة بلا شك، ولكنها ليست أكثر صعوبة مما مر به من صعوبات في حياته حتى تلك اللحظة.

شعر عيسى بالامتنان لإمام المسجد وتمنى لو يتسنى له أن يذهب ليزوره للمرة الأخيرة ليقبل يده وينال بركته ويسمع دعواته الجميلة له بمستقبل مشرق، ولكنه خشي أن يجيب عن أسئلته التي لا مفر منها بأكاذيب غبية بسبب عجزه عن البوح له بما يشعر به في قلبه. وتملكته خشية من أن ينسى نفسه في تلك اللحظة ويخبره عن أحلامه ويفتح له قلبه، ولهذا السبب وجد أنه من الأفضل له أن يختفي دون وداع. فقد أدرك أنهم سيصابون بالقلق عليه ليوم أو يومين ثم سينسونه بسهولة بعد ذلك، فهو ليس من الأشخاص الذين يتذكرهم الناس إلى الأبد. وكانت الحياة في سيفيلي ستستمر كعادتها. خرج ومشى قليلاً في أنحاء المقبرة. فأعجبه ما أنجزه خلال السنوات التي أمضاها هناك. فقد بدا المكان أشبه بالحديقة منه بالمقبرة. وفوجئ بكمية الزهور التي زرعها ومدى خضرتها وجمالها. في هذا المكان، اكتشف اهتمامه بالنباتات والزهور وانهمك برعايتها. لم يكن سيكذب على نفسه ويقول إنه لن يفتقد هذه المقبرة. فقد ظلت هذه الحجارة التي تنتمي لأناس لم يعرفهم قط صديقة له لسنوات ولم تتركه وحده. وبات لمنظر مدينة اسطنبول الذي اعتاد أن يراه عندما

يدخل من بوابة المقبرة مكانة خاصة في قلبه. فقد علمه ما يعنيه أن يحب تلك المدينة، ولكن توجب عليه أن يعرف متى يحين أوان الرحيل وأن يتعلم أن يرسم حداً للأشياء تنتهي عنده. فحتى الماء يتبخر عندما يغلي، فما بالك بالإنسان الذي ليس له عمق ولا اتساع المياه. وبغض النظر عن كل ذلك، فقد أدرك أنه سيشعر بالسعادة في المكان الذي سينتقل إليه لأنه سيعيش أخيراً حياته هو لا حياة الآخرين. وقف أمام قبر سمية إيريكول الذي اعتاد حامد أن يزوره بين الحين والآخر ودموعه تسيل ليس على خديه بل داخل أعماقه. لم يسأله عيسى قط عن هوية الشخص المدفون في القبر، ولكنه أدرك أنها المرأة التي أحبها من غير شك. عرف أنها امرأة لأنه شعر بينما هما يضعان الجثة في القبر معاً برقة الذراعين وكاد أن يتخيل جمال الوجه. لم يكن يعرف ما يعنيه الحب. فقد اعتاد أن يسمع الأغنيات التي يرسلها العشاق لبعضهم بعضاً على الراديو ويحاول أن يفهم ما يعنيه ذلك الشعور من كلمات الأغاني. تقبل منذ زمن حقيقة أن ما ينقصه في جسده يجعله ناقص الأحاسيس أيضاً، ولكنه لم يشعر أن الفراغ يسحقه. ومع ذلك، فقد ظل يتساءل إن كان سيجربه ذات يوم. والآن، وهو يفكر أكثر حول كوزبيلي، بكل ما تعده به من آمال وأحلام، ظل يمشي تحت النجوم ثم تلا صلاة للأرواح التي ترقد هناك وطلب المغفرة من تلك التي حفر لها قبوراً في منتصف بعض الليالي وعاد إلى حجرته. والآن، لم تبق سوى دقيقة واحدة على بداية آخر يوم له هنا.

30

تبلغ درجة الحرارة في اسطنبول مائة درجة على مقياس فهرنهايت بينما تصل نسبة الرطوبة إلى ستين بالمائة. يحذر الخبراء على التلفزيون والراديو العامة من حالة الطقس. فالناس المصابون بفشل في القلب وارتفاع ضغط الدم وكبار السن والأطفال يجب عليهم ألا يخرجوا من بيوتهم إلا للضرورة القصوى بينما تعفى النساء الحوامل والمصابون بالأمراض المزمنة من عملهم لذلك اليوم ليبقوا في البيت. وتصبح حركة المرور مريعة. ورغم أن الشوارع تبدو أقل ازدحاماً من المعتاد، فسائقو السيارات التي لا تحوي مكيفات هواء يعانون من حالة مزاجية صعبة. وتزداد نسبة وقوع الحوادث المرورية. وتتصاعد رائحة الإسفلت من الشوارع مسببة الصداع للناس بينما تختبئ العقارب في المناطق الريفية في كراس طويلة مطوية وحتى الأفاعي تقول: "إن لم تلمسني، فلن ألمسك" وتطفو طبقة من الرطوبة فوق سطح مضيق البوسفور وتبدو السماء زرقاء ثلجية دون أي غيوم يمكن رؤيتها ولا حتى في الأفق بعد أن استولت الشمس على طبقات السماء السبع ولم يعد هناك أي مكان للاختباء منها. أما أولئك الذين ينتظرون إجراء المعاملات البيروقراطية، فيحاولون أن يختبئوا تحت ظلال الأشجار الصغيرة في الشوارع الخلفية. يخلع رجال الشرطة قبعاتهم مخالفين بذلك القوانين ويحاولون أن يجففوا عرقهم الذي يسيل على شعرهم. ويشتم مرافقو المرضى في المستشفيات مكيفات الهواء المعطلة وهم يحاولون أن يهووا أقاربهم

بورق الصحف. أما آيز، من جهة أخرى، فهي تشاهد التلفزيون بفضل ابنها لطفي وترتشف الشاي في غرفة معيشتها المكيفة بينما يهرب ابنها من الحرارة في غرفته ويستلقي باسترخاء على الأريكة بجانب أمه. وفي تلك الأثناء، تبقى نوافذ بيت حامد مغلقة بإحكام كعادتها رغم موجة الحر وعرقه يسيل مع الماء على وجهه وهو يحلق لحيته مرتدياً قميصه الداخلي. يجلس عيسى تحت الشجرة الكبيرة منذ الساعات الأولى للصباح مشغلاً الراديو ويصغي بعناية لما يقوله البرنامج الإذاعي مرة أخرى عن الحرارة والاحتباس الحراري. لا يظن أحد أن المستقبل يبدو مشرقاً بعد الآن. فيقول أحد المتصلين بالبرنامج إنه ينبغي على الناس ألا ينجبوا المزيد من الأطفال لهذا العالم.

ورغم كل ذلك، يرتعش دنيز في ساعات الصباح الأولى من أشد أيام السنة حرارة وتكاد أسنانه تصطك حتى يود أن يغطي نفسه ببطانيات السرير. تحضر السيدة سوزان أنواعاً مختلفة من أدوية الأنفلونزا لابنها الذي لا تفهم ما الذي يجري له وتظل تغير قميصه لتساعده على التعرق لتخرج السموم من جسده رغم أنه لا يعاني من الحمى ولا من ألم في معدته. يتملكها الخوف فعلاً الآن من أن تزداد حالة ابنها النفسية سوءاً أكثر فأكثر لدرجة تجعلها تهيمن على جسده، ولكنها لا تعي أن سؤالها إياه إن كان يشعر بتحسن كل عشر دقائق لا يخدم وضعه على الإطلاق بل على العكس من ذلك يمعن في إزعاجه. ما الذي يسعها فعله؟ هل يجب عليها أن تأخذه إلى المستشفى أم أن تتصل بالطبيب وتستدعيه إلى البيت؟ بعد بضعة أكواب من شاي النعناع بالليمون وبعض الأسبرين، تتحسن حال دنيز أخيراً بحلول الظهر ويتوقف عن الارتعاش ويتحسن لون وجهه

ويعود اللمعان إلى عينيه ويرمي الشراشف التي يغطي نفسه بها على الأرض وينهض. فاليوم، لديه موعد جديد مع السيد بسمان. فتظن السيدة سوزان أن هذا بلا شك سبب حالته على أية حال وأن من الطبيعي أن يشعر بالتوتر قبل كل جلسة علاج. ترى ما الذي يزعجه فعلاً؟ يدور بخلدها أن هناك مشكلة مختلفة عن مشكلته الأساسية يحاول أن يتعامل معها. أما دنيز، في تلك اللحظة، فهو يدرك أن هناك ملايين الأفكار التي تدور بذهن أمه ويشعر أن بوسعه تقريباً أن يعرف ما هي إن ركز بقوة كافية. منذ أن دخلت تلك المرأة إلى بيته وهو يشعر كل يوم أنه بأسوأ حال وأنه عاجز عن كبح جماح نفسه وأن هناك شعوراً ثقيلاً داخله يعجز عن التخلص منه. يشعر بالسأم من رؤية العيون القلقة نفسها والشفة نفسها التي تكاد تهترئ من شدة ما تعض عليها بقلق أينما ذهب وأينما نظر. معظم الوقت يعجز حتى عن التنفس. فهناك دائماً سؤال تطرحه عليه. ما سبب هذا؟ ما سبب ذلك؟ لا تدرك تلك المرأة أن بعض الأمور لا يمكن شرحها ولا يمكن قولها؟ بالإضافة لذلك، كم تريد أن تعرف؟ كم يمكنها أن تتحمل؟ كل شيء؟ أم جزءاً منه؟ يريد أن يختبرها ويختبر حدودها ويعرف أي قدر يمكنها أن تتحمل، ولكنه عندئذ يجبر نفسه على التخلص من تلك الأفكار ويصنفها في خانة الجنون. وبينما هو يصغي إلى الصوت الذي يتحدث عن الطقس الحار على التلفزيون، يبدأ دنيز يشعر بالحرارة وتصبح لحيته التي باتت طويلة الآن رطبة وتثير الحكة وتتصاعد رائحة رهيبة من جسده.

"هل ستذهب إلى موعدك هذا اليوم، يا حبي؟"

"سأذهب"

"ولكن الطقس شديد الحرارة. ألغ موعد اليوم إن أحببت"

"إذاً، ماذا إن كان الطقس حاراً؟ الطبيب لديه مكيف هواء في عيادته"

"نعم، ولكن أعني إلى أن تصل إلى هناك. لا تنس أنك كنت ترتعش صباح اليوم وقد تمرض

"لا تقلقي بشأن هذا"

"حسناً، كما تشاء. خذ حماماً على الأقل

"سأفعل

"واغسل شعرك أيضاً"

"سأفعل

"الشامبو هناك. استعمل الشامبو مرتين، اتفقنا؟"

يحدق دنيز بها. الشامبو مرتين! يتساءل إن كان سيتمكن يوماً ما من إخبار أمه بما يجول بخاطره. لا يعرف لم لا يمكنه فعل ذلك في تلك اللحظة، فهو لا يخشاها بل يتملكه شعور مختلف أشبه بعادة اعتادها على مر السنين. فكما تكون لدى البعض مناعة ضد بعض الأمراض، فدماغه لديه مناعة ضد أمه.

تبدو السيدة سوزان غافلة عن تأثير كلماتها عليه مرة أخرى. فوفقاً لها، ليس هناك أي خطأ حيال ما قالته. وبالإضافة لذلك، فإن قالت لدنيز أن يفعل شيئاً ما فعله وإن لم تقل لم يفعل ذلك. ليس بيدها حيلة، فهذه هي طبيعة ابنها، وهو يفعل الشيء فقط إن أمره أحد بذلك بالضبط مثل والده. في الواقع، تملكت السيدة سوزان رعشة مثل التي أصيب بها ابنها صباح ذلك اليوم، ولكنها أصيبت بها في قلبها. فشعرت بالقلق يعتصر قلبها ويجعل دقاته متسارعة. لا تفهم معنى ذلك الشعور ولا تملك الطاقة الكافية حتى لتحرك يديها، ولكنها من جهة أخرى تشعر أنها تستطيع أن تمشي حول العالم وتظل

تصلي أن تزف لها هذه المشاعر خبراً جيداً. يتملكها شعور أنها قد تتلقى أخباراً سعيدة بالفعل. فروحها تنبئها بذلك بغض النظر عما يختلج في جسدها من مشاعر.

يغادر دنيز في سيارة أجرة متوجهاً إلى عيادة الطبيب بشعره المغسول بالشامبو مرتين وجسده المغسول بالشامبو مرة واحدة. يثبت سائق السيارة نظره عليه في المرآة الخلفية، وهذا يصيبه بتوتر شديد. لا يسعه أن يسأله عن سبب نظره لأنه يخشى أن يواجه جواباً لا يريد أن يعرفه، فكيف يعرف أن هذا الرجل ليس تحرياً متخفياً يريد اعتقاله؟ من الأفضل أن يأخذه إلى مخفر الشرطة دون أن يخبره. تبدو حركة المرور إلى تيسفيكاي عالقة. فلا شيء يتحرك وهناك حشد كبير من الناس يتجمهر أمام مسجد تيسفيكاي.

"أظن أن أحد المشاهير قد مات. إن المرور لا يتحرك"

"أستميحك عذراً!"

"أقول إنني أظن أن أحد المشاهير أو الأشخاص المهمين قد مات. فهناك جنازة في المسجد وحركة المرور مغلقة"

"فهمت"

"هل أنت بخير، يا أخي؟"

"أرجو المعذرة!"

"أسأل إن كنت تشعر أنك على ما يرام. فأنت لا تبدو بخير

"إنني بخير

"إنني واثق من أن هذا بسبب الحر. فأنت تتصبب عرقاً بشدة. أتعرف ابق في البيت إن أمكنك ذلك في هذا الطقس. نحن يجب علينا أن نخرج، أقصد سائقي سيارات الأجرة. فليس لدينا هذا الترف"

"لم لا تشغل مكيف الهواء؟"

"إنني لا أحبه، فهو يصيبني بالغثيان كما أنه يحرق الكثير من الوقود عندما تشغله. وأنا أكسب القليل من المال وأشتري الوقود به على أية حال، ولكنهم يقولون إن الأسعار ستنخفض. سيسعرون الوقود بمليون ليرة تركية. والآن، هذا خبر جيد"

"تقصد ليرة تركية واحدة"

"أرجو المعذرة؟"

"لقد تغيرت العملة. ولم تعد مليون ليرة بل ليرة واحدة"

"لا يمكنني أن أستخدم هذا المصطلح. لا يمكنني الاعتياد عليه، ولكنك تقوم بعمل جيد"

"ليس هناك ما لا يمكن الاعتياد عليه. المليون أصبح ليرة واحدة. لنقل إن مليوناً ونصف المليون أصبح ليرة ونصف الليرة"

"رائع! أنت بارع. وماذا يساوي مليون وسبعمائة وخمسون ألف ليرة؟"

"ليرة وخمساً وسبعين"

"لا يمكنني أن أقوم بهذا فعلاً"

"ليست صعبة إلى هذا الحد بل بغاية البساطة. كيف يمكنك ألا تفهم شيئاً بهذه البساطة، هذا هو ما لا أفهمه"

"لا تغضب، يا أخي

"لست غاضباً على الإطلاق. ولكن ما أقوله هو فقط تعلمها. ليست معضلة معقدة. لم يعد لدينا مليون بعد الآن. فإن قلت إنك تملك مليون ليرة الآن فهذا يعني أنك غني. أتعرف ما يمكنك أن تفعله بمليون؟ يمكنك أن تشتري بيتين وسيارة. والآن، إن قلت لي إن الأجرة مليون ليرة، عندئذ سيتوجب علي أن أعطيك مليون ليرة

وأنا لا أملكها"

"قلت لك حسناً، يا أخي. هل أنت خبير اقتصادي أو ما شابه؟ حسناً، أنت تبدو صغير السن، ولكن..."

"كلا، لست كذلك. لا يجب عليك أن تكون خبيراً اقتصادياً لتفهم هذا فهو بغاية البساطة، ولكن الأغبياء هم من لا يفهمونه"

"هيا! قف عند حدك! من الذي تدعوه بالغبي؟ هيا انزل من سيارتي!"

"لن أنزل. فأنا زبون. ولدي حقوق الزبائن. فإن كنت أدفع لك، فعليك أن تأخذني إلى حيث أريد أن أذهب"

"حقاً؟ هيا انزل من سيارتي وإلا ضربتك! هل فهمت؟ أعطني أربعة ملايين وسبعمائة وخمسين ألف ليرة وترجل من السيارة!"

"تقصد أربع ليرات وخمساً وسبعين"

"رائع! أنت مجنون فعلاً، أليس كذلك؟ سأكسر عظامك. انزل يا رجل! لا أريد مالك حتى. انزل وحسب! لقد علقت في هذا الازدحام من أجل هذا الأحمق!"

ترجل دنيز من السيارة وحثّ الخطى وشق طريقه عبر الحشد المتجمهر أمام المسجد. تفاقم غضبه مع كل خطوة يخطوها وأخذ العرق يتقاطر منه دون أن يلاحظ على الإطلاق. وراح يتحدث إلى نفسه دون أن ينتبه للعرق وهو يسيل على صدره وظهره وساقيه. ولم يدرك أيضاً أنه بدأ يصرخ بأعلى صوته وهو يجري حتى تنحى المارة على جانبي الطريق ظناً منهم أنه مجنون بينما سخر أصحاب المحلات الشبان منه وتمنى له الكبار العافية. لم يبطئ من سرعته إلا عندما وصل إلى سيسلي. وعندئذ، توقف عن الجري والصراخ. فإن سأله أحدهم، لقال إنه قطع تلك المسافة منذ نزل من سيارة الأجرة

مشياً وإن الكلام الذي ظل يصيح به طوال الطريق لم يحدث إلا في عقله. وعلى أية حال، فقد صاح في الواقع قائلاً: "لا تزعجوني وإلاّ قتلتكم. سأفعل ذلك. لقد طعنت رجلاً حقاً ويمكنني أن أكررها مرة أخرى" فسّر الناس الذين سمعوا هذا الكلام جنونه بشدة الحر، وقالوا: "انظروا لقد فقد الشاب عقله بسبب الحرارة. لا ينبغي علينا أن نخرج في هذا الطقس وبالأخص لا ينبغي علينا أن نستقل سيارة أجرة"

في يوم كذلك اليوم، عندما يعزو الناس كل تصرف غريب لاشتداد الحر، وجدت مشاعر دنيز التي كبتها لأسابيع متنفساً لها، ولكنها لاقت لامبالاة من الناس. ربما تمنى دنيز بشكل لاشعوري أن يوقفه أحد رجال الشرطة ويطلب منه أن يكرر ما قاله وربما كانت تلك صرخة أطلقها لينهي هذا الكابوس. عندما وصل إلى شارع كودومان شعر أنه مبهور الأنفاس وباغتته مغص في بطنه يعتصر أمعاءه حتى راح يتلوى من الألم. نظر حوله بعجز ولم يعرف إلى أي حد يمكنه أن يتحمل. فبدأ يجري مجدداً وهذه المرة قاصداً عيادة الطبيب. وعندما دخل إلى هناك، توجه إلى الحمام مباشرة دون حتى أن يتمكن من أن يشرح موقفه للسكرتيرة. مر وقت طويل قبل أن يشعر بالتحسن مرة أخرى. ورغم أنه تأخر على الجلسة، إلا أنه أخذ وقته وهو يجلس على أحد الكراسي في غرفة الانتظار ليستجمع هدوءه. فتفحصت السكرتيرة وجه ذلك الشاب بنظرة شفقة على وجهها. ولم تكن تظن أن حالته ذات علاقة بوضعه النفسي بل بنوع من الطعام الفاسد تناوله.

"يمكننا أن نلغي الجلسة لهذا اليوم إن أحببت. إنك ربما مصاب بتسمم الطعام. وقد تود أن تذهب إلى غرفة الطوارئ"

"كلا، لا أريد أن ألغي الجلسة. إنني على ما يرام الآن"

لاحظت السكرتيرة أن دنيز أصدر صوتاً يكاد يشبه الفحيح وهو يتكلم. فقد خرجت الكلمات من فمه من بين أسنان مطبقة. وبدت كل عضلة في وجهه متشنجة بينما بدت عيناه أصغر من أي وقت مضى. وتراوحت نبرة كلامه بين الوقاحة والأدب باختياره كلمات متنوعة. ولو أنها لم تتعلم كل شيء من خلال عملها لسنوات هنا، فقد تعلمت على الأقل كيف تتعامل مع المرضى الذين يعانون من مشكلات نفسية. فلم تعتد أن تأخذ الكلام الذي يتفوه به المرضى على محمل شخصي بل أن تفسره وفقاً لحالاتهم. انتظرت إلى أن تحسنت حالة دنيز ثم أعلمت السيد بسمان أن مريض الساعة الثالثة قد وصل. أصبح الشاب مستعداً للدخول في الساعة الثالثة والنصف بعد تأخير نصف ساعة. حالما رأى الطبيب مريضه دنيز، أدرك أن هناك شيئاً مختلفاً فيه. فقد أرسلت لغة جسده كل إشارة من الممكن أن تدل على الحالة العقلية التي يمر بها. وبدا غير متوازن ووجهه متعب. أدرك السيد بسمان أن اليوم سيشكل تجربة جديدة تماماً بالنسبة له. ترى ما الذي سيقوله هذا الفتى أو لا يقوله؟ بدأ ينتظر بصبر. وبعد صمت طويل، بادر دنيز بفتح الحديث.

"إن الناس جميعهم عميان، فهم لا يرون الحقيقة الماثلة أمام عيونهم"

"مثل ماذا؟"

"ككل شيء. على سبيل المثال، أنا أكره أمي، صحيح؟ ولكنها لا تريد أن ترى هذا"

"حسناً. لم أكن أعرف أنك تكره أمك"

"أكرهها. إن الجميع يكرهون أمهاتهم"

"هل تظن ذلك؟"

"لست أظن وحسب بل أنا واثق بهذا. هكذا يشعر الجميع، ولكن لا أحد يريد أن يعترف بحقيقة شعوره"

"لماذا يكره الجميع أمهاتهم؟"

"لست أدري. إنهن يتحكمن بكل شيء"

"لم لا تكون أنت فقط من يفكر بتلك الطريقة؟"

"حسناً، ذلك مجرد مثال على أية حال. لا تأخذه على محمل الجد. ما أريد أن أقوله فعلاً هو أن الناس لا يريدون أن يروا الحقيقة"

"هذا ممكن"

"هذا ليس ممكناً وحسب بل صحيح بكل تأكيد. فقد أنشأوا حول أنفسهم عالماً شبيهاً بالفقاعة يعيشون فيه دون أن يدركوا ما هي الحقيقة"

"إنني لا أفهم بالضبط ما الذي تتحدث عنه"

"على سبيل المثال، ها أنت. إنك لست معالجاً بارعاً، ولكنك لا تدرك ذلك بل تعيش في وهم ظناً منك أنك شخص مهم"

"أليست هذه مسألة نسبية؟ قد لا أكون طبيباً بارعاً من وجهة نظرك، ولكنني بارع من وجهة نظر شخص آخر

"أعطني مثالاً. من ساعدت حتى هذه اللحظة؟"

"لا يمكنني أن أناقش علاج المرضى الآخرين معك ولا المستويات التي وصلوا إليها، ولكن لدي أدلة تجعلني أظن أنني ساعدت الآخرين"

"ها أنت تقول هذا! إنك لا ترى الحقيقة. فأنت تجلس هنا في وسط هذا الحي الصغير وتظن أنك تحقق إنجازاً ما في هذا الصندوق الضيق، ولكنك في الواقع لا تفعل أي شيء. أنت أعمى

مهما حاول السيد بسمان ألا يشعر بالإهانة بسبب هذه الإساءات

وأن يعتبر فكرة بوح دنيز بمكنونات قلبه بهذا الشكل فكرة جيدة، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بالأذى. غيَّر وضعية جلوسه في مقعده ولم يدرك ذلك إلا في اللحظة الأخيرة وهو يأمل ألا ينتبه دنيز له.

"حسناً، لنقل إنك محق"

"ليس الأمر مجرد افتراض أنني محق. فأنا محق فعلاً! أنت لا ترى الحقيقة. فأنت كالجميع. وحتى لو وضعتها أمام وجهك، فلن تتمكن حتى من أن تتقبلها"

"صحيح، هذا ممكن. وما هي نقطتك العمياء؟"

"أرجو المعذرة؟"

"إنني واثق من أن هناك شيئاً ما لا تراه بوضوح. لا بد أنك لست مختلفاً عن بقية البشر. فما هو الشيء الذي ترفض أن تراه؟"

"ليس هناك ما أرفض أن أراه. فأنا أعرف كل شيء حق المعرفة. كل الحقيقة. وهذه هي مشكلتي على أية حال"

"إذاً، فأنت تظن أنك تعاني من مشكلة"

"الجميع يعانون من مشاكل

"حسناً، إنك تعرف الحقيقة الكاملة حول نفسك. فما هي حقيقتك إذاً؟"

"ليست على أي قدر من الأهمية، ولكن الشيء المهم هو أن الناس الآخرين لا يريدون أن يروا الحقيقة"

"سأتمكن من الفهم بشكل أفضل إن أعطيتني مثالاً آخر

"لقد استقللت سيارة أجرة في طريقي إلى هنا. سائق السيارة غبي، ولكنه لا يدرك ذلك. ولا يريد أن يدركه لأنه أعمى. وأنت أعمى وكذلك أمي عمياء"

"أنت تعاني من مشكلة مع أمك، أليس كذلك؟"

"إنها لا ترى أنني لا أحبها ولا أريدها بل تقف في وجهي طوال الوقت. لا يمكنني أن أتنفس. إنها تظن أنني أحبها لأنني ابنها، ولكنني لا أحبها ولا ينبغي علي أن أحبها لأنها أمي

"ماذا تظن؟ هل السبب هو أنها تمنعك من رؤية الحقيقة؟"

"إنني أرى حقيقتي. ويمكنني أن أريها لك، ولكنك لا تراها لأنك لا تعرف ما تفعل بها"

"ما هي الحقيقة؟"

"حسناً، لقد قلت إنك طبيب جيد. هيا اكتشفها إذاً. هذا هو ما أقوله. أنت لست طبيباً بارعاً، ولكنك لا تريد أن تتقبل هذه الحقيقة"

"أليس من الخطأ أن تحكم علي بهذا الشكل؟ إنني ربما أرى مشكلتك أو "حقيقتك"، ولكن ليست مهمتي أن أخبرك إياها"

"لم لا؟"

"ليست لدي رغبة في إثبات جدارتي لمرضاي، فهذا ليس توصيف مهنتي

"ولكنني أشعر بالفضول فعلاً كمريض لك. ما هو تشخيصك لحالتي؟"

"لا يمكنني أن أقول شيئاً بعد"

"من فضلك افعل ذلك. إننا نمضي على ما يرام كما ترى ونتحدث. أليس هذا علاجاً؟ إلى أين سيأخذنا هذا النقاش؟"

"كلا، لا يمكن أن يخرج الوضع عن السيطرة"

"ولكنني أريد أن أعرف. ما رأيك بحالتي؟"

"لدي بعض الملاحظات"

"مثل ماذا؟"

شعر الطبيب أنه قلّل من تقديره لدنيز. فقد اكتشف أنه يتمتع بقدرة كبيرة على الاستغلال لدرجة تجعله قادراً أن يوجه الحديث حيثما يريد. كان قد لاحظ عقل دنيز التحليلي من قبل، ولكنه لم يعرف أنه يسيطر على معيشته بأكملها، كما لاحظ أيضاً عدوانيته، ولكنه لم يدرك مدى شدتها. لم يفكر من قبل بأن يعطي الفتى علاجاً دوائياً، ولكنه الآن لم يعد يجد الفكرة سيئة إلى هذا الحد. فدواء مهدئ قد يفي بالغرض. وبينما هو يحلل هذه المحادثة الأخيرة، أدرك أيضاً أن هناك آلية أخرى يتبعها في عملية التشكيك به. فلم يعجبه ذلك لأنه لم يود أن يفقد السيطرة. فالوقت لم يكن مناسباً للتشكيك بنفسه ولا سيما الآن تحديداً.

"على سبيل المثال، أنت عدواني جداً"

"أهكذا هو الأمر؟ هل توصلت إلى هذه النتيجة بعد فترة صمت مدتها أربع دقائق؟ إلى أي حد يبلغ مدى سوء ذلك؟ أعني عدوانيتي؟"

"إنني بحاجة لبعض الوقت لأجيب عن هذا السؤال"

"ماذا إن أصبحت أكثر عدوانية بينما أنت تحاول أن تكتشف؟ ستطردني بالطبع. ماذا إن ألحقت الأذى بأحدهم؟"

حاول السيد بسمان أن يحل الرسالة التي أرسلها له الفتى. هل تفوَّه بترهات أم تعمد قول ما قاله؟ هل من الممكن بالفعل أن يصبح مؤذياً جسدياً؟ هذه المرة تحرك في كرسيه دون أن يأبه إن لاحظ دنيز ذلك، ثم تنحنح.

"لا أظن أنك عدواني إلى هذه الدرجة؟"

"حقاً؟ إذاً، إلى أي حد أنا عدواني؟"

"كما قلت لك، من الخطأ أن أقول أي شيء الآن تحديداً،

ولكنني أظنك قادراً على إيذاء نفسك أكثر من إيذاء الآخرين"
"أيمكنني أن أؤذي نفسي؟"

تبعت ذلك الكلام فترة صمت طويلة. فأخذ دنيز يفكر ملياً ويده على ذقنه وبصره مركز على النافذة. أتت فترة الصمت هذه في التوقيت المثالي بالنسبة للطبيب. فقد أراد أيضاً أن يستجمع أفكاره وحاول أن يتخلص من العبء الذي ألقي على كاهله. فقد بدأت الجلسة بداية سريعة ولم يستطع أن يتنبأ إلى أين ستؤدي ولم يعرف ما الذي قد يلي كل هذه التصريحات. ولو أنها بدأت في وقتها، فقد كانت ستنتهي في غضون بضع دقائق. فكر أنه ربما من الأفضل أن يخبره أن وقتهما قد انتهى. فقد شعر بالغرفة تمتلئ بجو مشحون من الممكن أن يضر علاقة الطبيب بالمريض، ولكنه لم يكن واثقاً أيضاً إن كانت المحادثة ستستمر في المقابلة القادمة من حيث تتوقف الآن.

"لقد قتلت أحدهم"

أمعن دنيز النظر في عيني الطبيب وهو يردد هذه الجملة. لم يستطع أن يلاحظ حركة واحدة في وجه الطبيب، فهو لم يرمش حتى بعينيه. إذ إنه عجز أن يحدد مدى جدية دنيز، فحاول أن يقرأ ملامح وجهه. كم من الحقيقة يحوي كلامه؟ هل يعيش في عالم من الخيالات؟ ذلك ممكن. إذ ليس من المستبعد بالنسبة لشخص عادي وسلبي مثله أن يخدع نفسه بفكرة قيامه بعمل استثنائي كهذا أو أن يفعل هذا ليختبر رد فعل الطبيب. دون أن يدري ما يفعل بالضبط، طرح عليه سؤاله بنبرة هادئة وهو مسمر في مكان جلوسه.

"من قتلت؟"

"شاباً يدعى أوكان"

"من هو هذا المدعو أوكان؟"

"ماذا تعني؟ ينبغي أن تتحدث عنه بصيغة الماضي، فهو لم يعد موجوداً على قيد الحياة بعد الآن"

"من كان أوكان؟"

"قابلته في الحانة ذات ليلة. واحتسينا بضع كؤوس من الشراب ثم دعاني لزيارته في شقته. فذهبت معه. وعندما دخلنا، دعاني أوكان للتفرج على أنحاء الشقة: هذه غرفة النوم وهذا الحمام وما إلى هناك. ثم بدأ يصب لنا كؤوس الشراب. وكان المطبخ مفتوحاً، أي يطل على غرفة المعيشة. أخرج شيئاً من الثلاجة ثم..."

أصغى السيد بسمان إلى دنيز برهبة. فقد أدرك الآن أن دنيز مريض بالفعل؛ إما لأنه ارتكب تلك الجريمة فعلاً أو لأنه اختلق كذبة من هذا النوع. واعتبر أن الدليل الوحيد على أن دنيز يقول الحقيقة هو أنه ازداد استرخاء بعد تفوهه بكل جملة. فقد بدا من المستحيل عدم رؤية العبء الثقيل الذي انزاح عن كاهله. نعم، لم يُظهر أي دليل على الندم. فقد تحدث عن الجريمة على أنها حدث طبيعي كأنه يقول: ثم ذهبنا إلى السينما ووقفنا في الصف واشترينا التذاكر. احتار الطبيب بين أفكاره المتضاربة ولم يعرف إن توجب عليه أن يتصرف أم لا. إلى متى سيجلس في مكانه ويصغي إلى هذه القصة؟ هل يجب عليه أن يتصل بالشرطة على الفور؟ من ناحية أخرى، فقد أراد أن يعرف الباقي دون أن يدري السبب في ذلك.

"وماذا بعد؟"

"ثم فعل بعض التصرفات التي أزعجتني. كيف يسعني أن أشرح ذلك؟ تصرف بطريقة غريبة وغير لائقة. تظاهرت أنني لم ألاحظ ذلك. أنهى صب المشروبات ووضع بعض الليمون عليها ثم اقترب ووضع يده على كتفي وقال شيئاً ما لا أتذكر ما هو، ولكنني شعرت

بعدم الراحة. هل تدرك ما أعنيه؟ شعرت بالاشمئزاز وأردت أن أغادر على الفور، ولكنني لم أستطع ذلك. وفجأة ثار غضبي وشعرت بوجهي يتوهج من فرط الغيظ، هل تفهمني؟ هل غضبت إلى هذا الحد من قبل؟"

توقف دنيز عن الكلام بانتظار سماع إجابة من الطبيب. فنظر إليه السيد بسمان بصدمة. ترى ما هي الإجابة الصحيحة؟ لقد كان طول دنيز يتجاوز الستة أقدام بينما لم يتعد طوله الخمسة أقدام وسبع بوصات. وهكذا، فقد أدرك أنه من الممكن له أن يصرعه أرضاً بكل سهولة ويسر. وحتى لو لم يكن ما يقوله صحيحاً، فقد بدا من الواضح أن للفتى عقلية تتسم بالعنف.

"هل سبق وغضبت بهذا الشكل من قبل؟"

لست واثقاً"

"كيف؟ ألا تعرف إن غضبت بهذا الشكل من قبل أم لا؟"

"لست واثقاً إن غضبت بهذا الشكل أم لا، ولكن نعم، ربما غضبت لدرجة تجعلني أفكر بإلحاق الأذى بشخص ما"

"نعم! هكذا بالضبط؛ لدرجة تجعلك تلحق الأذى بأحدهم. إلى هذا الحد وصل بي الغضب. رأيت سكيناً هناك فأمسكت بها. أولاً، لاحظت أنه شعر بالخوف. فظننت أن بوسعي أن أغادر، ولكنني عندئذ لم أستطع ذلك. فهناك ما منعني. طعنته في بطنه ثم سحبت السكين وسمعت ذلك الصوت الغريب. هل تعرف ذلك الصوت؟ إنه أشبه بالاحتكاك. شعرت بالفضول حياله فطعنته مرة أخرى وسمعت الصوت ثانية وأنا أسحب السكين. فأعجبني ذلك كثيراً، لذا كررته عدة مرات. وعندما هدأت، نظرت إليه ورأيته مستلقياً على الأرض غارقاً في دمه وهو ميت... ثم...

"هل هربت؟"

"كلا، لـدي صديـق. إنـه ليس صديقي بالضبط، ولكنه شـخص أعرفـه مـن الكليـة. ليـس طالبـاً فعلياً، ولكنـه يأتي إلـى الكلية ليتجر بالمخدرات. كان مديناً لي بخدمة، لذا اتصلت به. فحضر إلى الشقة وطلـب منـي أن أغادر ليتولى هـو الموضوع. أعطيته بعض المال في اليوم التالي. ولا أعرف كيف تصرف"

جلـس السـيد بسـمان بصمـت دون أن يدري ما يقـول. وفجأة، عادت إليه ذكرى عن خبر قرأه في الصحيفة يتحدث عن شاب مفقود. هل اسمه أوكان؟ نعم، هذا ما ظنه. ذكر المقال أن والد الشاب محام مشهور من أنقرة وأنه مصمم على العثور على ابنه مهما كلف الأمر. انزعج الطبيب لأنه عجز عن تذكر المزيد مما قاله المقال. هل اسم الشاب أوكان أم إنه قام بتطبيق الاسم من تلك الحادثة على ما سمعه في قصة دنيز؟ فكر أنه من الممكن أن يكون دنيز قرأ القصة وتبناها على أنها قصة حياته ليلفت الانتباه، فذلك لا يعتبر تصرفاً غير طبيعي. فالنـاس يفعلـون ذلـك في بعض الأحيان ويخاطـرون بحياتهم ليبدوا مهمين. وقد وقع مثال مهم جداً على ذلك في الولايات المتحدة قبل شهر. فعلى الرغم من دليل فحص الحمض النووي، فقد ظل الرجل المتهـم يصـر أنـه قتل المرأة المغدورة. خطر بباله أن وضع دنيز ربما مشـابه لذلك، ولكنه ظل يدرك أنه يتوجب عليه أن يتصل بالشـرطة. إذ لـم تكـن مهمتـه أن يتحقـق من صحة ما قاله مريضه. مع ذلك، لم يسـتطع أن يقـرر مـا عليـه أن يقوم به فـي تلك اللحظة. ترى ما الذي توقع منه دنيز أن يفعله؟ هل توقع منه أن يتصل بالشرطة؟

"هل يعكس هذا الكلام الحقيقة؟ أم إنك اختلقته؟"

"تلك فكرتي منذ البداية. لقد وضعت الحقيقة أمام عينيك. ومع

ذلك، فأنت لا تريد أن تراها"

نهض السيد بسمان وانتظر قليلاً ليرى رد فعل دنيز. فوجده جالساً بهدوء وذراعاه مسندتان إلى الكرسي وبصره ثابت في وضعية تدل بوضوح أنه لا يعتبر نفسه ارتكب أي خطأ. مشى الطبيب نحو طاولته والتقط سماعة الهاتف وبصره لا يزال مركزاً على دنيز. فقال دنيز: "اتصل بالشرطة. قل لهم أن يرسلوا رجالهم إلى هنا. من المهم أن تبقى حيث أنت" وعندما أعاد وضع السماعة، صدمته الحقيقة كرياح عاتية. وأيقن أنه لا يمكن لهذه أن تكون مجرد كذبة ولعبة تتخطى حدوده. ظل واقفاً خلف المكتب. فقد أراد أن يحافظ على مسافة بينهما تحسباً لحدوث أي شيء. ساد صمت مريع في الغرفة كأن الكلمات طارت من النافذة في هذا اليوم الحار من أيام اسطنبول. شعر دنيز بالحزن والسلام يستقران في قلبه في الوقت نفسه ولم يستطع أن يميز أحدهما عن الآخر. فجلس هكذا بهدوء إلى أن سمع أصوات الهواتف اللاسلكية في الغرفة الأخرى. انفتح الباب ودخل رجال الشرطة وأيديهم ممتدة إلى الأمام والسكرتيرة خلفهم تنظر إلى داخل الغرفة بحذر. رفع دنيز يديه في الهواء أولاً ثم نهض بينما اقترب اثنان من رجال الشرطة منه ببطء، فثنى أحدهما ذراعيه وقيدهما والتفت إلى الطبيب ليفهم منه ما جرى. وكاد السيد بسمان أن ينهار على كرسيه وهو يقول لهما إن مريضه اعترف لتوه بارتكابه جريمة قتل. أرادوا أن يعرفوا منه بقية القصة بينما أراد هو بالمقابل أن يبقى وحده ليفكر إن اتخذ القرار الصحيح أم لا.

* * *

لم تكن لدى دنيز سوى قصة واحدة ليرويها. فرواها كلها في مقر الشرطة منذ البداية دون أن يغير أي حقيقة فيها أو يغفل

تفصيلاً من تفاصيلها. قال كل شيء بترتيب منطقي كما يفعل عالم رياضيات. فحدثهم كيف عرف لطفي وكيف اتصل به ليساعده تلك الليلة، وكيف ترك المكان ثم قابله في اليوم التالي ليعطيه المال، وأنهما لم يتقابلا مجدداً قط وأن لطفي اتصل به عدة مرات ولكنه لم يرد على مكالماته، بل تخلص من هاتفه وأن أمه لا تعرف أي شيء عن الأمر كله. وعندئذ فقط أدرك أن أحداً لا يعرف أي شيء عن تلك القضية وأن الملف قد أغلق وأنه لم يكن ليتم القبض عليه لو لم يفتضح أمره بنفسه. لم يفت الأوان قط على التفجع على ما حدث. فقد لام دنيز نفسه ولعن نفسه لغبائه وفوق كل شيء حمّل أمه المسؤولية على دفعه إل حافة الجنون. فلو أنها لم تأت لربما لم يحدث أي شيء من هذا.

بينما أخذ دنيز وهو في مقر الشرطة يروي كل شيء عما حدث بانفعال وكأنه يتحدث عن قصة شخص آخر، واصل لطفي استعداده دون أن يدري أي شيء عن هذا. فلم تعد أمامه سوى بضع ساعات قبل أن يذهب إلى سايل مع خاله حيث تنتظره أكثر ساعات حياته إثارة والتي ستكون مليئة بأحداث لا تنسى.

31

في الطريق إلى سايل، شرح حامد للطفي الخطة البسيطة بإيجاز. لم يكن هناك الكثير لفعله. فقد حدد المكان الذي يعيش فيه هدفهما وأين يمكث الرجل في البيت خلال تلك الساعات. وهكذا، فقد كانا سيخوضان مغامرة قصيرة: توجب على لطفي أن ينتظر مكالمة حامد في السيارة بعد أن يدخل إلى البيت وأن يدرك بشكل حتمي أنه لن يدخل إلى البيت إلا بعد أن يرن هاتفه مرتين. وإن لم يسمع من خاله بعد دخوله بعشرين دقيقة، توجب عليه أن يتصل به. وإن لم يتحول الهاتف إلى إشارة مشغولة واستمر بالرنين، تبعه إلى البيت مهما حدث. قال له حامد إنه لم يعمل مع شريك من قبل في حياته وإنه لم يكن بحاجة لشريك قط وإنه واثق تماماً بأنه لن يكون بحاجته هذه المرة أيضاً، ولكنه اعتبرها فرصة جيدة للطفي ليتعلم بعض الأساليب الناجحة من أحد المحترفين.

"ماذا سأفعل عندما أدخل؟"

"ستدخل إلى غرفة المعيشة"

"وماذا بعد؟"

"ماذا بعد؟ عندئذ، سنضع الرجل في الكيس ونغادر. سنضعه في صندوق السيارة. وبعد ذلك، سأتركك في مكان ما في اسطنبول ثم سأتولى الأمر

"ماذا إن لم تتصل بي في غضون عشرين دقيقة وظل الهاتف يرن دون رد عندما أتصل بك؟"

"عندئذ، ستدخل إلى البيت لتبحث عني
"ماذا إن حدث مكروه لك؟ ماذا سأفعل؟"
"لن يحدث شيء من ذلك القبيل، ولكن لنقل إنه حدث، عندئذ ستدخل لتتفقد أمري وتساعدني. وإن وجدتني أقاتل الرجل أو ما شابه، فستساعدني
"ماذا إن ضربك الرجل بشدة فأغمي عليك؟"
"حسناً، سوف تنقذني
"ماذا إن مت؟"
"هيا، يا رجل. إنني بالفعل على وشك أن أندم على ذلك. إن مت، فغادر المكان على الفور. هل فهمت؟"
"لم أقصد ذلك، ولكن لست أدري...
"لا تفكر بالأمر. ادخل وحسب عندما يرن هاتفك مرتين"
"حسناً"

عندما انطلقت السيارة بهما إلى سايل في الظلام، لم يدركا أن حياتهما قد سبق واتخذت منحى مختلفاً. ولو أنهما ألقيا نظرة على تلك النجوم الجميلة التي تلمع في السماء وهما ينطلقان في طريقهما بعيداً عن أضواء المدينة، ولو نظرا إليها فقط بعيون صافية لربما اختلف قدراهما. ولو أنهما سمعا حقائق الحياة وهي تهمس في آذانهما مع الرياح، ربما لما اتخذا هذا الاتجاه في حياتهما ولغنيا أغنية "رقصة القمر في ليلة كتلك الليلة. أدرك كلاهما جيداً كم الحياة جميلة، ولكنهما لم يدركا وحسب أنها كانت لتصبح أفضل بكثير. بداية، شاهدا اللافتة المركزية ثم الفيلات المصطفة واحدة تلو الأخرى بحدائقها المليئة بالزهور وموائد العشاء الكبيرة السعيدة. بدا ذلك المكان أجمل في الليل. فتلك الغيوم الداكنة التي ظلت عالقة في

ذكريات لطفي لم تعد ظاهرة للعيان. فقد خسرت معركتها أمام الظلام الذي فرد جناحيه عليها. لم يبق أمامهما سوى 30 قدماً تفصلهما عن هدفهما. فأطفأ حامد أضواء السيارة وتابع تقدمه تحت جنح الظلام ثم ركن السيارة في الطرف المقابل للبيت الذي يريد الدخول إليه. لم يتمكنا من رؤية البيت بوضوح بسبب الأشجار المحيطة به. فنظر لطفي إلى البيت وإلى خاله بحيرة وبحث في ملامح وجهه عن إشارة تدل على الخوف، ولكنه لم يتمكن من العثور عليها. فقد بدا حامد مستريحاً كعادته وكأنه قادم إلى المطعم ليتناول عشاءه. وبعد أن انتظر لبعض الوقت، تفقد حامد ساعته ثم ترجل من السيارة. وانحنى ونظر إلى لطفي من النافذة المفتوحة وغمز له وطلب منه ألا يقلق وأن يأتي عندما يرن هاتفه مرتين. فزم لطفي شفتيه ليس ليقول نعم ولكن ليومئ برأسه بدلاً من ذلك.

عندما تأمل خاله وهو يقترب من البيت حاول أن يفهم كيف يمكن لذلك الرجل أن يجعل شعورين مختلفين يخالجانه في آن معاً. فرغم أنه كان يخيفه حتى الموت، فقد استطاع أن يملأ قلبه بالحب بأبسط إيماءة في بعض الأوقات. لم يستطع قط أن يحدد أي نوع من الرجال خاله. فقد كان رجلاً وحيداً يعيش في عالم خاص به. لم يره لطفي سعيداً جداً أو حزيناً جداً قط. لم يعتد التحدث عن نفسه. ولو أن أمه لم تحدثه ببعض الأشياء عن طفولته، لظل مجرد رجل غريب بالنسبة له. ربما كان حامد غريباً بالنسبة لنفسه أيضاً. وإن فتح قلبه ونقب في أعماقه، لما وجد أي شيء ولأصابه الحزن. أما لطفي من ناحية أخرى، فقد امتلأت نفسه انفعالاً وحيوية جعلاه يعجز أن يخفي سعادته الغامرة على الرغم من ظلام حياته. راح يتأمل حامداً وهو يمضي مبتعداً عنه وفكر أنه لا يشبه خاله على الإطلاق

ولا يريد أن يشبهه.

* * *

أشعل لطفي سيجارة رغم أوامر خاله ألا يفعل ذلك. وفي تلك اللحظة، شاهد حامداً يحاول أن يهرب إلى السيارة وهو يعرج ويمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى ويجر إحدى ساقيه. أمعن لطفي النظر في الظلام وتأكد من أن أحداً لا يتبعه ثم جرى نحو حامد ووضع جسده تحت ذراع خاله. وحالما وصلا إلى السيارة معاً ساعده على الركوب في المقعد المجاور لمقعد السائق وركب هو خلف المقود. لم يكن مستعداً لوقوع أي شيء من هذا القبيل. وبينما هو يحاول أن يسأله عما يجب أن يفعله، سمع حامداً يزمجر قائلاً: "دس على البنزين" ولم يقوَ على إضافة المزيد. فقد انقطعت أنفاسه. انطلق لطفي بالسيارة تاركاً آثار عجلات خلفه. لم يعرف إلى أين يذهب أو إلى أين يجب عليه أن يذهب. فالتفت إلى خاله مرة أخرى وانتظره ليقول شيئاً ما. وبعد قليل، سمعه يقول: "إلى اسطنبول... سيفيلي... وكان لطفي يعرف سيفيلي، ولكنه لم يدرك السبب الذي يجعلهما يذهبان إلى هناك. فأنَّ حامد مرة أخرى قائلاً: "إلى مقبرة سيفيلي أراد لطفي أن يعترض قائلاً: "أنت لن تموت" ولكنه أدرك على الفور عندما نظر إليه أن تلك ليست أمنية رجل محتضر. فقد توجب عليهما الذهاب إلى هناك فعلاً لسبب ما. لم يعرف ما الذي جرى في الداخل. ولم يستطع أن يفهم لماذا جرح خاله بذلك الشكل ولكن دون أن يتبعه أحد. بالطبع، لم يدر بخلد لطفي أن حامداً وجد رجال سايمون بانتظاره وأنهم كانوا على علم بالموعد الذي سيحضر فيه وأنهم رغم علمهم أن رصاصتين في قلبه ستقتلانه في نهاية المطاف إلا أنهم أطلقوا الرصاص عليه في ساقه

مـن أجـل التسـلية فقـط. من كان يـدري أن ابـن لاوي الحديد الذي لطالما عشـقه أبوه سـيثبت أنه مجرد وغد من هذه الشـاكلة؟ من كان يدري أن مصطفى قد عقد اتفاقاً مع سايمون وزعماء سايل منذ البداية ووعدهم برأس ذلك القاتل المأجور؟ فقد اتصل به أفراد تلك العصابة حالما حل محل أبيه وأخبروه عن الاتفاق الذي جرى بينهم وأصروا علـى أن يقـدم لهم الرجل. أما الصداقة والإخلاص وحماية الآخرين من وراء ظهورهم، فلم يكترث مصطفى لذلك النوع من الأمور. ومن أيـن لرجـل تخلـى عـن أبيه من أجل المال والسـلطة الكاملة أن يهتم لأمر حامد؟ فقد شـكل بالنسـبة له مجرد وسـيلة لغاية أخرى، ولكن حامـداً الـذي أوشـكت أن تنقضي لحظاتـه الأخيرة ولطفي الذي راح يقود السـيارة باكياً، لم يدركا ذلك. وعندما صعدت بهما السـيارة تل مقبرة سيفيلي، طلب حامد من لطفي بصعوبة أن يطفئ الأضواء ويقود ببطء، ولهذا السـبب قفز لطفي في مقعده وكاد أن ينحرف بالسـيارة عن الطريق عندما شاهد الضوء الكشاف يشع في الظلام. توجب عليه أن يعرف كيف يعمل هذان الرجلان معاً ليفهم ما يجري. ومع ذلك، فلم يعرف أحد سوى الجثث المدفونة في المقبرة نوع الصداقة التي جمعـت بينهمـا. التفـت ونظـر إلى خاله، ولكن حامـداً لم يعد يقوى على الكلام بعد الآن فأشار بيده إلى أنه بخير. وأراد أن يقول: "إنني بخيـر. لـم يعـد هنـاك ما يثير القلق بعد الآن" أوقف لطفي السـيارة، ولكنه ظل عاجزاً عن التصرف. وراح قلبه ينبض بسرعة لدرجة أنه لم يعد يقوى على التفوه بكلمة وفضح تسارع أنفاسه الخوف الذي سيطر عليه. وعندما ترجل لطفي من السيارة، بات الآن دور عيسى ليتفاجأ ويتراجـع إلـى الخلـف. وبعـد لحظة من الفزع، فكـر أخيراً بأن يوجه الضوء إلى مقعد الراكب. وعندئذ، لم يعد بحاجة لأن يعرف المزيد.

فالطريقة التي سند بها حامد رأسه ووضعية جسده المنحني أخبرته كل شيء يريد أن يعرفه. أسرع إلى السيارة حالما فتح لطفي الباب ووضع جسده تحت ذراع صديقه اليمنى. مع كل خطوة خطوها، أخذ حامد يئن وينزف من فمه أكثر فأكثر. فأجلسه على الكرسي أمام حجرته بمساعدة لطفي. ترى هل عليه أن يعرف ما جرى؟ وعندما يعرف المرء ما يجري، فهل عليه أن يعرف السبب؟ شعر بالحزن ولم يستطع أن ينكر ذلك رغم أن صداقتهما لم تكن صداقة حقيقية إلا أنه اعتاد عليه. وما أحزنه أكثر مع ذلك هو أنه لم يتمكن من مساعدته رغم معرفته أن هذا سيحدث.

ومع ذلك، فقد أدرك الآن أن دورة القدر قد اكتملت. وأثبت لهما ما جرى أنه اتخذ القرار الصحيح. ولو أن هذا لم يحدث ومع ذلك غادر، لربما اتخذ اتجاه حياته طريقاً خطأً، ولكنه الآن أنهى مهمته أخيراً.

بالنسبة للطفي، توقف الوقت عن المضي. لم يستطع أن يدرك سبب مجيئهما إلى هنا أو يعرف إن كان خاله سيتكلم مرة أخرى أم لا. لماذا اختار أن يأتي إلى هنا؟ هل هذه أمنيته الأخيرة؟ انتظر الآن كل من عيسى ولطفي بصمت وهما ينظران إلى حامد. ففتح عينيه وكأنه يعرف أنهما ينتظران منه أن يتكلم. ورفع رأسه ونظر إلى وجهيهما الشاحبين أمامه. لم يستطع أن يقارن الحزن الذي شعر به الآن بأي شيء آخر في العالم. وكان من الصعب عليه أن يتقبل الأمر الواقع. والآن، تذكر بيرنا بعنقها الجميل المكسور. فسره الآن أنها لم تعان مثل معاناته بفضله هو. بدأ يتحدث بجمل مقطعة بينما حاولت أنفاسه التي راحت تتقطع بعد كل جملة جاهدة أن تصبح أقوى عند بداية كل جملة جديدة. وتضارب لون الدماء التي راحت تنزف من

فمه مع لون وجهه الشاحب.

"هذه نهاية الطريق بالنسبة لي. لا تقل شيئاً لأحد، يا لطفي. لا ينبغي أن يعرف أحد أننا أتينا إلى هنا. جثتي تحت تصرفك، يا عيسى. خذ المال الذي في محفظتي. بارك الله بك"

قال كلاهما معاً: "بارك الله بك" ثم اختنقت أنفاسهما. وصعد الحزن إلى السماء بينما رحلت الدموع إلى مكان بعيد. لم تجد عينا حامد متسعاً من الوقت لتغمضا قبل أن يدق قلبه للمرة الأخيرة بل ظلتا تحدقان في الفضاء. ولم يعد هناك الآن سوى ذينك الرجلين بلا أي كلمات ومقبرة سيفيلي وحفرة لا يزال يجب حفرها.

* * *

عندما تجمدت نظرة عيني حامد، نظر كل من عيسى ولطفي إلى بعضهما بعضاً. فشعر لطفي بالحاجة لأن يخبر عيسى عن هويته، ولكن عينيه المتسائلتين لم تكونا مستعدتين لاستقبال أية أجوبة من "الأستاذ" فأشعل كل منهما سيجارة وجلسا على الأرض. بدا عليهما أنهما يتشاطران الحزن نفسه إلا أن أفكارهما لم تتلامس. فبينما فكر لطفي باليوم التالي والأيام التي بعده، انحصر تفكير عيسى باللحظة الحالية نفسها. أين سيدفن حامداً؟ لطالما اعتبر دفن أي جثة أمراً عادياً، ولكن دفن جثة شخص وضع ثقته به أمر مختلف كل الاختلاف. وبما أنه ما زال عند قراره بالمغادرة في اليوم التالي، فقد قرر أن يستخدم أحد شراشفه ككفن لصديقه.

أشعلا سيجارتين أخريين بعقب السيجارتين المشتعلتين ليس لأنهما أرادا التفكير بأي شيء آخر، ولكن ليؤجلا ما يجب عليهما القيام به، وأخذا يراقبان النقاط الحمراء في الظلام. ظل حامد جالساً خلفهما بهيئة توحي أنه يريد أن يضع سيجارة في فمه. وبدا كأنه يقرأ

أفكارهما من مكان جلوسه فوقهما. حسناً، فلم يكن أحد على يقين من أنه لا يفعل ذلك لأن أعمال العالم الآخر كانت مجهولة ومبهمة بالنسبة لهما كما هي بالنسبة للآخرين.

"سأذهب وأحضر شرشفاً"

قال عيسى هذه الكلمات وكأنه يدعو ضيفاً للإقامة في بيته.

"لماذا؟"

"لأغطي به الأخ حامداً"

"حسناً، كنت أفكر بهذا. هناك كيس في صندوق السيارة. إنه معنا لأنه..."

رفع عيسى يده ليمنعه من قول المزيد. فقد كان يعرف سبب وجودهما هناك. مع ذلك، فقد أدرك أنه سيشعر أنه بحال أفضل لو أنه لا يعرف تفاصيل الليلة. فقد تملكته خشية من أن يزوره حامد في أحلامه ويخبره القصة كاملة. بعد قليل، عاد لطفي والكيس في يده. وضع عيسى ولطفي حامداً فيه بمشقة كبيرة وهما يتصببان عرقاً. فتذكر لطفي كم اعتاد خاله أن يفعل ذلك بكل سهولة ويسر.

وفي النهاية، وضعا جثة حامد في عربة ذات ثلاث عجلات بدلاً من حمله على أكتافهما كما يستحق كل رجل في رحلته الأخيرة ثم بدآ يتسلقان إلى أعلى التلة. وبعد أن سارا مسافة طويلة بين نظرات لطفي الحائرة الخائفة، وصلا إلى المكان الذي ينشده عيسى. فأعطى عيسى لطفي أحد الرفشين اللذين أحضرهما معه. سمع لطفي صوت قرع الطبول القادم من مسافة بعيدة، ولكنها الآن بدت حتى أقرب. ففكر أن هناك من يقيم حفل زفاف أو طهور وتمنى أن يكون فيه، وقال في نفسه: "أتمنى لو أحظى بكأس شراب وبعض المهدئات وسيجارة" وفي تلك الأثناء، تابع الحفر مع عيسى الذي لم يقابله

من قبل قط. كان القبر الذي عملا على حفره فارغاً. من يدري كيف رحـل سـاكن هـذا القبر عن العالـم؟ وضعا حامـداً في لحده ببطء ثم أهالا التراب عليه. وعندما انتهيا من عملهما، وقفا أمام الشاهد ونظرا إليه تحت ضوء القمر. لم يكن هناك اسم أو تاريخ عليه. فقد أصبح مأوى حامد الجديد مجرد شاهد قبر فارغ في مقبرة الجلادين.

النهاية



حامد قاتل مأجور عديم الرحمة، لديه مبدأ يتمثل بعدم سؤال من يطلب منه قتل أحد عن السبب. وحامد هذا وثيق الصلة بالعصابات الإجرامية في إسطنبول.

لطفي شاب أرعن، يخاطب حامداً بلقب «خالي» مع أنه ليس ابن شقيقته. ولطفي هذا متورّط في الترويج للممنوعات في أنحاء شتى من المدينة وخاصة في الجامعة.

ذات يوم، بينما كان لطفي يؤدي عمله بالجامعة كاد أن يقع في قبضة الشرطة لولا مساعدة دنيز، وفي إحدى الليالي، اتصل دنيز بلطفي طالباً منه المساعدة رداً للجميل الذي أسداه إليه في الجامعة، فما كان من لطفي إلا أن سارع لردّ الجميل وقَبَضَ مبلغاً محترماً من المال تقاسمه مع خاله حامد.

هذه هي أحجار الرحى في قصة «مقبرة الجلادين». إنها قصة عن القدر والقتل والخيانة؛ عندما يقتل المتبنى متبنيه، وعندما تدور الدوائر ليرقد القاتل في مقبرة ضحاياه، ويقود القدر إلى اكتشاف قاتل عجزت الأدلة عن كشف هويته.